عزفٌ على الورق

تأليف : صادق ناظم السباعي

طبعة إلكترونية ٢٠٢٢

الغلاف : كيرستن هاندلمن

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

واتساب المؤلف 889489 937 963+

** مقدّمة **

بعد تخطيّ الأربعين.. ساورتني رغبة الكتابة، فرُحت أخُطّ، على مَرِّ الأيام، ما يختلج في نفسي من مشاعر، وما تُرَجّعه الأحداث فيها من صدى.. وإذا بكَمّ لا بأس به ممّا كتبت، قد باتَ راقداً بين عِطفيّ حاسوبي .

وإذ شارفتُ السبعين.. رأيت أن أضمّ كتاباتي .. في عزف من أربع حركات :

[قصص] [سوانح]

[رسائلي و رسائلها]

[خطرات]

لعلها أن تنسابَ في نفس القارئ لطيفةً موحِية

***

** إهـداء **

لناظِمي ..

* لدِيمَتي ..

* * لهَمْسَتي ..

لأحبّة وإن بَعُدوا.. أطيافهم لا تفارقني ..

قصص

وَردة ..

كان على عتبة خريف العمر، رجلٌ محبٌّ للطبيعة في جلال سكونها، اعتاد ارتياد ربوة قرب منزله النائي، والجلوسَ بسفحها عند المغيب، يتأمل أشجاراً باسقات، وزهرات ناضرات، تميس متراقصةً مع الأنسام.. تؤنس وحشته، وتسكب السكينة في نفسه. يرسل نظره في المدى، ويُطلق العنان لروحه تسرح نشوانة.. نافضاً عنه عناء نهار .

وكان يوماً، رآها فيه لأول مرة، تشرئبّ بعنقها الغضّة من بين جاراتها.. تتأوّد أمامه كأنها تدعوه إليها! بُهِر بحسنها.. نهض ومشى إليها يروم رؤيتها عن كثَب ..

وإذا بها وردة حباها الله بتكوين وتلوين فريدين، فجاءت آية من آياته ..

لَمّ الرجل بَتَلاتها بكلتا راحتيه حاذراً تأذّيَها، وأحنى عليها ينهل من شذاها.. فغاب عمّا حوله! صحا من سكرته، ونظر إلى السماء مُسبّحاً المصور المبدع ..

وإذا بصوت رقيقٍ عذب.. يرِدُ سمعه :

- أتهيأ لك كل يوم لعلك تراني، وأظلُّ أتَمَلّاك في جلستك ساهماً، متأمّلاً كشاعر يستوحي قصيدة، فأصلّي كي تلمحَني عيناك، وأنت عنّي غافل! حمداً لله أنك تنبّهت لوجودي، ونالني إعجابك.
- واخجلتاه لغفلتي عنك طيلة تلك الأيام. أتحمدين الله أنك نلت إعجابي! أيمكن لامرئٍ ألّا يُؤخذَ بجمالك الساحر، وشذاك الآسر..! أسفي على كل يوم فات وأنا عنك غافل .
- إطراؤك الغامر أسعدني أيها الرجل الحبيب، واعلم أن لك في نفسي منزلةً ما استحقها أحد غيرك، وما كان جديراً بها سواك .. فإليك سِرّي :
- أكرمني الله بمقدرة ليست في سائر بنات جنسي، أبدّل لوني، أغيّر شكلي، أتكيف بعطري، أحجبه، أنثره، أجعله طيّباً زكياً، أو وخّازاً جارحاً.. وإلا ما كنتَ الآن تراني. كُثْر هُمُ الذين يمرّون بي، فلو لم يُنعِمِ الله عليّ بهذه المقدرة، لكانت يدٌ قد قطفتني منذ أمد، لكن يوماً، لابدّ من يدٍ ستقطفني، لن تُجديَ مقدرتي في درء تلك اليد عنّي.. فلِم لا تكون يدك..؟!

بُهت الرجل بما سمع وقال :

- يدي !! أخشى أن تتأذي يا وردة.. نفسي لا تطاوعني .
- ليس من يد ستكون أحنّ من يدك.. هيّا اقطفني وازرعني على وسادتك، أُطيّب ليلك، وأزيّن نهارك.. هيّا.. أنا لك.. خذني.. لا أريد أن أكون لسواك..

فكّر الرجل.. مدّ يده، ثم أحجم . فاستحثّه الصوت الرقيق :

- هلمّ هيّا.. اقطفني كيفما بدا لك.. من عنقي، من ساقي، من جذوري.. هيّا ..

هالهُ الأمر فقال :

- اعذريني أيتها الوردة الجميلة.. لن أقوى على ذلك.. لن أقوى..

- هي مشيئتي.. أوَتضنّ بها عليّ !

- لعلّي أن ألبّيَها لك في الغد، فهلّا أمهلتِني؟

- حسناً..كما تشاء

- ألقاك غداً يا وردة

أطرق الرجل مفكراً ، وغادر الوردة مأخوذاً مذهولاً..

رقد تلك الليلة في فراشه يتفكر في أمر تلك الوردة العجيبة.. أريجها مازال يسكره، وصورتها الخلّابة لا تبرح مخيلته.. حتى غلبه النعاس .

أشرقت ذُكاء في صبيحة اليوم التالي، وأطلّت عليه من خلال نافذة غرفته تبغي إيقاظه.. لعله أن يصبّح على الوردة قبيل ذهابه إلى عمله، فيراها على نحو أبهى وقد استحمّت بندى الفجر وازّيّنت بشعاعاتها الذهبية توَشّي ألوانها الفريدة . كان ثمة ودّ حميم يشدّ ذُكاء إلى الوردة إياها دون الوردات الأخريات!

وما خاب ظن ذكاء! ما إن استيقظ الرجل حتى برقت الوردة في مخيلته، واستحلى أن يستهل نهاره بمرآها وتنسُّمِ عبيرها المسكر، قبيل توجهه إلى عمله .

أنعش جسده بحمّام بارد، وجمّل ما وسعه من هيئته.. فبدا مشْرقاً، وسيماً.. ويمّم شطر الوردة . اعتلى الربوة، وأرسل نظره إليها من بعيد. رآها بين جاراتها يُطوّقنَها، وهي تتمايل بينهنّ كأنها طَرِبة سكرى! تابع خطواته نحوها، ما إن لمحته حتى جَمُدت في مكانها، دهِشَة من قدومه المفاجئ ! كالومض تلوّت وانتصبت، تفتّحت على أبهى صورها، وأشرقت بأزهى ألوانها.. وسرعان ما ضوّعت في المكان عطرها ينفذ إلى صدر زائرها مع النسائم النديّة لذيّاك الصباح الجميل .

أسرع بخطواته نحوها، انحنى عليها يتنشقها بملء صدره، مطوّقاً إياها براحتيه، هامساً لها بنشوة ما أحسّها من قبل :

- صباح الخير والسعادة والجمال يا مليكة الورود..

- عمت صباحاً أيها الرجل الحبيب.. يا لها من مفاجأة سارة مَنَنْتَ بها علَيّ.. لطالما تُقتُ إلى زيارة

صباحية منك، مجيئك هذا يوقد فيّ رغبة شديدة للغناء..! هلّا جلست بقربي أغنّي لك..

- بكل حبور وامتنان يا وردة..

جلس بجوارها، وأخذ ينظر إليها متلهفاً لسماعها. مالت على كتفه وأنشأت تغنّي..

غنّت ألحاناً - ذابت لها مشاعره، وكلمات اختلجت لها نفسه - بصوت تهادى إلى سمعه عذباً شجياً حنوناً. تمنّت أن ينام وهي تغنّي ليبقى إلى جانبها، فتتملّى محيّاه، وتُشبع تَوق روحها لروحه.. إذ إن إحساساً ساورها تلك اللحظة بأنها لن تراه بعد اليوم!

غفا الرجل قرب ساقها سويعات، رأى خلالها أحلاماً جميلة..

استيقظ من سباته، وذكاء في كبد السماء، دعَك عينيه ونظر يروم رؤية وردته، لكنها لم تكن هناك!!

صُعِق! هبّ واقفاً كالمذعور.. تلفّت حواليه.. أجال بعينيه قريباً وبعيداً، فلم يرها. نظر إلى جاراتها مستفسراً.. فما كان منهنّ سوى الصمت، واجمات حزانى في أمكنتهن .

أطرق برأسه محزوناً يعتصره الألم.. وإذا بعينيه تلمحان منبتها الصغير عند قدميه، وبقايا من جذورها الطريّة مازالت فيه. ركع وأكبّ عليها يتحسسها باكياً. همت دموعه غزيرة، وقضى يومه إلى جانب أطلال وردته، ناسياً عمله، حتى آذنت ذكاء بالمغيب وهي ترقبه حزينة وجيعة.

جرّ قدميه عائداً إلى منزله، مغتمّاً منقبض الفؤاد.. وبات ليلته ساهراً محسوراً، حتى لاحت خيوط الفجر .

انقضت أيام وشهور، مرّ ربيع وأتى ربيع، والرجل مواظب على زيارة منبت وردته الذي جهد كي يبقيَه دون زوال، ينظر إليه طويلاً كل يوم، يتحسسه بيده ، لعل وردته تبزغ من جديد! لم تنسه الأيام حزنه.. بل كان ألمه يزيد، وأمله بعودة وردته – حبيبة روحه – يذوي، إلى أن فاضت روحه وهو مستلقٍ على أطلالٍ تلاشت رغماً عنه .

وفي أثناء ارتقاء روحه آيبة إلى بارئها، لمحت من بعيد الوردة إياها، بكامل رونقها وبهائها.. كانت على شرفة منزل جميل، ويد رجل حنونة تُعنى بها..!

انسرّت روحه راضية.. وأملها بالله كبير أن سيجمعها بتوأمها، في العالم الآخر .

(شتاء عام ١٩٩٤)

* * * *

قبُلات الياسَمين..

(١)

في صبح ربيعي مشرق من أصباح مدينة حلب، عام خمسة وأربعين وتسعمئة وألف، رشف أمجد - ذو التسعة عشر ربيعاً - من قهوته الصباحية، واقفاً خلف نافذة غرفته، يستنشي أنساماً صباحية نديّة، محمّلة بأريج الياسمين الفواح في حديقة داره .
كان متأنقاً على غرار نجوم الأفلام السينمائية الرائجة آنذاك، متهيئاً للخروج وبدء يومه الوظيفي الأول في دائرة حكومية، بعد أن كان من أوائل الناجحين في مسابقة أجرتها . وإذا بسحاب يظلل الأرض ويسكب عليها مطره مدراراً ، ثم ينقشع ليتركها للشمس تغمرها، فيتضوّع منها عبق التراب والحشائش المنبسطة حصائرَ خضراً تغطي مساحات بين بضع أبنية في الحي، مأهولة بمن دُعوا آنذاك بصفوة الأُسر .
ينتشي أمجد بتلك الرائحة المنعشة تنفذ إلى صدره نفحات مطيّبة بعبق الرياحين، تهُبّ من حدائق وشرفات الدور المجاورة فتُسْكِرُه..
وهو في نشوته تلك، إذا بصبيّة جميلة القد، تهرول بغنج، لتلج مدخل عمارة على الطرف المقابل لنافذته، فتساءل من تُراها تكون.. هذه الهيفاء..!
نظر إلى ساعته ، فكان عليه أن يسرع لتسَلّم مهام عمله الجديد .
ودّع شقيقته وشقيقه اللذين يكبرانه سنّاً، وغادر الدار مغتبطاً ، وصورة الصبيّة الغنوج تداعب خاطره ..

ساعة أوبته من عمله، لمحها تسقي الزهر على شرفة في الطابق الثالث من تلك العمارة.
استقصى أمرها بمسعىً من شقيقته، فعرف أنها فتاة لبنانية، تدعى (دوموازيل ايڤا)، باشرت عملها منذ أيام ثلاثة، ممرّضة مقيمة لدى جيرانهم، تُعنى بصحة جَدّهم، ومتابعة دروس حفيديه، وأنها ذات ثقافة فرَنسيّة الصبغة .

مضت أيام ، كثيراً ما رأى فيها أمجد الصبيّة على الشرفة، وكثيراً ما ترقب رؤيتها، ومراراً ما التقت عيونهما وهما عابرَين في الحي، أو وهو واقف خلف سور حديقة داره .

كم تمنى أن تتمكن نظراته الرزينة إليها من إيصال ما تحمله في طيّاتها، إذ إنه لم يكن يقرأ في عينيها - إذا ما وقعت عليه - ما يوحي بشيء. كان يشعر بالغيظ إذا ما مرّت بقربه متجاهلة إياه وهو الشاب المُلفِت..!

وفي يوم ، شاهدها من نافذته، تُخرج بضع رسائل من علبة بريد مثبتة على جدار مدخل عمارتها، فطفرت له فكرة الكتابة إليها عن طريق صندوق البريد، آملاً أن تكون عادة فتحها منوطة بها. ولإلمامه بالفرنسية من خلال دراسته وتحدّثه مع بعض أبناء ضباط فرنسيين يقطنون دوراً مجاورة لداره، فقد انتوى الكتابة بها لعلها تكون أوقع في نفس الفتاة ، سيّما أنه استشف فيها

نزوعها إلى التفرنج .
تحيّن ألّا يكون أحد يراه ، وأودع الرسالة في الصندوق، وقد جاء فيها ما ترجمته :

((الآنسة ايڤا المحترمة ،

أرجو أن تغفري لي جرأتي في الكتابة إليك دون سابق معرفة بيننا، لكني لم أرَ بُدّاً من ذلك ، لأعرب لك عن شديد إعجابي، ورغبتي الملحّة في التعرف إليك..
ما إن أراك سأبادرك التحية، فإن رددتها، سيسعدني ذلك جداً ، وسأعلم أنك لا تمانعين تعارفنا، وإلا.. فيا لخيبتي.. ويا لألمي..

جارك الشغوف بك)) .

ما إن أتمّت ايڤا قراءة الأسطر حتى عرفت، بحَدْسها، أنها من الفتى الوسيم صاحب النظرات النامّة عن اهتمامه بها .
سُرّت ايڤا بمبادرة الفتى ، وبأن صداقة وشيكة تنتظرها في بلد ليس لها فيها من صديق .

انقضى يومان دون أن تُلقي الصدفة أحدهما في طريق الآخر - وكلاهما توّاق للّحظة المنتظرة حتى كانت فرصة سانحة بادر فيها أمجد بإلقاء تحيته :

- بون جور مدموازيل ..

- بون جور .. !

- لكم أنا سعيد باستجابتك ..

وإذا بصوتها يتهادى إلى سمعه ناعماً حلواً وهي تقول :

- غريب ما تقول! استجابتي لأي شيء؟
- ألم تتلقي رسالتي ؟!
- أيّ رسالة ؟!

ارتبك أمجد، واضطر أن يشرح لها الأمر ، فقاطعته :

- لا تخف.. الرسالة بحوزتي ، وقد رددت التحية بحسب مشيئتك .
- إذن ، أنكون صديقين ؟ دوموازيل ايڤا
- أراك على عِلْم باسمي !
- وبغيرِ اسمِك أيضاً ..
- ما اسمك ؟

- أمجد
- ما الذي تعرفه عني يا أمجد ؟

- هل لنا بالجلوس في حديقة دارنا ، فأطلعك عمّا أعرفه عنك ..
- إن لدقائق، فلا بأس ..
- تفضلي ..
- ياسمينتكم دَغِلة فوّاحة ..!
- سأقطف لك حفنة منها ..
- لا.. يكفيني استنشاق عبيرها، وإمتاع ناظرَي بزهراتها مكتظة بين وريقاتها ..

وغيّبت وجهها بين الياسمين ، تستنشي رائحته الزكية ، فيما أمجد يمتّع ناظريه بشعرها الكستنائي المتموج اللمّاع ، منسدلاً نحو أعلى كتفها على بشرة بيضاء صافية .

تنحّتْ عن الياسمين ترفّ أهداب عينيها نشوانة :
- يا لعبيره ..
- عبير شعرك أطيب وأزكى .. يا لشذاه ..

أطْرقتْ في استحياء ، وقد تورّدت وجنتاها ، وقالت :

- إذن كنت منشغلاً بشعري ، بينما كنت مأخوذة بالياسمين ..
- بل هائماً فيه .. يا لجماله ..

زاد إطراؤه من استحيائها ، فجلست على حافة بركة الحديقة تداعب الماء بيدها ، مدارية ارتباكاً ألمّ بها من مغازلته .

أخبرها كيف رآها وأعجب بها، وبما عرفه عنها بمسعى من شقيقته. فصارحته بأنها انجذبت إليه منذ أيام ، وهي ترقبه يحادث شخصاً أمام داره .
وإذا بأمجد ينتبه لوجود شقيقته تنظر إليهما من خلف نافذة للدار، فيشير إليها بيده معرّفاً ايقا بها، ويطلب منها مشاركتهما الجلوس مع قهوة من صنع يديها .

- إنها أختي رضيّة، تكبرني بثلاثة عشر عاماً، وهي بمثابة أمّ لي ولأخ يكبرني بعامين. بقينا في هذه الدار بعد وفاة والدينا، نعيش برعايتها في هدوء ووئام، وهي الآن على وشك الانتقال إلى دار الزوجية، ولي أخت أخرى متزوجة، وأخ آخر يتابع دراسته في مصر .
- من سيعتني بكما بعد مغادرتها إلى زوجها ؟
- سنعتني بأنفسنا حتى يُكتَب لنا الزواج. وهي بعد مغادرتها، لن تضنّ علينا بزياراتها، لأن قلبها لن يطاوعها، فهي تعلم أننا اعتدنا أكلها الطيّب الذي لا نرضى عنه بديلاً.. هَه .. ها هي قادمة ..

ترحّب رضيّة بايڤا ترحيباً لائقاً، ويحتسون القهوة فيما هم يتجاذبون أطراف الحديث .
تروق القهوة لايڤا فتلتفت إلى رضيّة مطْرية :

- قهوتك طيّبة لذيذة يا رضيّة خانم
- يسعدني أنها أعجبتك

يُردف أمجد :
- إن لأختي صبراً عجيباً على غلْيِها بأناة، وهي فنّانة ماهرة من الطراز الأول في تدبير المنزل..

تقاطعه رضية :
- إنه يبالغ ..
- لا أظنه يبالغ ، فكل شيء هنا يوحي بما يقول، وقد حدثني عنك وعن مكانتك الجليلة في نفسه
- هذا من لطفك يا آنسة .

تُعرب ايڤا عن سرورها بالتعارف، وتشكر لرضيّة ضيافتها، وتستأذن كي تغادر. وما إن غابت حتى التفتت رضيّة إلى أمجد :

- قل لي ، كيف دعوتها وما هو مأربك منها ؟ ظننت سؤالك عنها لا يتعدّى دافع الفضول، وها أنا اليوم أراها عندك !
- لا يشطّن خيالك بعيداً يا أختي، لابد وأنك لمست دماثة خلقها ولطف معشرها، وهي إذ تشعر بالوحدة بعيدة عن أهلها، أثمة ما يضير في أن نكون صديقين !
- لا أظنك بغافل عما يضير، وأرجو ألّا توطّد معرفتك بها تحاشياً لما لا تحمد عقباه .
- لا ينشغلنّ بالك أختي.. أرجو أن تثقي بي، وأن لا تمانعي صداقتنا ، فأنت تدرين مدى حرصي .
- لن أسترسل في مناقشتك لأني لن أفلح في ثنيك عما تعتزم القيام به
- لا تقلقي أختي.. كوني مطمئنة.. هلّا أريتني ابتسامتك الحلوة
- سأقلق يا أمجد، ولن ترى ابتسامتي مادمتَ على علاقة بهذه الفتاة .

تترك رضيّة أمجد، لتعود وتستأنف ما كانت مشغولة به داخل المنزل.
على الرغم من أن أمجد كان دائم الحرص على عدم مخالفة رغبات أخته، إلا أنه لن يتمكن من ألّا يُزعن لرغبته الملحّة في الصداقة المنشودة.

مساء اليوم التالي، وقد خيّم السكون على الحي الوادع، جلس أمجد قرب بركة الدار يقرأ كتاباً على ضوء مصباح واهن، وصوت نافورة تلغو ..
وإذا بحفيف أوراق شجرة الليمون - المائلة عبر سور الحديقة نحو الشارع - ينبّه سمعه، فخاله من جَرّاء مرور قطّة على سور الحديقة، فلم يكترث. عاد الحفيف ثانية لينتشله من استغراقه فيمايقرأ، فرفع رأسه ناهراً القطّة : بِسْت .. بِسْت.. لكن الحفيف راح يشتدّ !

نهض مقترباً من الشجرة ليستكشف الأمر، وإذا بضحكة رنّانة تنفلت من ايڤا التي كانت ترقبه محرّكة الأغصان بيدها ..

- إذن هي أنت !
- نعم أنا ، وآسف لتعطيلي قراءتك ..
- لا داعي للأسف، أنا جدّ سعيد بهذه المفاجأة.. هلمّي ادخلي .

دخلت الحديقة وراحت تنظر حولها مأخوذة بجوّها الرطيب يعبق بشذا ما تضمه من ورود زهور، وبالبركة الجميلة يتموّج ماؤها تحت ضوء القمر .
يتجه إليها مرحباً، يصافحها وعلائم السرور بقدومها تطفر من عينيه ..

- أهلا بك ايڤا ، يا لها من مفاجأة جميلة.. دعينا نجلس
- اسمح لي قبل الجلوس بتنشق الياسمين.. وانتبه.. فلا طِيب اليوم ينبعث من شعري ..

تعلو وجهه ابتسامة، ويتجهان إلى الياسمينة القابعة في الظل. وفيما هما يستنشيان شذاها، يتعمد أمجد لمس خدها بطرف أنفه، فتحس بدافئ نفَسه، وتبقى من غير حَراك جرّاء خَدَر عذب سرى في جسدها، فتتعانق الشفاه - والجفون ذابلة - بقُبَل مغمّسة بالياسمين، لروحين ظامئتين وجسدين عطشين ..
تتوجس ايڤا.. وتصحو من سَكرتها ..

- حذار أمجد من أن يرانا أحد
- ليس من أحد في المنزل، والياسمينة سِترٌ حسن
- عليّ أن أذهب
- ما جلسنا بعد !
- أراكَ غداً ، وأرى ما كنت تقرأ

وفيما كانت تنطق، كانت حدقتا عينيها تلمعان تحت ضوء القمر ببريق لم يره أمجد في عينين من قبل. أما صدرها الناهد وهو يعلو ويهبط مواكباً خفقات قلبها، فقد حفَزه لأن يضمّها إليه كأنه يصهر كيانها في كيانه قبل أن تغيب عن عينيه.. فكانت بينهما قبلة مديدة حرّى.. وللذّة عارمة سرَتْ فيهما ، ما انفكا عن بعضهما إلا عند سماع صرير باب الحديقة، لتدخل رضيّة عائدة إلى المنزل. قبعا تحت الياسمينة دون حراك، ينتظران دخول رضيّة إلى الدار، فيما كانت هي تجيل بنظرها عجبة من نافورة تنضح ومصباح مُنار، وما من أحد .
ما إن اطمأنت ايڤا لدخول رضيّة الدار، حتى اختطفت لثمة من شفتيه، وغادرت مسرعة .

في صبيحة اليوم التالي، أيقظت رضية أخويها ليشاركاها القهوة الصباحية، واتخذت جلستها المعتادة في شرفة تطل على الحديقة، تنتظر قدومهما، ويا له من غيظ تملكها وهي ترى كمّاً من

زهرات الياسمينة مسحوقة على الأرض. تكظم غيظها، لتلفظه في وجه أمجد حين يجيء إلى الشرفة. لحظة جاء لاحتساء قهوته مصبّحاً على رضيّة وهو يتثاءب مغالباً نعاسه من سهر طويل في فراشه مع طيف من فغمت فتوته بأنوثتها الساحرة .. أجابته رضيّة :

- أيّ خير..!! وزهرات الياسمين على الأرض مسحوقة كما ترى ..!! خرجتُ البارحة من البيت مساءً وهي بكامل رونقها، ساعة حضرتك كنت جالساً في الجنينة تقرأ، لأعود وأرى مصباح الحديقة مناراً والنافورة تنضح، وعند الصباح أرى ما أرى! إنْ هذا إلا جرّاء كونكما مساء البارحة معاً تلوذان بالياسمينة..

- من تقصدين، ولماذا نلوذ بالياسمينة ؟
- حضرتك والآنسة المحترمة.. ايڤا..

حدّث نفسه أن يالها من كهينة هذه الرضيّة !

- هَبي أنّا كنا معاً عند الياسمينة، أثمة ما يدعو إلى أن نفعل بها هذا ؟ ثم اعلمي أنها لا تحبذ قطف الأزهار، ولحظة عودتك لمحتُك تدخلين الدار ساعةكنتُ أحدّث جارنا خارج الدار ..
- ما قلتَه لا ينفي تلاقيكما عند الياسمينة تلاقياً غير بريء..
- لا تطلقي العنان لخيالك يا أختي، فظنك هذا ظالم.. لابدّ وأن بعضاً من المارّة ليلاً أرادوا قطف الياسمين على عجل، فتسببوا بهذا.. تعلمين كم يسهل فتح باب حديقتنا من الخارج..

- أنا لا أطلق العنان لخيالي، فقد لمحتكما تحت الياسمينة لحظة دخولي المنزل
- إذن لا سبيل لي إلى الإنكار.. في المرة القادمة سننتبه كي لا نسيء للياسمينة.. أعِدُك
- ما شاء الله..!! مازال هناك مرة قادمة!! هداك الله يا أمجد .

(٢)

وكان حُباً بين عمّي، شقيق أبي، وجارتنا (دوموازيل ايڤا)، علمتُ به، مع بداية شبابي . لقد ربطتني بعمّي صداقة حميمة، على الرغم من ستة وعشرين عاماً تفصل بين عمرينا. وها أنا بعد أعوام ثلاثة من تركه الدنيا - وهو في السادسة والستين من عمر عاشه عازباً - أكتب عن إحدى سيره العاطفية، بعد أن حظيتُ من أبي - وهو يكبر عمّي بعامين - على محفظة جلدية، أنهكها الزمن، تَركةً عزيزة عليّ من عمّي، رحمه الله، تغصّ بمجمل ما كان في حوزته من صور ورسائل، من بينها ما كان له من الآنسة ايڤا، اطلعت عليها، فكانت حافزاً لأخطّ هذه القصة .

علمتُ من المكاتيب، أن ايڤا كانت قد غادرت حلب إلى بيروت، عام خمسين وتسعمئة وألف، لتبدأ عملاً جديداً، لدى أسرة، وظلت تكاتب عمّي حبيبها الذي لن تنساه - كما تقول في إحدى رسائلها - على مدى أعوام ثلاثة، انتقلت خلالها إلى بلدة (المحلة الكبرى) بمصر بعد أن تركت بيروت .

تزوج أبي من أمي في الدار التي نشأ فيها، بُعَيْد مغادرة شقيقته رضيّة إلى دار الزوجية، وظل عمّي محتفظاً بغرفته في الدار ذاتها .

في إحدى رسائلها عام اثنين وخمسين، سألت الحبيبة حبيبها عمّا إذا كانت امرأة أخيه - أمّي - قد وضعت وليدها، وما أسمته.. فعرفتُ أنها كانت تسأل عنّي .

أذكر أنني سمعت يوماً، وأنا في مقتبل العمر، بأن الآنسة ايڤا زارتنا بضع مرات، وهي في زيارة لحلب، وحملتني بين يديها تداعبني وأنا ابن عام أو عامين، ولا أذكر أني سألت عمّي يوماً عن مصيرها..!

أما والداي فلا يعرفان سوى أنها رحلت عن جيرتهم، وأنها لم تكن لعمّي أكثر من صديقة . لكن رسائلها قد كشفت لي عن حب دام قرابة خمسة أعوام قبل الفرقة، وذلك لما فيها من لواعج الحب وألم الفراق، وكم بيّنت الرسائل تمنيَها الشديد لقبول عمّي بها زوجة، لتسعد معه، إذ وهي بعيدة عنه، ترى أيامها باهتة، وحياتها مقفرة، وأن روحها الحزينة لا تني تصبو إلى روحه، ولا يمكن لرجل أن يمسّها من بعده، وكم تخشى أن يكون قد آثر غيرها بحبه.. وكم تتمنى أن يناديها لتهرع إليه.. وكان في المحفظة صورتان لها بين كدسة من الصور ، تحملان خلفهما كلمات الإهداء. وعلى الرغم ممّا مرّ من زمن، أخذني إحساس من شفقة على الفتاة، موقناً أن حبيبها الأثير ما كان ليقترن بها .

كان لرسائلها المؤثرة وقع في نفسي، جعلني أنوي البحث عنها - مستعيناً بعناوين أربعة دُوّنت بذيل كل رسالة، لأعلم مصيرها، وأُعلِمَها مصير حبيبها الذي عاش ومات دون أن يكون لسواها، هذا إذا ما وجدتها حيّة وقد مضى اثنان وأربعون عاماً. ولا أكتم باعث فضول لدي لتلقي وقع لقائها بمن له قسمات حبيب قديم لها، ربّما مازال حبه دفيناً فيها .

كانت في مكاتيبها لا تني تُطري بامتنان على ما أبداه عمّي لها - قريباً وبعيداً - من ريّق الحب، وعلى ما بثّها من جمّ لطفه وحنانه.. وما من مغلف لرسائلها إلا وكُتب عليه : " يُسلّم لحضرة الأديب المهذّب الشاب أمجد السباعي، دام بقاه * ". وبذا جعلتني أستذكر خصاله، وما اتسم به من كياسة أرتني فيه صديقاً آنسُه وأستعذب مجالسته.. كيف لا.. وفيه روح الأديب والناقد والموسيقي والشاعر.. أسمعني من عزفه وغنائه، قرأ لي من نظمه، وقِصار قصصه. وكم آسف أن الأيام ما سنحت لي بلقائه - بعدما رَشِدْتُ وانفصل بسكناه عنّا - إلا بين فترات متباعدة. لكني ظللت آخذ عليه في سري، شيئاً من غرور شاب سريرته، ترَكَه لا يرى فتاة جديرة بالاقتران به، ولا عملاً يليق به بعد تقاعده عن عمله الوظيفي، فعاش معسراً بقية عمره .
بَيد أني أُكبر فيه صدوده عن الزواج في مرحلة متقدمة من شبابه، لما أيقنته ببصيرتي، أنه لا يريد أن

---

* بقاه : بقاؤه

يظلم امرأة بالزواج منه وهو الذي أدمن الخمرة فتمكنت من أسر كيانه . وبالقدر الذي آلمتني به وحدته القاتلة في أواخر حياته، سرّني خلاص روحه المعذبة بانعتاقها من جسده المضنى.. لعلها أن ترى الراحة برحمة بارئها الواسعة .

(٣)

طفقت أبحث، لعلّي ألقى فرداً من جيراننا الذين عاشت بينهم الآنسة ايڤا، فأستدل منهم على مكانها أو أعلم عن مصيرها.. حتى عثرت على امرأة طاعنة في السن، هي ابنة لجيراننا القدامى، استطاعت تذكّر الجيرة القديمة، وفادتني بأن ضالتي تقضي بقية عمرها نزيلة دار للمسنين في إحدى ضواحي بيروت، بمساع من أبناء إحدى الأسر التي رعت ذويهم ردحاً من الزمن .
شعرت بالأسى لهذا المنتهى لإنسانة كانت يوماً يافعة يانعة، تفيض حباً نحو من رأته أحب الناس إليها، وأخيَرهم لبناء أسرتها المأمولة، في حين لم يكن هو يراها، بحسب تقديري، سوى أولى حبيبات عهد شبابه .

بقيتُ أروم رؤيتها ، فانتويت السفر.. ركبت إلى لبنان، وقصدت دار المسنين في بيروت .
رأيتها داراً لائقة، تضمّ كل ما يُرتجى في سبيل غايتها، فراودني اطمئنان وكأن الآنسة ايڤا إحدى قريباتي المقربات.. ولشدّ ما صُدمتُ بعلمي عدم حلول من يحمل اسمها، يوماً، نزيلاً في تلك الدار!
سامح الله تلك العجوز ابنة الجيران، على دلالة ابتكرتها من خيال.
عدت إلى عنوانين كانا على رسائلها. الأول لم يعد من أثر له على الأرض، أما المنزل بحسب العنوان الثاني فكان يسكنه أناس لا يعلمون مآلاً لمن سبقهم فيه، لكنهم دلّوني على جيران لهم لعلّي بمساعدتهم أن أصل إلى مبتغاي .
وُفّقت في الوصول، ورأيتني أمام باب الدار التي يُفترض أنها تؤوي من أسعى إليها .
بدت لي الدار من خارجها جميلة بطرازها العمراني القديم، منيفة على حديقة تزنّرها من جهاتها الأربع. ولجتُ الحديقة، صعدت بضع درجات وطرقت الباب، فانسنى بعد برهة عن وجه شككت أن يكون وجهها، مقارنة مع صورة لها أيام الصبا. حييتها وبادرتها بالسؤال :

- العمّة ايڤا ؟
- نعم .. هل من خدمة يابني ؟

أتاني صوتها ناعماً حلواً.. فأجبت :

- أنا من حلب، وأنتمي إلى أحد معارفك القدامى هناك. هل لقسمات وجهي أن تُذَكّرك به ؟

حملقت في وجهي بعينين واهنتين، وقالت :

- اعذرني بُنَي، سأضع نظارتي كي أتبين ملامحك جيداً، تفضل بالدخول.. تفضل.

أفضى بيَ الباب إلى صالة فسيحة تضم أثاثاً بسيطاً، جميلاً، ينمّ عن ذوق لافت، وجلستُ حيث أشارت لي. غابت لبرهة، فكرتُ خلالها بأنها لن تتمكن من معرفتي رغم شبهي بعمّي. عادت والنظارة على عينيها، جلست إلى جانبي، وأخذت تتأمل وجهي .
آثار السنين كانت بادية على وجهها المتعب، لكن حيويّة بدت لي فيها، لم تكن في عمّي قبيل ارتحاله. قالت :

- لك شَبَه بأحد معارفي القدامى في حلب، مع فارق السن، وأستبعد أي رابط بينكما، إذ إن سنين طويلة انقضت دون معرفة أحدنا بمصير الآخر أو حتى عنوانه .
- هل هو أمجد ؟
- أيُعقل !! أأصدّق أن ابن أمجد في بيتي بعد مُضيّ كل تلك السنين !!
- بل أنا ابن أخيه ..
- أيّ أخ منهما.. ناظم أم عادل، وأيُّ ريح طيّبة حملتك إليّ ؟!
- أنا ابن ناظم، وليست الريح من حملتني إليك، بل قصدتك يا عمة ..
- أنت صادق الذي حملته بضع مرات على ساعدَيّ يوم كان يحبو ؟!
- نعم أنا هو، وأنا اليوم هنا عرفاناً مني لمحبة أبديتِها لي ذات يوم..
- لو تعلم مدى دهشتي يا ولدي.. أهلاً وسهلاً بك.. أهلاً وسهلاً ..

مرّت براحة يدها على رأسي، وأبقتها على كتفي.. كأنها رأت وجهه في وجهي.. أحسست أنها تروم عناقي، وأنا أرى دموعاً تترقرق في عينيها. انتابني شعور بالذنب.. فقلت :

- سامحيني يا عمّة.. فقد نَكأتُ ما كان مندملاً من جراحك .

مسحَتْ ما سال من دموعها على وجنتيها بأناملها المرهَقة وقالت :

- لكم أنا سعيدة بزيارتك التي ردّتني إلى أجمل أيام حياتي، لكنك فاجأتني بذكرك لجراحي.. ما أدراك بها، وما الذي دعاك لزيارة عجوز نسيها عمّك منذ أمد بعيد، وكيف عثرت عليّ؟! هلّا حدّثتني.. لكن، بعد أن آتيك بالقهوة .

حكيت لها.. وحكت لي..
علمتُ أنها باتت تحيا بمفردها في هذه الدار، بعد وفاة أخيها، وأن ما أبقاه لها والدها من تركة متواضعة، وما ورثته من زوجها الراحل، يعينها على قضاء ما تبقى لها من عمر .
لَشدّ ما آلمني يقينها بأن حبيبها ، عمّي، لم يكن يرى فيها الزوجة المناسبة - من غير أن يفصح لها بذلك - وهو المعتدّ بانتمائه الأسري وثقافته الواسعة..
وبالرغم من ذلك ، ظل هيامها بحبه يكتنفها على مدى ما مرّ من زمن! قالت :

- درست التمريض وتمرّست به بباعث من حبّي لهذه المهنة الإنسانية، واقتناعي بسمو غايتها ، لكن يحزّ في النفس رؤية أناسٍ يتماشون مع ما يسود مجتمعهم من مفاهيم خاطئة، لمجرد أنها عُرف سائد ! عمّك كان يدّعي، ظاهراً، بأنه ليس من أولئك الناس. ولعلك تعلم بأنه ذو فكر علماني.. فلا يمكن أن يكون اختلاف انتمائنا الديني سبباً يحول دون زواجنا، إلا إن كان يحسب حساباً لمحيطه، ولا سيّما أني أزاول عملاً متواضعاً. وذلك ما لم يكن لعمّك أن يُقرّ به سبباً لعدم اقترانا ! كانت حُجته هي عدم تمكنه من تأمين مستلزمات الحياة الزوجية من مسكن مستقل وما يتبع ذلك ..

صمتتْ لبرهة ليزول انفعال ألَمَّ بها، ثم تابعت تقول :

حسرتي عليك يا أمجد.. وليرحمك الله..
لا تظنّن يا صادق أني حاقدة عليه، فقد عذرته منذ أمد بعيد، وخبّأتُ حبّه في قلبي. لكم آلمني سردك لنهايته المحزنة. كان الأجدى له أن يحاط بزوجة وأطفال ينشغل برعايتهم، فيبعدونه عن إدمان الخمر . إنّ واجب رعاية الأسرة كان كفيلاً بثنيه عن اعتياد الشرب، سيّما إن كان حظِي بزوجة محبّة صبورة ..

- لكن يا عمّة هناك أُسَر تعاني من أرباب لها ينفقون كسب يومهم على الشراب، وهم لا يكادون يسدّون رمق أطفالهم، فترين صورة من البؤس فظيعة !
- لا يمكن لعمك أن يؤثر خمرته على أسرته ، فأنا أعرف سجاياه
- ولتلك السجايا.. أرى أنه آثر البقاء عازباً بعد أن أسره حب الخمرة
- ذلك لأن السيف قد سبق العذل يا بني ، لو كان قدّر له زواج سعيد في مقتبل شبابه لما انتهى تلك النهاية .. ليرحمه الله ويغفر له .
- أحزنني ارتحال زوجك بغتة إثر حادث مؤلم، ومن بعده، أخيك بعد مغالبته المرض، ولا ريب في أنك تقاسين الوحدة بعدهما .
- بفضل الله مازلت أَصِلُ بعض الأرحام، وأعتني بحديقتي التي تسليني وحدتي
- إنها حديقة جميلة التنسيق ، تعكس جمال روحك
- سلمت يا ولدي، وإنك لطيّب النفس إذ تكبّدت مشقة السؤال عني
- أكنتِ سعيدة بالسنوات الأربع من زواجك ؟
- كنت جد سعيدة .. كان زوجي طيّباً ، عطوفاً، محباً.. وقد آلمني فراقه كثيراً، وجعلني منكسرة النفس، مدبرة عن الحياة زمناً طويلاً.. إلا أنني بفضل من الله تعافيت راضية بما قسمه لي .
- هل ثمة من مقارنة بين حبك لعمّي، وحبك لزوجك؟ واعذريني للسؤال .

- حب عمك سكن وجداني، ومازالت ذكرياته دافئةً فيه.. هو حب روحين توأمين. أما حبي لزوجي، فقداحتواه قلبي.. وملك كياني .. لما لقيت من خالص حبه، وجميل معاشرته..

- بعد قراءتي رسائلك، انتابني إحساس، لا أدري باعثه، بأني إن رأيتك فسأرى امرأة يائسة .. وكأن سعيي إلى لقائك كان دافعه تطييب خاطر امرأة خذلتها الأيام.. ولعل الباعث لهذا الإحساس كان أسلوبك في كتابة الرسائل ! لكني إذ رأيتك وسمعتك، أحمد الله على الحال التي أنت عليها..

- بارك الله فيك ياولدي.. يا صادق وأطال عمرك ..
- وأمدكِ الله ياعمّة بالعافية الدائمة، وأعانك على الأيام..

مضى ما يزيد عن ساعتين، ونحن نتبادل الحديث. أبديت إعجابي بدارها وبما حوته من مقتنيات.. حتى كانت لحظة الوداع على باب حديقتها.. وإذا بي ألمح عريشة ياسمين لَفّاء، يضمّها ركن قصِيّ من الحديقة، حانيةً سويقاتِها على كُرسِيّ حَجَري..! أحسست بقشعريرة تسري فيّ، متخيّلاً أن للعمّة جلسات تحتها، تستعيد خلالها لحظات حميمةً أيام الصبا ..
مشيت إلى الياسمينة ، وتوقفت قبالتها أتأملها سارحاً، كأني أمام نصب تذكاري..!
نبّهني صوت العمّة :

- ألك ولع بالياسمين ؟
- أكنّ له حباً خاصاً، لأنه يذكّرني بأولى القبلات، تحت زهراته، لحبيبين، كانا يوماً ينضحان صِباً..

نظرتْ إليّ واجمةً بعينين دهِشتين وقالت :

- يالها من صداقة حميمة كانت بينكما، حتى حكى لك عن هاتيك القبلات..!
- .....

احتويت يدها الرقيقة بين يديّ، مبتسماً، وقبّلتها مودعاً .

ومع أول نفحة عذبة، لفحتني، من نسمات لبنان الرطيبة.. تملكني إحساس عذب حزين..
وشتيت صور لأمجد و(ڤوني)* - أيام الصِبا - راح يتراءى لخيالي .

---

* (ڤوني) : كانت ايڤا تذيّل به رسائلها لأمجد .

(خريف عام ١٩٩٥)

*** * * ***

معاً..

تحت مظلّة واحدة ..

[١]

انقضت الساعات الثلاث التي على يارا أن تقضيها كل يوم في معهد للرسم التشكيلي، كائن وسط المدينة، تصقل فيه موهبتها.. فالساعة تشير إلى الثامنة مساء .
لملمت ما تبعثر من أدوات وأشياء تخصّها، بحركات رشيقة، ارتدت معطفها ، ضمت رأسها في قبعتها ، تناولت مظلتها ، ثم ألقت التحية على زملائها ، وخرجت مسرعة .

كان الجو بارداً في الخارج، لكن سروراً سرى فيها حين أخذ رذاذ المطر يداعب وجنتيها على نحو محبب إليها مذ كانت طفلة. وارت أذنيها تحت قبعتها الصوفية بحركة خاطفة من أناملها الناعمة، فتحت مظلتها، وراحت تغذّ السير عبر الطرقات نحو بيتها، مارّة بواجهات المحال التجارية غير آبهة بما تحتويه، ولا بأنوارها البراقة الملونة، وغير مكترثة بوجوه المارّة من حولها، متخطية حفرة هنا وبقعة ماء هناك، بعفوية تشكّلت لديها، ذاهبة إلى المعهد آيبة منه، طيلة عام ونيّف .

أخذ المطر ينهمر على نحو أغزر، فراحت تسرع الخطى، حالمة ببيتها الدافئ، ومثُل وجه أمها الحبيبة في مخيلتها، ورجت أن تكون قد حضّرت حساء لتتناوله ساخناً حال وصولها المنزل، ممّا حثّها على الإسراع في مَشيِها .

- عالية ..

تناهى الاسم إلى سمعها ، وأحست أنها المقصودة، رغم أنه ليس اسمها !

التفتت نحو مصدر الصوت، وإذا بوجه شاب وسيم يبسم لها متقدما نحوها بخطىً حثيثة، ما إن حاذاها حتى بادرها التحية بنبرة ودودة :

- مرحبا عالية ..

توقفت عن السير والتفتت إليه :

- عفوا أيها السيّد ، يبدو أنني على شبه من إحدى معارفك، فأنا لاأعرفك، واسمي ليس ما ذكرت !
- لا يمكن! أنا متأكد من أنك عالية، وأستغرب أن تتنكري لي! إلا إن كنت نسيتني وتحسبينني أحد أولئك الذين يتعرضون للفتيات في الطرقات! دققي النظر في وجهي.. أيُعقل أن ملامحي تبدلت خلال مدة لاتزيد عن عامين .. !

حملقت يارا في وجه الشاب ملياً..

- آسفة.. أنا متأكدة من عدم سابق معرفة بيننا.

تابعت سيرها، فتبعها الشاب مواصلاً حديثه :

- أوَتنسين مَن تكبد عناء السؤال عن حبّة ليسكّن بها صداعاً ألمّ بك يومها، وسعى جاهداً كي يجلب لك كأس ماء لابتلاعها، فانكفأ على وجهه والكأس في يده لحظة انعطاف القطار! وحين سعى لك بكأس أخرى، كان أن صار أضحوكة بين المسافرين، وهو يترجّح بالكأس الملآنة، ملتطماً بالركاب حتى انسكب معظم ما فيها، فضحكْتِ عليه مع رفيقتك أكثر من الآخرين ! ورفيقتك مازلت أذكر اسمها.. سامية، أليس كذلك ؟ وحين قدّمت الكأس لك، كتمتِ ضحكة كادت تفْلِتُ منك ..

تابعت يارا ، وهي تبتسم :

- ثم ابتلعتُ الحبّة، واعتذرتُ لما سببت لك من إزعاج. وحين استوقفت لنا سيارة أجرة لتوصلنا - إذ إننا وحيدتان والليل في حلول - اعتذرنا شاكرتين. رغبتَ في أن نعرّفك على اسمينا، فقلت لك أنا عالية، وصديقتي سامية، ثم غبنا عنك بالسيارة وأنت تشيّعنا بنظرات الخيبة. أليس هذا صحيحاً ؟

- إنه الصحيح بعينه.. وآمل ألا تدعيني هذه المرة أشيّعك بنظرات مماثلة لتلك ..

ما كاد الشاب ينهي عبارته، حتى لمعت السماء ببرق أحال الدنيا من حولهما نهاراً، ودوّى هزيم الرعد دوياً ارتعشت له القلوب، وانهمر وابل من مطر أضحت المظلات له دون جدوى، ثم هبّت ريح نفوح، طيّرت بعض المظلات من أيادي المحتمين بها، فكان أن أصاب الناس حال ارتباك شديد.. فرأى الشاب أن يغتنم فجاءة الطقس، ليجعلها مبرراً لدعوة يارا إلى مكان قريب منهما ، فتكون سانحة يوطد بها تعارفهما .

- هناك كافيتيريا على الرصيف المقابل، يستحسن أن نلتجي إليها، ونتناول شراباً ساخناً ريثما تخفّ وطأة العاصفة.. مارأيك ؟
- لا.. سأتابع السير، فالمنزل لم يعد بعيداً

وإذا بالرعد يعاود قصفه بدويّ أشدّ، فوَمضُ برقٍ، فدويّ.. والرياح في ازدياد..

- لا يعقل أن تتابعي السير والطقس على هذا النحو.. هيا اتبعيني، لا تترددي

تمثّلت يارا دفء جو الكافيتيريا، وكوباً ساخناً بين يديها، وكيف أنها ستكون في مأمن من عاصفة هوجاء، ليس هناك ما ينبئ أنها آيلة إلى سكون، فأغرتها الصورة، رغم أنها كانت تدرك - في قرارة نفسها - أن عليها ألّا تقبل الدعوة . تبعت الشاب، حتى وصلا أمام مدخل الكافيتيريا، فانحنى مباعداً الباب، داعياً يارا للدخول قبله .

سرى دفء المكان فيهما، ومع أنغام الموسيقا الناعمة تنساب خافتة في أرجاء المكان، شعرت يارا بالراحة للحظة، لكن سرعان ما اكتنف نفسها إحساس بالقلق، وهي ترى نفسها بصحبة شخص غريب .

جلسا إلى طاولة تتوسطها آنية تضم قرنفلتين، فانحنى الشاب عليهما يستنشيهما، مغمض العينين، مبدياً نشوته بعبيرهما .

اقترب النادل منهما ، تعلو وجهه ابتسامة مرحِبّة، سائلاً عمّا يرغبان في تناوله .

سأل الشاب يارا عمّا تحبذ، فدلّته شفتاها، وإيماءة من كتفيها، أن لا شيء محدّد . فطلب شاياً مع طبق من الكعك المحلّى، ثم التفت إليها :

- هل لي أن أتشرف بمعرفة الإسم ؟
- يارا
- جميل. اسمي عادل، وشتّان بين اسمينا
- وما هو وجه الشتت بينهما ؟
- لاسمكِ وقع موسيقي جميل، وهو نادر الوجود، وملْفت.. مامعناه ياترى ؟
- مختلَف على معناه وأصلِه، يقال إنه فارسي أو تركي أو سرياني، ومعناه حبيب، أو زهرة، أو جنيّة البحر..
- أمّا اسمي، فبالرغم من معناه الواضح، إلا أنه جاف الوقع على الأذن، وبات عادياً لكثرة تداوله بين الناس .
- عليك ألا تستهين به، فهو اسم وقور، جميل المعنى، وذو جذور عربية.. يا سيد عادل
- يسرّني أنك ترين اسمي على هذا النحو، وحبذا لو تناديني به مجرّداً من لقب سيّد
- الاحترام واجب سيّد عادل، فليس بيننا ما يدعو لعدم التكلّف، فلولا غزارة المطر وشدّة الرياح، مصحوبين بإلحاحك، لما كنا معاً الآن .
- لكِنّا سنكون صديقين
- أوَترى ذلك ؟!
- أثمة مانع، إن كنا راغبين ؟!
- أعتقد أن الصداقة لا تنعقد برغبة مسبقة، بل تولد من تلقاء نفسها، وتنمو حين تصادف أرضية مشتركة تجمع بين اثنين أو أكثر ..
- ألا يمكن أن نعتبر جلستنا هذه.. بداية لولادة صداقة بيننا ؟
- بالطبع لا. فبحسَب رأيك، أي اثنين يقفان اللحظة معاً تحت ساتر عن المطر، ينتظران هدوء العاصفة، يمكن لهما أن يكونا صديقين .
- يارا.. يبدو أنك تتجاهلين أمراً مهمّاً !
- ما هو ؟
- ذلك الإحساس الذي ينبئنا حين نلتقي بعض الأشخاص، أنهم قريبون منا، جراء جراء شعور خفيّ

يجذبنا إليهم، وغالبا ما يكون هذا الإحساس متبادلاً، وهو ما أحسسته نحوك مذ وقعت عيناي عليك في القطار ، وآمل أنك تبادلينني هذا الإحساس..

ابتسمت يارا ، ونظرت إلى ساعتها لتقول :

- تأخر الوقت، يجب أن أغادر، فالعاصفة على ما يبدو قد هدأت. شكرا على ضيافتك .
- لكنا لم ننه نقاشنا بعد !
- لابد أن والديّ منشغلا البال عليّ الآن، فعليّ ألا أتأخر
- إذن، أراك غداً

تريثت يارا قليلاً، وطيف ابتسامة على شفتيها ، ثم أجابت :

- إن شاء الله
- إذن غداً في السابعة مساء، في هذا المكان
- لا أستطيع أن أقطع وعداً..
- سأكون بانتظارك
- هلّا نغادر ؟
- تفضّلي

ما إن خرجا حتى بادرها قائلاً :

- هل لي بالسير معك حتى تصلي البيت؟ فالطقس أضحى يغري بالمشي، ولاسيما برفقتك.. يالها من رطوبة منعشة ..
- أشكرك، لا داعي لذلك، إذ عليّ أن أسرع، فلن تتمكن من الاستمتاع بالمشي الوئيد
- كما تشائين، فإلى موعدنا غداً .

استهل عادل خُطاه وهو يتنشق ملء رئتيه من نسائم ذلك المساء، جذلان بالظفر الذي حققه بالجلوس إلى تلك الغادة ..

أمّا يارا ، فقد زفرت زفرة ارتياح، لانعتاقها من مأزق لم تدرِ كيف حَلّ بها.

لشعوره بسرور عارم تملكه، لم يعِ عادل كيف قطع الطريق الطويلة ماشياً إلى منزله. استلقى على فراشه، يحملق في سقف غرفته، يفكر بلقاء الغد، وكيف سيتمكن من ولوج قلب يارا، بعد أن استشف أنها لن تسلس قيادها له على نحو هيّن، لمجرد أنه يتّسم بملامح رجولية آسرة .

أما يارا ، فقد خلدت إلى النوم ليلتها، بعد تفكّر لم يُرسِها على قرار فيما إذا كانت ستوافي هذا العادل في الموعد المضروب .

[٢]

في صبيحة اليوم التالي، ذهبت يارا إلى الجامعة لحضور محاضرا ت سنتها الأخيرة في هندسة العمارة. عند ولوجها مدخل كلّيتها، صادفت إحدى صديقاتها تبادرها التحية، وتزفّ إليها نبأ افتتاح معرض للوحات رسام تشكيلي مبدع - قد شهدتا منذ عام معرضه الأول - قائلة :

- اليوم هو موعد افتتاح المعرض الثاني لرسوم (منذر العلمي)، لابد أنك تذكرين كم سُحرنا بلوحاته ..
- حقاً ؟! سُررت بهذا الخبر يا سمر.. أين، ومتى ؟
- بحسب بطاقة الدعوة التي تنازل عنها أخي غير الشغوف بحضور معارض الرسم، فإن الافتتاح سيكون في الخامسة، مساء هذا اليوم، وذلك في صالة جديدة، خصصتها وزارة الثقافة لتقام فيها المعارض، ستفتح أبوابها اليوم، لأول مرة، بمناسبة هذا المعرض .
- مازلت أذكر لوحات هذا الفنان في معرضه الأول، وكيف أني غادرته يومها، ولم تكن نفسي ارتوت من تأمل لوحاته .
- أنلتقي بعد انتهاء المحاضرات لنذهب معاً ؟
- يسعدني ذلك ..

كان على يارا التغيب عن معهد الرسم هذا اليوم، ورأت أن لا بأس في لقاء ذلك العادل، بُعَيْد زيارتها للمعرض. فهي تستمرئ ما يبديه معظم الشبّان من حركات متكلّفة، وما يتلفظون به من تعابير منمّقة وهم يتحدثون إلى أنثى.

وقفت الصديقتان أمام مبنى المعرض، معجبتين بهندسته المتّناسقة .. فألمت اللهفة بهما لرؤية ما بداخله. وقفتا عند مدخله، تجيلان النظر في أرجاء الصالة، فشاهدتا الفنان صاحب اللوحات، يرحّب بالزائرين، ويرد على إطراءاتهم، شارحاً للبعض ما يتساءلون عنه في أعماله.

حارت الفتاتان.. أتبدآن استعراض اللوحات عن قرب، أم تظلان مستمتعتين، لبرهة أخرى، بالنظر إلى الصالة وما تضم، فجمال تزيينها، والتنسيق البديع لما تحتويه، والموسيقا الهادئة تنساب في أرجائها.. كانت مجتمعة تغري الزوار بالمكوث ما وسعهم.

سرحت الصديقتان فيما صاغته يد الفنان من موضوعات مستوحاة من قديم بيوت وحارات مدينته، ومن تشكيلات مستمدّة من فن العمارة الشرقية، بأسلوب متفرد وحس مرهف. ما هي إلا دقائق، وإذا بآهة حادة تنبعث من يارا، لصدمة أصابت ظهرها، كادت تسقطها، لولا يدا شاب تلقفتا جسدها الأهيف.. وإذا بصوت رجوليّ عذب النبرات ينساب إلى سمعها :

- ويحي آنستي، أرجو أن تقبلي شديد اعتذاري لغفلتي، وتسببي في إيلامك.

انسكب صوت الشاب في أذنيّ يارا لحناً ساحراً.. أما عيناه الصافيتان، فقد باحتا بخالص أسفه، وشديد توجّعه، على نحو أبلغَ من أي كلام!
أحست بقلبها يختلج بقوة.. وبارتعاشة عذبة تسري في جسدها.. فحالَ انزعاجُها رضاً.. وقالت بنبرة مفعمة بالأنوثة :

- لا عليكْ، فالأمر لم يكن بقصد
- أكرر اعتذاري، وبالغ أسفي يا آنسة

فكان منها أن أعربت عن صفحها بابتسامة حرصت أن تنمّ عن كامل رضاها.. رغم أنها كانت لمّا تزل متوعكة من أثر الصدمة. وغادر الشاب المعرض بصحبة رفيق كان معه .

سألتها سمر :

- هل أنت على مايرام ؟

لم تتنبه يارا إلى السؤال وبانت ساهمة..!

- يارا .. أأنت بخير ؟
- نعم بخير.. لنتابع
- انظري إلى تلك اللوحة، أليست آسرة ، رغم غموضها ؟!

ودونما أدنى تركيز، وافقت يارا صديقتها الرأي !

- ما بك .. يارا ؟! أراك مضطربة الحال.. تستعرضين اللوحات على عجل، دون تأمُّل، على غير ع عادتك !
- لا أعلم ما بي، وأنت محقّة إذ ترينني مضطربة..
- ما الأمر .. أتودين المغادرة ؟
- حبذا لو نغادر
- أعتقد أن صدمة الشاب هي التي عكّرت صفو مزاجك
- كانت شديدة ، لكنها ليست سبب ما أنا عليه من حال

وتابعت يارا تقول في سرّها :

" بل هي السبب.. ما الذي فعلتَه بي، وأيّ تأثير كان لكَ عليّ يا صاحب الصوت العذب، والنظرة الحانية..! لقد هززت كياني.. واستحوزت لُباب تفكيري..! "

خرجت الصبيتان من الصالة، والأمل برؤية الشاب - مترقباً خروجها - يملأ قلب يارا. لكن أملها سرعان ما تبدد، حين أجالت النظر في أرجاء حديقة المعرض، وفي مدى شارعه، ولم تره.

سارت الصديقتان معاً تلزمان الصمت .
سمر تفكر بما علّه يكون قد كدّر صفو صديقتها، ويارا تسترجع صورة الشاب، ونغمة صوته الأخّاذ..

تبادر سمر بالحديث :

- لم أستطع أن أقع على ما استدعى التبدل المفاجئ لحالك!
- ولا أنا، هي حال يمكن أن تكتنف المرء دون أن يدرك سببا لها.. أما اعترى يوماً مزاجَك انقلاب مفاجئ ؟
- بلى، ولكن بشيء من السبر، يمكن للمرء أن يدرك العلة، إذ لابد من وجود سبب .

أملٌ لمّا يزل متأججاً في صدرها بأن يكون الشاب يراقبها من بعيد، منتظراً سيرها وحيدة، ليحادثها.. ففكرت بالتملص من مرافقة سمر .

- أستميحك عذراً سمر، لأني لم أكن مرافقة جيدة اليوم، ولأني سأغادرك الآن لزيارة أقرباء لي في هذا الحي، لأمر هام، أتأذنين لي؟ أراك غدا في الجامعة .

- حسناً، إلى اللقاء .

تابعت يارا سيرها على مهل وترقّب.. دقيقة، اثنتان، ثلاث، وخبا الأمل..
حدّثت نفسها أن لعله ينوي الاقتراب منها عندما تنزوي في شارع خلو من المارة، فانعطفت نحو شارع فرعي. دقائق أخرى تمر، ولا تسمع وقعاً لأَيٍّ خطى، فترجع آيبة، وقد تلاشى آخر خيط من نسيج أملها. أثقلت الحسرة قلبها، وظلت كلمات اعتذاره تترجّع في أذنيها، وتينك العينان تَلُوحان في خيالها، حتى وصلت بيتها .

كان عادل في تلك اللحظة، منتصب القامة أمام مرآته ، يتطيّب بعطره الثمين ، ويدندن مغتبطاً للقاء - في ظنّه - وشيك .

[٣]

في اليوم التالي، حين أزف موعد الذهاب إلى معهد الرسم، رأت يارا نفسها تأخذ سمْت المعرض، بفعل دافعين فيها. الأول، رغبتها في تأمل لوحاتٍ رأت بالأمس فيها ما يجدر الالتفات إليه. أما الثاني، أو إنه هو الأول، لعلها تصادفه هناك يعاود زيارة المعرض .

كانت الوافدة السابعة إلى المعرض في تلك الأمسيّة. تساءلت : أتُراه يأتي؟ ثم راحت تمعن النظر في اللوحات وكأنها ترتاد المعرض للمرة الأولى !

في ركن قصيّ من الصالة، كان الفنان مبدع اللوحات جالساً يطالع في صحيفة، حين لفت انتباهَه ظَهْرُ جسد جميل يكسوه زِيّ أنيق، ينسدل إلى حدّ يعلو الركبتين بقليل، فتبدو من تحته ساقان كأنهما شُكّلتا بإزميل نحّات حاذق. ما إن استبان المُحيّا الوضيء لذاك القدّ الأهيف، حتى عرف أنها الغادة التي كانت بين روّاد البارحة، والتي رأى فيها طراز الأنثى التي ينشدها، وفكر: يبدو أنها أعجبت بلوحاتي إلى حد جعلها تعاود المجيء.

كانت يارا مأخوذة بلوحة تتأملها، حين ترك الفنان (منذر) ركنه، واتجه إليها يروم استهلال حوار ما. وقف بجانبها، وسألها :

- هل لي بمعرفة ما تترك لوحتي هذه من انطباع في نفس الآنسة ؟
- أستاذ منذر!! إنها لوحة آسرة بحق..

قالت ذلك وهي تمد يدها نحو اللوحة. مرت عيناه على يدها، وسأل :

- ما الذي ترينه آسراً فيها ؟
- ذاك التداخل الضبابي للألوان، يضفي على الموضوع مسحة رومانسية، وهي سمة سائدة في معظم لوحاتك.. أمّا اليمامة بوقفتها التيّاهة على الإفريز المنقوش لنافذة بديعة التكوين، واللبلابة الزاحفة ساعية لعناقهما معاً.. يشكّلان - مع تلك الصياغة اللونية، والحُذقِ في توزيع الضوء والظل - لوحة آسرة بحق!
- إن كانت اللوحة آسرة .. فليس بقدر ما هو آسر في خيالك الرحب، وحسك النقدي المرهف! هل هل لي بمعرفة الاسم ؟
- يارا
- جميل اسم يارا..كما صاحبته..
- أشكر لك إطراءك، وأحب أن أزيد على ما أسلفتُ
- يَسُرّني ذلك ..
- على أن ثمة جواً فريداً طاغياً في لوحاتك، إلا أن كلاً منها تنفرد بتفاصيل تميزها عن الأخرى، فيحار الناظر أيها الأجمل.. !
- يسعدني أن تري لوحاتي على هذا النحو، إلا إن كنت تجامليني ..
- لا لست أجامل، بل هي الحقيقة

أومأ الفنان برأسه وابتسم معبّراً عن امتنانه.. وقد أعجب بالنبرة الواثقة تصدر عن هذه الفتاة، وبنظرتها للوحاته، فرغب بمعرفة من تكون، لكنه أرجأ السؤال، لملاحظته أنها تريد أن تتابع حديثها .

- أستاذ منذر، تلك اللوحة أراها أخّاذة رغم ما يكتنف موضوعها من غموض! هل لك بإفشاء سرّها ؟

- ليس من سر فيها، إنها مجرد صياغة لونية. لاشك أنك نزّاعة نحو العاطفة والخيال حتى أُخذت بها .

ظلّا يستعرضان ما تبقى من لوحات بتؤدة، وهما يتحدثان، حتى وصلا ركناً زويّا، زُوّد ببضع مقاعد وثيرة، وطاولات واطئة، على مقربة من مَسقىً يديره (أبو مؤنس) لمن يرغب في فنجان قهوة، أو كأس عصير.

غصّت الصالة بزوارها، وبات على الفنان أن يتفرغ لاستقبال بعض معارفه، لكنه آثر البقاء مع يارا واغتنام سانحة تتيح له التباهي برفقتها أمام الأعين، والتفاخر بتلقي التحيات موشّاة بكلمات المديح - على مسمع منها - فدعاها إلى فنجان من القهوة .

أجالت يارا نظرها في الصالة، علّها تقع على ضالتها، قبل أن تلبّي دعوة منذر، فلم تجدها. ارتدّت إلى نفسها والحسرة تعتصر قلبها، ثم جلست تحدث نفسها :
" أي مس اعتراني، لأترقب مجيئه، وكأننا على موعد!! لست أنا من تهزّها نسمة عابرة، ما الذي دهاني..! لكنها لم تكن مجرد نسمة، بل كانت ريحاً عاصفة، اجتاحت كياني وحملتني عالياً، لتتركني أهوي، بعدما تبدَدَتْ! "

تنبّه الفنان لشرود يارا ، فأعادها إليه قائلاً :

- هل ثمة من خطب آنسة يارا ؟ أحسست كأنك حلّقت بعيداً
- لا.. إطلاقاً ! بل كنت أفكر بأن رسوماتك تجيء لتؤكد حنيناً إلى التراث الذي أمسى محوراً لاهتمام أدبائنا ونقادنا وفنّانينا العرب منذ سنوات، فترى كتاباتهم وأعمالهم تعكس هذا الحنين ! حتى الهندسة التزيينية أضحت غالباً ما تُستمد من الأشكال والزخارف التراثية، نقلاً مطابقاً ، أو دمجاً بما هو مستحدث! ألا ترى هذا معي؟

أومأ الفنان برأسه موافقاً ، وأجاب :

- ليس خافياً مدى انبهار الفكر العربي في عقود خلت بالحضارة الغربية.. وابتعاده عن إرثه الثقافي شكلاً ومضموناً.. وقد غالينا - أفراداً وجماعات - في تقليد الغرب لنضفي على أنفسنا سِمة التحضّر، وكأننا لسنا أصحاب حضارة.. حتى انسقنا كالنعاج أمام الراعي، بدل أن نؤوب إلى إرثنا ونطوّره ليواكب العصر . وإن كنا نسأل اليوم عن سبب شعورنا بالحنين نحو تراثنا، فمَردّ ذلك، في رأيي، إلى أن الإنسان عموماً نزّاع إلى التجديد لينعتق ما أمكن من سآمة تكتنفه إذا ما اعتاد شيئاً، فبعد أن شبعنا من الأنماط الفكرية والشكلية الدخيلة، تَذكرنا أن في تراثنا إرثاً لايستهان به، في وقت تحنّطت فيه القيم الفاضلة، لتمسي، بكل أسف، ضرباً من المثاليات المستهجنة، وصارت الحياة ساحة لمعترك بشري بشع، فغدا كل قديم يذكّرنا بنمط حياتنا التي كانت دافئة بصدقها وبساطتها ، وروح التآخي السائدة بين أناسها ..

تضيف يارا :

- ما أظن تَغَنِّينا بالأمجاد، وعودتنا إلى ما فات، إلا إدراكاً منّا بأننا على هامش الحاضر
- ها أنتِ أصبت كبد الحقيقة.. وياليتنا نستبدل التغنّي بالماضي بالعمل الجاد .

وإذا بصوت يقطع حوارهما :

- مرحباً .. منذر
- أهلاً .. أهلاً ومرحباً بأستاذنا الكبير ..
- كيف حالك منذر .. مرحباً آنسه ..
- آنسه يارا .. إنه أستاذي الذي لا أنساه .. جواد الطيّب
- تشرفت بالمعرفة ..

تتلقى من الأستاذ جوادابتسامة شكر، ثم يلتفت إلى منذر :

- أهنئك من أعماقي على إبداعاتك المتجددة بين فترة وأخرى ..
- أنا تلميذك
- لا تتواضع.. فكم من تلميذ جاوز أستاذه
- لقد كنتَ لي مَعيناً ثراً غرفت منه الكثير.. ومشجّعاً دؤوباً حثّني على الاستمرار

غابت يارا عن الحوار الدائر بين منذر وأستاذه، وبقيت عيناها معلقتين بوجه منذر، فرأته وسيماً ، توحي قسماته بطيبة في نفسه، وغمرها إحساس إعجاب به، سيّما أنها لاحظت تواضعه أمام أستاذه .

انفضّ زوار المعرض، ولم يعد في الصالة سوى يارا ومنذر جالسين يتحدثان، والساقي ينضّد أشياءه، وقيّم الصالة يستعد للإقفال ويرامق زميله الساقي، أن ما السبيل لحث الجليسين على المغادرة ! فينبّه أبو مؤنس الجليسين إلى أنهما قد أطالا المكوث، سائلاً :

- هل يرغب أستاذنا بشراب ما ؟
- شكراً أبا مؤنس، ولا أظنك جاداً في سؤالك

يخفي أبو مؤنس ابتسامته، ويقول :

- بل أنا جادٌ كل الجد أستاذ، فوجود وردتين مثلكما يجعلني مستأنساً

- بوركتَ يا أبا مؤنس

تتنبه يارا إلى أنه لم يعد هناك من زائر، والوقت قد تأخر، فتستأذن الفنان بالمغادرة . يتوجهان معاً نحو باب الصالة، فيفاجآن بمطر مدرار، يربك يارا، ويجعلها تلوم نفسها لنسيانها جلب مظلتها، فيبادر منذر قائلاً :

- لا تهتمي، إذ يمكننا، إن كنت لا تمانعين، الاحتماء تحت مظلّتي، ريثما نحظى بـ (حنتور)
- وما هو الحنتور ؟
- إنه اسم فارسي لعربة يقودها حوذي، ويجرّها حصان أو حصانان، استُعمِلت فيما مضى لنقل الأشخاص .
- يا له من حنين فيك إلى الماضي!

تتعانق العيون.. ويهرولانِ - معاً تحت مظلة واحدة - على إيقاعٍ متسارعٍ لنقراتِ حبّاتِ المطر على إسفلتِ الطريقِ المنبسطِ أمامهما .

(شتاء ١٩٩٥)

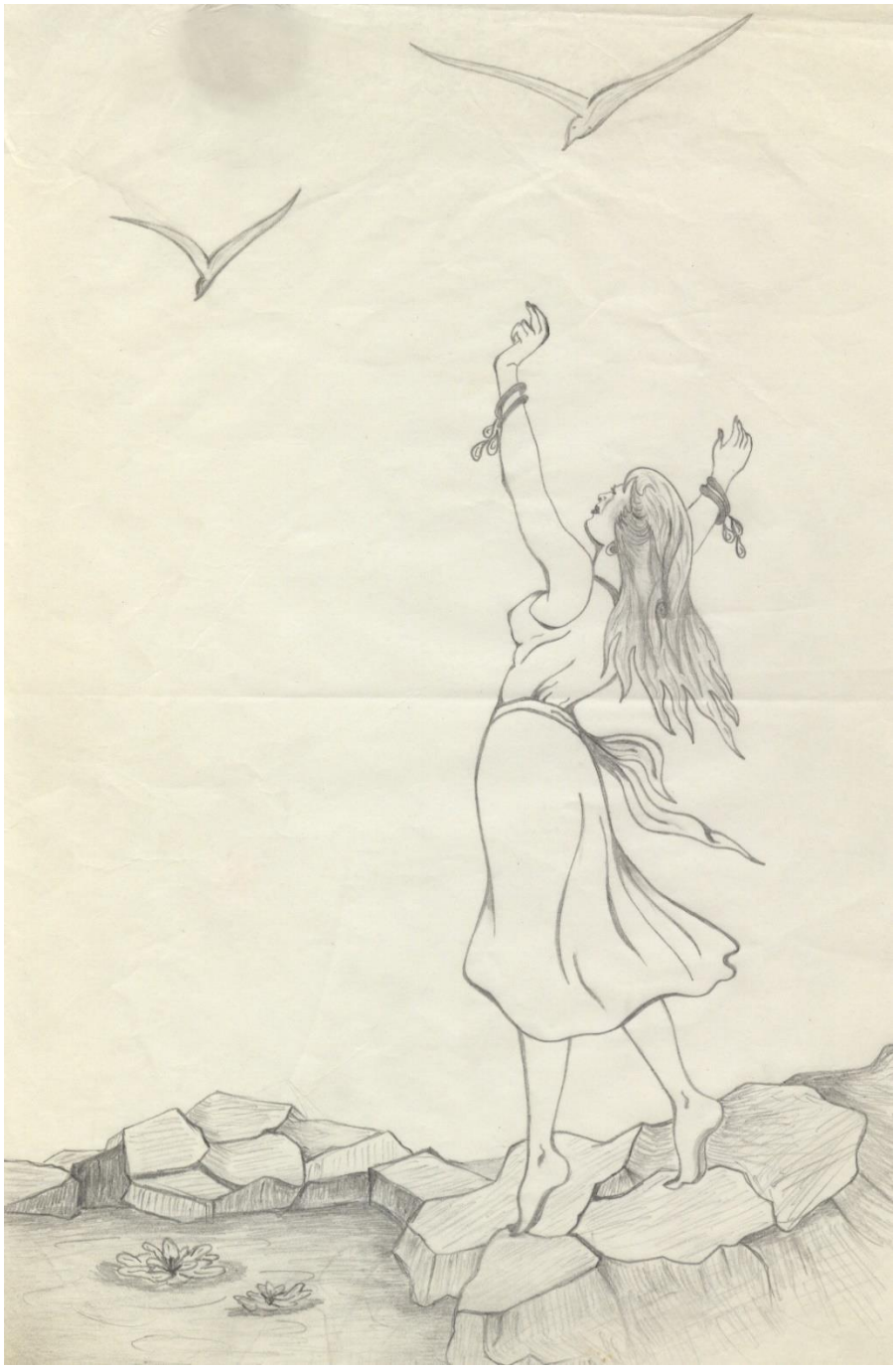

.. تلك الهـالة

كان التأثّرُ بادياً في نبراتِ صوته وهو يتلو عليها ما كتبه قبل أيام، من وحي حبّه الجريح. نظر بعينين يغشاهما الدمع إلى عينيها، فرأى دموعاً حبيسةً في عينين تُحَدِّقان بحبٍ في عينيه، لكنهما في الآنِ ذاته، تقرآنه حزناً دفيناً .

كانا في لقاءٍ جمعهما وقد آلت زوجاً لغيره - لقاءٍ أرادا به وداعَ حبٍ يريدان لذكراه أن تحيا إلى ما بعدَ الحياة. عزّ عليهما أفولُ حبٍ دافقٍ موّار، دفّأ صقيعَ أيامِها سنينَ أربعاً. لقد صَعُبَ عليهما محوُ لحظاتٍ حميمة اقتطفاها سويّاً بكل جارحةٍ فيهما - على مدى تلك السنين - بغمضةِ عين .

كان حبّاً حتى الهُيام ..
كانت لا تني تصرّحُ حيناً، وتُلمّحُ أحياناً، بأن تكونَ له الزوجة الوفيةَ كما يبتغي، وطوعَ بنانه.. وبالرغم من أنه لا يرى وجوبَ أن تكونَ الزوجةُ صاغرةً مذعنة لزوجها على نحوٍ مطلق، إلا أن إبداءَ رغبتها بذلك، كان يُذكي إحساسهُ برجولته، ويزيدُ من سيماءِ أنوثتها.. فيراها خليقةً به .

عرفها وهي في السابعةَ عشَرَ ربيعاً، ذات أنوثةٍ مكتملة..! كانت كالثمرة في أوج ينوعها.. ملفوفةَ القدّ، صبيحةَ الوجه، ذاتَ عينينِ صافيتينِ بوّاحتينِ بعطشها لرجولته. كانت ابتسامتها، كلما رآها، حاضرةً على شفتينِ ريّانتين.. أمّا مداركها.. فقد نمّت عن نضجٍ - يندر وجوده في كثيرات يكبرنها سنّاً ممن عاركن الحياة، على الرغمِ من تحصيلها المدرسي المتواضع بسبب أبٍ شديد التعنّت، وهي التواقة لنهل المعرفة ما وسعها ! فكانت قراءاتها المنزليةُ الحرّة، ينبوعاً أمدّها بذاك النضج الفكري، وزيّنها بالمعرفة. لقد كان مُوقنا أن رغبتها في الزواج منه خالصةٌ لوجه حبهما الدافق.. تريد له تبريكاً من العليّ الغفور.. لتَديُّنٍ يزيّن خلقها، ولأنها تخشى أن يَزجّ بها والداها في زواج يكون لها سجناً مدى الحياة.. ! لكنْ.. أنّى له الزواج منها، وهو زوجٌ لغيرها، وأبٌ عطوف..كيف لا يبالي بمشاعرَ زوجةٍ محبة، ترعاه وأطفالَه بكل إخلاص.. وهو المدركُ.. إن ثنّى زواجه، سيقتلها الألم. وأطفاله.. فلذات كبده.. ألن يبخسهم حينها الرعاية.. مهما سعى. أمّا هي، فما زالت في ربيع العمر، وريعان الصِبا.. وأبواب الحياة مشرعةٌ أمامها .

أبان لها ذلك مراراً، مغالباً حبه لها، متمنياً لها زوجاً يغمرها حباً وحناناً، فتنساه به. وإن كان في تبيانه هذا من الألم والمرارة ما فيه.. إلا أنه إملاء الضمير والواجب تجاه زوجه، واعتبارٌ لتسعة عشر عاماً يكبر بها الحبيبة . لكنها كانت ترى ما يراه إجحافاً بحق حب كبير يكتنف قلبيهما، فتُطرق برأسها عند سماعه مستنكرة.. لتعاود النظر إلى عينيه بعينين فيهما مزيد من العشق والهُيام، متناسية أيَّ اعتبار، هامسةً له عبارتها التي تُسْكِره "رجلي.. رجلي الوحيد" تلك الهمسة التي تذوب لها مشاعره.. فيغيبان في عناق تُسند فيه رأسها الجميل إلى صدره، لائذةً من قدرها القاسي.. ويا لها من إطراءات صادقة كانت تُسمعه إياها بين آن وآن، تُبيّن مكانته في نفسها.. وهو حين سماعها، كانت نفسه تنكمش خجِلَةً تعتصرها الحسرة، لأنه سيتركها يوماً - بملء إرادته - تنأى عنه بالرغم ممّا تكّن له من حب جمّ وصَلَ حدّ القداسة. جابهتْ والديها، وهي تصدّ خُطّاباً، فكانت

محلّ استنكارهما لعزوف لا مسوِّغَ له.. آملةً من حبيبها أن يعيَ مبلغَ حبها ، ورغبتها اللامتناهية، في أن تكون له..

لكن يوماً أتى، أيقنتْ فيه أن ليس من جدوى أو أمل.. يومَ أصرّ على أن تقبل بمن لا ينفكُّ يطلب الزواج منها، لا سيّما أنه - كما وصفتْه - حميد الصفات ويكبرها بسنين قليلة.. فأذعنت لإصراره مكرهة.

وهَبَ طلالٌ هالةَ إلى غيره ، كاتماً صرخةَ حبٍ متجذّرٍ في عميقِ أعماقه..

* *

عامٌ يمر.. وإذا بهما يلتقيان مصادفة في طريق مزدحم، فيتواعدان، برغبة من طلال، لتحدّثه عن أحوالها، كاتماً ما فيه من شوق للقائها. فكان اللقاء في مقرِّ عمله .

بعد دردشة قصيرة، وفيما هما يحتسيان القهوة، سألها أن تحدّثه عن زوجها.. فقالت : إنه يحملها على هُدبِ عينيه.. وردّدت ما قال لها منذ أيام " كلّما نظرتُ في عينيك، شعرتُ أني أملك الدنيا.. وكلّما لمستُكِ، أحسستُ أني ألمسكِ للمرة الأولى .." .
غالبَ طلال إحساسَ غيرة بعثته هذه الكلمات في نفسه، وقال " يسعدني أنه يعي قدْرَ الكنزِ الذي بين يديه ". فكان من هالة أن ودّته يعلم بحبّينِ فيها.. حُبّه الممزوج بدمها.. وحبّ زوجها الذي يغمرها بحبه وحنانه وحسن معاملته . فقال " كم يسعدني أن أكرمك الله بهذا الزوج ". ثم تابع :

- تعلمين يا هالة منزلة رسائلك في نفسي.. فلا أريد لها تبعثراً بعد رحيلي عن الدنيا، إذ يسوءُني تخيّلها غيرَ محفوظة كما يليق بها.. هاك إياها لتحرقيها إلى جانب مكاتيبي إليك إن كنت ماتزالين تحتفظين بها .

تناولتْها، وأخذت تقرأ بصمت سطوراً منها ، ثم قالت بصوتٍ تملؤه الحسرة :

- كيف لا أكون حافظةً لرسائلَ هي ذوبٌ من روحك، وكلُّ ما بقي لي منك !! كيف لنفسي أن تطاوعني في حرق ما خطّطْنا حروفه بلواعج قلبينا..!! ما رغبتك بحرقها إلا دليل على اندثار ما كنتَ تكنّه لي من حُب عاهدتّني يوماً أن يبقى حياً في قلبك إلى الأبد.. وما كان قبولك أن أكون لغيرك، إلا لأنك لم تكن تراني أصلُح لك .
- ما طويناه منذ زمن.. ها أنت تثيرينه من جديد! لِمَ تظلمينني يا هالة.. وأنا الذي كان يرى فيك شريكة مثلى لحياته ؟!
- .....

تسود لحظة صمت.. تغرورق خلالها عيونهما بالدمع تأثّراً من قدَر لم يجمعهما سوياً على درب الحياة. كان يؤلِمه - أيّما إيلام - اعتقادُها الراسخ بأنه لم يكن يراها خليقة به لتباينٍ في ثقافتيهما، ونمطِ نشأتهما.. وهو الذي لم يرَ في هذا التباين سبباً وجيهاً ليُباعد بين روحين توأمين شاء الله لهما

التلاقي .
حين همّت بوداعه، ودّ منها أن تزوره في مكان عمله كلما سنحت لها فرصة، ليطمئن عليها، فوعدت أنها ستفعل. لكنّ إحساسه تلك اللحظة حدّثه بأنه سوف لن يراها، في الآتي من الأيام .
ترافقا ينزلان سلالم مكان عمله، ذراعها في ذراعه.. حتى افترقا عند بوابة المبنى .
عاد إلى مكتبه ثقيل الخطى، مغْتَمّ النفس، حزيناً. همّ بترتيب أوراق على مكتبه، وإذا به يفاجأ بمكاتيبها في درج المكتب، بعد أن حسب أنها باتت في حوزتها، فأيقن أنها أعادتها إلى الدرج في غفلة منه .

كان إحساسه صائباً لحظة الوداع.. فقد كان الوداع الأخير.
تنقضي السنوات دون أن يراها، ولا من صدفة جمعتهما. ما كان يثير عجب طلال - وقد فات ما فات من سنين - أنه ما فات نهار، إلا وزارت خياله في لحظة من لحظات يومه! ولا عجب أن تتراءى له إلى آخر يوم من حياته.. كيف ينساها..! وهي في أصياف خلت - حيث كانا يسترقان اللقاء في عجالة - كم لملمت بشفتيها قطرات عرق من على جبينه! كيف ينساها.. وهي في أحد الشتاءات البعيدة، أخذت طرَف فستانها، وبحركة رشيقة، أزالت حرَجه من سيلان طفيف داهم أنفه!

أنّى له أن ينسى.. تلك الهالة..!

* *

كان يوماً اشتد فيه حنينه إليها.. أخرج قصاصة ورق من جيبه، وأخذ يقرأ لي، أنا صديقه.. موئله الأمين :

" إن غاب طيفك لبرهة.. فإنه لا يلبث أن يعود ناثراً ألوانه في نفسي.. ففي بعض الأحايين، وأنا أسير، أو تتهادى بي حافلة، أو ساعة أكون جالساً مع ذاتي.. يسطع محيّاك الصبوح بهيّاً أمام عينيّ، ويرِدُني صوتكِ الحبيب هامساً " أبوس روحك " تسكبينها من روحك نغَماً في روحي.. يا إلهي.. ما أعذبها نابعة من عميق وجدانك.. فأغيب نشوانَ.. حتى يعيدني إلى الواقع أسىً ثقيل الوطأة، يهصر قلبي.. كيف أنساكِ ، وكل ما فيك لا يُنسى..!! "
مسح صديقي دمعة انحدرت على وجنته، ثم ناولني هذه القصاصة، مع رزمة من ثمانٍ وثلاثين رسالة من هالة إليه، وأربع خواطر من خواطرها، قائلاً : احفظها عندك، فلا أريد أن يطّلع عليها أحد غيرك ، فيسيء الظن بي.. فسألتُه مستغرباً :

- عهدتك دائماً زوجاً مثالياً يستنكر الخيانة الزوجية لدرجة أنك تجاهلت فُرَصاً أُتيحت لك، وذلك التزاماً منك بمبادئك الأخلاقية.. فكيف أذعنت لعلاقتك مع هالة ؟!
- استغرابك في محله.. حتى أنا كنت مستغرباً من نفسي.. لكن، حين يطالعك كل يوم وجه كالبدر المنير.. هالتُه خمارُ صلاةٍ أبيضَ منسدلٍ حتى الكتفين، يديم النظر إليك وضيئاً مع طيف ابتسامة من على شرفة، وأنت خلف نافذة مكتبك، وذلك كل يوم.. كل يوم.. ما عساك فاعل؟

- أتجاهل تلك النظرات مبتعداً عن النافذة
- وهذا بعينه ما كان مني.. لكن أختيها اللتين تصغرانها سناً كانتا لا تبرحان ترشقان زجاج نافذة المكتب بكمّاشات الغسيل كلما علمتا بوجودي، فأضطر إلى الظهور مستوضحاً ومستنكراً، فأراهما تضحكان بجانب ذاك القمر بهالته الناصعة وابتسامته الرقيقة الساحرة .

اعتبرتُ الأمر مزاحاً.. لا أكثر من تودّد يافعات إلى جارهنّ، فأخذنا نتحاور بتشكيل كلمات في في الهواء بأصبع السبّابة، كالتعريف بالأسماء والأعمار والأحوال. مرت أيام على هذه الشاكلة أعلمتهم خلالها أني متزوج وأب لأطفال، ولشدّ ما كانت دهشتهن ، ولاسيّما هالة، حين علمتْ أنني في السادسة والثلاثين من عمري، لأني بحسب تقديرها، لا يمكن أن أكون متجاوزاً الثلاثين! ولشدّ ما كانت دهشتي حين علمتُ أن هالة التي بدت لي في العشرينات.. كانت في السابعة عشرة! وذات يوم، أبدت رغبتها في أن تقذف من شرفتها إلى نافذتي برسالة تشبكها بكمّاشة غسيل.. ما إن قذفَتْها حتى ارتطمت بحافّة النافذة وهوت إلى الشارع، فما كان مني إلا أن هرعت لإحضارها والاطلاع على ما فيها. أذهلتني تلك الرسالة.. لم أكن لأتصور أن هالة التي لم يتح لها إكمال دراستها بعد المرحلة الابتدائية، يمكن أن تعبّر عن مشاعرها على النحو الذي جاء في رسالتها، ولاسيما أنها كانت لمّا تزل في سِنِيِّ المراهقة. لم أكن لأتصور ذلك النضج فيها، ولا تلك اللغة السليمة، وذاك التعبير الجميل.. يصدر عن فتاة في مثل سنها وبيئتها وتحصيلها المدرسي البسيط. وما إن أتتني رسالتها الثانية مؤكدة ما بدا لي في رسالتها الأولى، حتى أثارت اهتمامي كما عاطفتي..! رسائلها باتت لديك، يمكنك الرجوع إليها ، ولابد أنك ستعذرني .

* *

رويت ما رويت .. بعد رحيل طلال إلى دار الآخرة، آملاً أن تقرأه هالة يوماً، منشوراً في كتاب، لتعيَ أنه ما كان - رحمه الله - لِيكون زوجاً لغيرها، لو لم يكن لسواها، ولتعلم أن ثمة ما كان يؤرقه بقية حياته، وهو أن لا تكون صورته - في أحد لقاءاتهما - قد بقيت في نفسها صورةَ ملاك، كما كانت تراها دائماً. وهو كما عرفتُه أنا الصديق - إن لم يكن ملاكاً - فقد كان إنساناً يخشى الله . كان في داخله شيء من يقين بأن الله يستثني تلك العلاقة من درك الخطيئة، لأنه العالِمُ بشاكلة نشأتها، وبنوايا الصدور. وكان يعتبر انجرافه نحو خضم ذلك الحب، عقاباً دنيوياً من ربه على ما كان يعتري نفسه، قبلاً، من اعتداد مفرط بقوة إرادتها وثبات مبادئها الأخلاقية - عقاباً جعله يوقن مدى ضعف النفس البشرية إن كانت ليست مسلّحة بالإيمان القوي الذي يحول دون الزلل .
أرادني ألّا أُسيء تأويل علاقته بهالة، وأن أخرجها من نطاق الخيانة الزوجية، فكان له مني ما أراد، مع إشفاقي لحاله.
سألته وأنا العارف بموقفه الرافض من تعدد الزوجات إلا في حالات الضرورة : أما كان من المريح لك أن تخبر زوجتك بأمر حبّك لهالة، فتتفهمه.. فترضى لكما القران؟ ها أنت ميسور الحال، ولابد ستكون عادلاً بين الاثنتين، لاسيّما وأن زوجتك - كما علمتُ منك - تؤمن بشرع الله مقروناً بالفعل، لا قولاً فحسب. فأجاب " إلا هذه الفعلة.. فلن ترى زوجتي ما يبررها، فأنا أعرفها، هي كما هنّ باقي

الزوجات، إلا ما ندر ". فقلت :
لو أنهنّ يوقِنّ ثوابهنّ عند الله، لامتثالهنّ لشرعته - وهو الحكيم الأدرى بعباده - لَتقبّلن الأمر راضيات. فللزوج الظالم، أو غير العادل بين أزواجه، ربٌّ يحاسبه، ويعوّضهنّ بالحسنات.. لكن.. لو أنهنّ يُوقِنّ .

* *

رحمك الله يا طلال.. لقد عانيتَ من ذكرى أرّقتك حتى مماتك، ربما لم تعد لهالة اليوم، سوى محطة في مستهل صباها، منسيّة لا تستدعي - إن هي ذكرتها - أكثر من طيف ابتسامة فاترة .

(خريف عام ١٩٩٦)

* *

يقيناً منّي أنّ روح طلال لن تعارض إطلاعي القارئ على رسائل هالة إليه، فقد انتويت أن أكتفي بعرض الرسالتين الأُولَيَيْن، ثم رأيت أن أكتفي بثلاث منها فقط كي لا أطيل على القارئ، ثم انتهى قراري على أن أعرض أكثر ، على الرغم من أنها جديرة بأن أعرضها كلّها .

الرسالةالأولى :

((أستاذ طلال المحترم ..
يبدو أننا لن نستطيع أن نكون أبعد من صديقين وفيين عزيزين.. إن الفرق بيننا كبير، والمسافة بيننا بعيدة، لن تقرّبها نظرة أو ابتسامة. وبكل صراحة، أنا إذا التقيت بك فلن أصبر على مشاهدتك فقط، ولست أدري ما الذي سوف يحدث.. قد تقول إنها مندفعة طائشة لاهية.. لا.. لست كذلك، إنما أخاف أن أحبك أكثر من حب صديق لصديق، وعند ذلك سيكون بُعدك عنّي أقسى جريمة ترتكب في حق إنسانة تحمل لك المودة وتميل إليك.. ألا ترى معي أننا مهما حاولنا أن نلتقي فلن نستطيع؟ هذا يعني أنك في واد وأنا في واد آخر، وبيننا جدار عالٍ لا يمكننا نقبه أو هدمه.
لست أدري إن كان ما أحسه نحوك هو حب أم شيء آخر.. إني - وحق الله - يعجز لساني عن وصفه، وقلمي عن البوح به ! فإنك وإن ذهبت.. يدوم حضورك، كأنك لم تذهب.. لست أدري كيف أعبّر، فأنا لا أقوى على أن آتي بشيء يفصح عمّا بي ! أرجو أن نبقى صديقين وإلى الأبد. وحتى إن افترقنا، أرجو منك إذا رأيتني ألا تدير ظهرك لي، فإن هذا سيقتلني. أرغب في رؤيتك دائماً، والتكلم معك، فلا تحرمني هذا.. جبراناً لخاطري)) .

الرسالة الثانية :

((أستاذي العزيز ..
أشكرك على ما أبديت لي من تعاطف ورقة متناهية في كلماتك المذهلة، ولا أقولها مجاملة.. إنما

لواقع وحقيقة، فأنت كل ما فيك رائع وجميل.. وسامحك الله، لقد تعلقت كثيراً باسمك المزيف، فكثيراً ما ذكرته في خلواتي، وبيني وبين ذاتي، ولأكون عادلة بين الاسمين فقد أسميتك بهما معاً، لا لجمال هذا أو ذاك إنما لأني تعلقت بالأول وأحب الثاني .
أعتذر عمّا بدر مني من قِحة وقلة أدب وطيش أرعن، فسببت لك الضيق والحيرة بين مطاوعتي أو الالتزام بما يمليه عليك أدبك.. وأعترف لك اعتراف المذنب، وأعتذر لك اعتذار المخطئ، فأنا حمقاء تافهة.. والله العظيم يا سيدي إني لم أنظر إليك نظرة تدعو إلى الريبة، أو تعتريها رغبة جامحة.. لم أفكر بشيء من هذا إطلاقاً، فأنا لست أدري لماذا أحببتك أنت بالذات.. لست أدري.. لعل عذري الوحيد هو أني لست أدري!
سيدي .. حركاتك.. نظراتك.. ردود أفعالك.. بصَمات انطبعت في ذاكرتي.. لن تمحوها الأيام ولا الأعوام، محال أن أنساها، ومحال أن أنساك، ولا أظن أني سألتقي في يوم برجل مثلك، فأنا أعتقد أن كل إنسان نسيج منفرد لا يتكرر، يندر أن يكون له شبيه.
ما يحدث لي الآن هو أن شيئاً ما نحوك قوي ورائع ينتابني.. لا يُنظر ولا يُلمس، بعيد كل البعد عمّا يدعو إلى الريبة، وبعيد كل البعد عن الأغراض الدنيئة والغرائز القبيحة .
لن أخدعك أو أخدع نفسي بأني ملاك.. إنما أنا بشر أحاول تهذيب نفسي قدر الإمكان .

يا من جعلتني أعي غربتي ..
إليك ولذكرى حكاية لم نعشها ..
سوف يظل اسمك يأكلني حباً.. وحنيناً كلما ذكرته
سوف أظل أستعيد ذكراك ..
لبعث ظلالها وأصدائها في أعماقي ولو لبرهة
لا.. لن أنساك.. سوف أفتقدك.. سأفتقدك كثيراً
فالوداع..)) .

الرسالة الثالثة :

((إلى أغلى مخلوقٍ عندي..
لا أزال أشعر حتى الساعة بجمال ذلك المقام الذي قمتُه بين يديك أمس، ولا أزال ألمس صدري، أتحسس مكان قلبي من أضلعي مخافة أن يكون قد طار سروراً بتلك السعادة التي هي كل ما يتمنى الإنسان.. ! ولو أن لامرئ أن يعبد من يسدي إليه أفضل النعم، لوجدتني أقبل يديك صباحاً ومساء، ولا أحس بذل أو خضوع، إنما بالشكر والامتنان ..
أيّ رقّة إحساسٍ.. وعذوبة نفسٍ تمتلك !! وأيّ قلب تحمل بين جنبيك !!
أأصدق أني التقيتك ورأيتك أمامي.. أحقاً كنت أنت !
إن سعادتي فوق طاقة احتمالي.. ولو أني أستطيع البوح بسرّي العظيم، لأفضيت لجميع الخلائق بقصتي، لعلهم ينالون جزءاً من سعادتي التي لا يمكن أن تماثلها سعادة .

لو أعلم أن تنفسي يعكّر جمال حضرتك ووقفتك.. لقتلت نفسي. ليتني أملك مفاتيح السرور والغبطة لأسبغ على الناس جميعاً منها، وأمحو بؤسهم وشقاءهم كما محوتَ بلقائي.. بؤسي وشقائي. إني لا أحتمل سعادتي.. فرفقاً بي أيها الصديق الرائع.. إنك أول إنسان استطاع أن يتغلغل في أعماق نفسي الجريحة.. وأول إنسان شعرت نحوه بشيء عظيم..
أعاهدك عهداً لن أحنثه أبداً، أن أظلّ مخلصة لتلك اليد التي امتدت إليّ.. فجمعَتْ روحي في يدي.. ولمسَتْها بحنان)) .

الرسالة الثلاثون :

((سماءَ حياتي.. ودنياي.. لقد وقعنا في كثير من الملابسات والأخطاء من خلال نقاشاتنا وأفكارنا حول حبّنا..! واسمح لي أن أتحدث بوضوح وموضوعية : لست أدري كيف نخطئ نحن العقلاء، ونزيّف حقائق واضحة جليّة ! لقد كنّا في غاية الغباء.. بتصوري أولاً أني إذا التقيتك في فراش واحد سينتهي ما بيننا، وبتمنّيك هذا ثانياً ! وقد كنتَ أنت المرجّح للنهاية أو بداية النهاية عندها ! ولكن لو نظرنا نظرة ثاقبة للأمر كلّه، لتأكّد غباؤنا، لأن هناك أمثلة كثيرة على عدم صحّة تصورنا، وإليك بعضها : الشاعر ابن زيدون أحب ولّادة، وواصلها جسدياً، وحين افترقا، نهل من غيرها دون أن يسلُوَ حبها، ولم تتبدل مشاعره تجاهها، بل ظل يهتف بحبّها وعشقه لها من خلال أشعاره الكثيرة.. بل كان يتوسل رجوعها إليه. مجنون ليلى – الكُتّاب قد رفعوا وخفضوا بشأن حبه العذري – ترى أكان حبّه عذرياً؟ اقرأ إن شئت، كتاب (ما رأي الإسلام في الحب)، فقد كان قيس، بعد زواج ليلى، إذا خرج زوجها مسافراً، دخل هو بيتها فقضى ما قضى معها، وبقي على جنونه بها، ومات على حبها . المعتمد الخليفة الأندلسي، لقد اشتهر بحبه لاعتماد حتى لُقِّب باسمها، بل لقد أطلق على نفسه اسم المعتمد لأجلها، وتزوجها وهي ليست بأكثر من جارية التقاها مصادفة فعلق فؤاده بها .. كان باستطاعته أن يضعها مع جواريه، ولكن بحبه لها رفعها إلى ما فوق الزوجة والحبيبة.. جعلها معبودة . ولا أريد أن أذكر أمثلة من القرن العشرين فهي كثيرة ومتنوعة، يستطيع أي إنسان القراءة عنها حتى في الصحف اليومية.. عن منتحر أو منتحرة حين حالت الحياة دون الاستمرار في وصال الحبيب. عفواً منك.. أنا لا أضخّم المسألة كما يبدو لك، ولكن لتعلم أن ما بيننا لن ينتهي بالوصال الجسدي، لأنه ليس مرتبطاً به أصلاً، بل بالروح أولاً وأخيراً، وأنت أدرى لأنك – وبكل بساطة – مُتْخَم.. ليس بك جوع أو عطش.. وأنا أستطيع اللهو – إن لم أقل التغيير – وقت أشاء.. ومع هذا، أنت تتوق إليّ.. وأنا أموت فيك حباً جارفاً يسحق قلبي قبل أضلعي.. فكيف له أنْ ينتهي ببضع رعَشات لا تلبث أن تزول! وإمّا تواجدنا في تلك العلاقة الحيوانية، أننسى بعدها التَوق الروحي.. ذاك الرابط القوي الذي يربطنا؟! لقد عبّرنا عن حبنا بكل طريقة.. استخلصنا أرفع ما في الجسد من تعبير.. القُبل والعِناق.. فإذا حدث أن تُقنا إلى أكثر من ذلك فسيكون بدافع من روحينا قبل جسدينا، فيتّصل الجسد بالجسد، وتُحلّق الروحان متلاحمتين فوقهما، فكيف لحب كهذا أن ينتهي لمجرد التقاء الجسدين؟! أخيراً.. أذكر قول أرسطو : " إنّ حباً أمكنه يوماً أن ينتهي، لم يكن

في يوم من الأيام حباً حقيقياً " . التوّاقة إلى الحياة بجانبك .. ويا ليتها تكون بجانبك إلى ما بعد الحياة)) .

الرسالة الحادية والثلاثون :

((بَغْتةً.. وأنا أَنهلُ منك الحياة.. وثمرَ النور.. لمحتُ على جانبيّ رأسك الجميل بضع شعيرات بيضاوات.. لمحتُهنّ، ويا ليتني لمحتهنّ قبْلاً، لأزداد عشقاً لك. لقد هاج داخلي حباً، وطرِبتْ روحي إعجاباً بما رأيت! تمنيت ساعتها لو أخطف واحدة أغرسها نبتة في أعماقي، وأدعها هناك لا يمسّها أحد بعدي. أحقاً هذا أنت.. أحقاً فيك كل ما أحبّه وأقدّسه! رجُلي القدّيس.. فارع الطول، سريع الخطوة، رشيق الحركة، محنّك اللمسة.. على عتبات خريف أخّاذ! آهِ.. لطالما تقتُ إلى عشق رجل في خريف عمره.. له طابعه الخاص، وعبَقُه الفريد .. لقد بدوتَ لِناظريّ أكثر جمالاً وسحراً.. كنتَ لوحةً خريفية بعيدة المدى.. تمنيت أن أركع أمامك يا رجلي المعتّق.. يا مَن أرتمي في حضن نعيمه الذي لم يتذوقه قبلي بشَر. تلقّفتْ أذناي حفيف أجنحة ملائكية.. بَصُرتُها تَهيم في علياء السماوات.. فوق الكائنات والآفاق.. فهامت روحي وراءها صامتة عاشقة.. تُنْصِتُ لذاك الحفيف وتُتَمْتِم : أدامكَ الله لي حتى أراك تقتحم عتبة شتاء العمر، قوياً مليئاً بالشباب والحب والحياة .. أدامكَ الله وحفظك من كل مكروه أو حزن.. أدامك وأبقاك ترفل بالسرور والصحة الدائمة .. ستبقى كما أنت .. في زوايا نفسي وعميق أعماقها)) .

الرسالة السادسة والثلاثون :

((حبيبي الغائب الحاضر ..
كيف أبدأ .. لست أدري ! وكأني أخط لأول مرة ، وكأني أكتب لك الرسالة الأولى.. بكثير من الخوف والرهبة والوُدّ الصادق .. أحار بالكلمات ، ولا تكاد تسعفني فكرتي.. لكنّي أُحسّ بحاجة للكتابة إليك، تماماً كحاجتي إليك .
حبيبي.. بدأت حياتي تفرغ إلا من ذكراك.. أشعر أني جوفاء فارغة لا قيمة ولا معنى لحياتي.. فموتي أفضل عندي.. فقدت الكثير بل الكم الكبير من الغبطة والنور في قرارة نفسي.. وكأني لست أنا بجنوني.. وكأن البركان المستعر بدأ يهمد شيئاً فشيئاً .. لم أعد أستطيع حراكاً ولا زُهوّاً .. أراني أسقط في فجوة عميقة سوداء لا أستطيع حيالها فعل أمر لإنقاذ ذاتي.. أنصهر في بوتقة من التكرار الممل.. الأيام هي هي تتكرر ، وأنا التي اعتدت الاستيقاظ كل يوم لأحيا عمراً جديداً بالحب الذي يملؤني.. والآن ، تكاد تُزهق روحي .. لست معذّبة ، بل تكتنفني الراحة ، والراحة لا تعني ليَ السعادة ، والسعادة لحظات يمكن أن ينهلها الإنسان حتى وهو متوجس يترقب .
ماذا أقول وقد بدأت أحس بهاجس ما مضى ؟ تجب العودة ، فلا حياة تُعاش بعدك .. فأيامي معك أهنأ الأيام وأحلاها.. ولا ريب أني لن أذوق مثلها قط بعد اليوم . أفكّر.. آه .. لقد قتلتُ نفسي يوم رحلتُ وأنهيتُ عمري.. يوم ابتعدتُ.. فبالرغم من المعاناة التي لقيتها من الآخرين أيام كنت معك ، إلا أني كنت أمْلك العالم بأسره.. وأستحوذ على كنوز الأرض.. كنت دمية لا تهدأ.. ثورة

جامحة لا تسكن ولا ترتاح .. ! والآن أرى أني أنحدر إلى النهاية لأصبح بقايا بشرية على هامش صفحة الحياة . كيف أرجع إليك لأُغيّبَك في ضلوعي، وأزرعك في أعماقي؟ أشعر بالقبح يجتاحني بعد الجمال ! أتعلم أنك أنت من منحني الجمال.. بحبّك وقربك ونبعك الدافق بالطيبة والحنان .. لقد كان ينعش حواسي ويُرغِد عيشي.. وأبقى لا أعرف ماذا أكتب وماذا أفعل أو أقول .. وأعجز عن شرح مشاعري وما ينتابني .. " أنا لمّا بشوفك ، كأنّي بشوفك لأول مرة حبيبي .. أنا كل ما تودّعنا ، كأنّي تودّعنا لآخر مرة حبيبي ")) .

الرسالة السابعة والثلاثون :

((إلى من احتواني في قلب رقيق.. وصدر دافئ ..
أتريدني أن أصدّق ما كتبته لي.. وأن أطيعك فيه، فيكون ما أكتبه لا يتعدى أن يكون موضوعياً بحتاً.. وأتحدث إليك كمن يتحدث إلى غريب عنه لا يربطه به أيّ رابط ؟! هل تريد أن أتكلم معك بيا حضرة السيد..؟! يا للرعب..! أيعقل..! أأنت صادقٌ بطلبك هذا ؟! ألم تعِ بعدُ أن لي حقَ الزوجة والحبيبة في آن معاً.. ويحقّ لي ما لا يحقّ لسواي ؟! لقد هزّتني رسالتك كالقَدَر المُنزَل..! ولاسيّما عبارتك : " زهرات ذابلات، يحكين قصة حبّ فات ". إذن ، فقد فات الحب أيضاً !! يا للعار.. لم تعد تصبرُ على بُعد قليل فيصبحُ لديك كلُّ ما كان.. مجرّد ذكرى !!
خِلْتُ يا صديقي أنّ ما بيننا لا يؤجّجه قرب، ولا يُطفئه بُعد، بل يبقى كما هو بنبضه وإحساسه الدفين فينا.. فإذا بالبُعد أصبح هجراً وعذراً !! ومنذ متى تعرف عنّي الرياء والخديعة ؟! هل لمستَهما فيَّ على مدى علاقتنا.. هل هما من طبعي حتى ادّعَيْتَ ما ادّعيْت ؟! يا للسخف..! إنّ ما يُقدِّره الخالق ليس بسيّئاتي ولا حسناتي بل بمشيئته.. شاء رزق.. شاء منَع.. إنه رب العالمين لا يأخذ بالجريرة، ولا يعامِل بالمثل، وإلا ما ترك عليها من دابّة. كل ما في الأمر أني أنهج سلوك العرفان بالجميل لشخص أكرمني وأغدق عليّ الراحة والطمأنينة. إنّ أسبابك واهية.. ولعل السبب الحقيقي واضح المعالم، وهو أن فكري، منذ فترة، أخذ يتّجه اتجاهاً مغايراً عمّا كان عليه، وذاك ممّا أكسبني الذي لمستَه فيّ. فكُتُبُ الشريعة والفقه غيّرتني تدريجياً حتى بِتُّ أحسب ألف حساب لكل تصرّف أقوم به. لو تعلم كم يؤثّر فيّ ذلك.. فأنا الآن ليس لي أصدقاء ولا جيران ولا أحد.. أختلي معظم أيامي حزينة في سَهوٍ دائم.. وأسبابُ التسلية شبه معدومة في البيت، وما أقرأُه يجعلني في حال يُرثى لها.. وأيِّ حال..! أيُسمّى هذا زُهداً.. أم جنوناً ؟ لوتَراني عن قرب لأدركتَ هذه الحقيقة، فبالرغم من حملي.. هزُلتُ عمّا كنتُ عليه من بدانة واضحة! إني سقيمة، وأُحب سَقَمي هذا وراضيةٌ به. أهذا وعيٌ أضحى فيّ يا حبيبي.. أم ماذا ؟ بِتُّ أعتبر أيَّ أمر فتنة تصيبني أو بدعة تلبسني.. أُحِسّ أني في تغيّر دائم.. عجباً..! أهي رغبة الإنسان في أن يكون عابداً، أم صراع مع النفس كي تخضع لمشيئة الروح، أم هو الخوف؟ بلى.. إنه الخوف.. الخشية تحجب المرء عن فعل يرفضه عقله، فإن فعل، وقع تحت طائلة العقوبة القاسية.. ألا وهي الشعور بالخوف والتقريع والتهديد إنْ كرّر ما فعل .
ألتمس عفوك.. لأني كنت فظّة ذاك اليوم البعيد، فما بدر منّي لا ريب ينغّص عليك حتى اليوم، ولا تستطيع نسيانه.. سامحني.. فليس بيدي ما حدث، واعلم أنك الذي أحببتُ ولا شيء يُفقدني

عرفاني وإحساسي بالحنان الدافق الذي غمرتني به، وسلسبيل الحب الصادق الذي سقيتني إياه.. واللمسات الطيّبة التي أحالت شقائي سعادة. لا تصدّق أبداً أن جسدك عدوّي، إنه حبيب إلى قلبي مثل روحك تماماً .
أُحبُّ أن أعلمك أني هجرت المعصية أبداً.. فاقبلني واقبل حبّي صادقاً طاهراً طيّباً.. وتقبلني كما أنا إن كنتَ حقاً لم تزل تحبّني، فأنا لم أزل أُحبّك..
منذ متى أمزّق رسائلك حتى أمزّق تلك الأخيرة ؟! وأين الوديعة التي استودعتك إياها ؟ ألن تنتهي منها وتردّها إليّ ؟!)) .

الرسالة الثامنة والثلاثون :

((أحقّاً إنك راحل..؟ إنه ليعزّ عليّ ألا أراك بعد اليوم.. ويعزّ عليّ أكثر ألا تسأل عني وتذكرني وتنتظر رؤيتي.. إنه ليؤسفني أنك مبتعد عن أمكنة لقاءاتنا وحبّنا.. أتذْكُر حين قلت لك سوف أفتقدك كثيراً..؟ أمّا الآن.. والآن فقط أيقنت أني ما أحببت غيرك قَطّ، ولن أُحبّ.. وإن كنت مع زوجي الآن، فهذا لا يعني أني أحبّه كما أحببتك.. إنك شيء ما غريب.. حلم ما بديع هاجع في داخلي.. وفجأة ظهر لي ثانية الآن، فخفت من أن يرحل .
إني عاجزة عن الإتيان بك إلى عالمي، أو أن أدخل إلى عالمك.. ولن أستطيع ترك عالمنا الذي نسجناه معاً. سترحل أيها الحلم.. ستبتعد مخلّفاً وراءك كمّاً هائلاً من الأشياء النفيسة.. تماماً كيوم ابتعدتُ أنا تاركة مكاننا بأسراره وتدفّق الحياة في زواياه الحبيبة، وكل ما كان يعصف بي.. أقف الآن حزينة على عتباته الأخيرة.. بات من الماضي، لكنّي ألتفت إليه أحدّق فيه مليّاً ولا أستطيع الرجوع إليه.. باب موصد، وبيني وبينه هوّة سحيقة.. كلّما وضعت قدمي على عتبة انهارت التي خلفها وستنهار الأخيرة ، فأقع وأفقد الحلم تماماً وأبداً !
تُرى ما سيَحْدثُ لك؟ أراك الآن بعين خيالي تعيش مثلي.. نصف إنسان.. نصفه الآخر محطّم .
ألن تحتوي يداي رسالة منك بعد الآن لتدفئ جنبيّ اللذين يملؤهما الصقيع ؟! كيف أودّعك.. كيف أودّع من كان مثلك أيها الغالي؟! قرأت رسالتك وكأنها الأولى.. في أول الصفحة تناديني بحبيبتي..
إذن لم أزل حبيبتك يا حبيبي.. رغم رعونتي معك.. رغم كل ما فعلتُه وغضبتَ منه! أيّ صبرٍ صبرتَ عليّ.. وأيّ احتمال تحمّلتَ من أجلي! لكنّي أعدك.. أَعِدُك بحق، أني سأراك دائماً، وألتقيك كلّما سنحت لي الظروف.. أَعدك..
أيها العزيز.. شُلّ لساني إذا كنت قد اتهمتك بتهمة أنت بريء منها – فجَرَحَتْ مشاعرك العذبة كمياه الغُدران – بسبب ما كتبتْ يدي الآثمة.. إني لم أقصدك بهذا الذي كتبت **(*)**، بل كانت مجرّد لحظات اختليت خلالها بنفسي، فكنت أثور وأكتب، ثم أهدأ وأكتب، فلا تَعتَب عليّ ، لأنك أعزّ عندي من أن ينالك لساني أو قلمي بسوء.. وأَجلّ في نفسي من أن أنعتك بنعت لا يليق بك فأظلمك به. اغفر لي تلك الكتابات التي لم أشأ أن أطلعك عليها لتفاهتها بجانب ما تكتبه أنت .
ليكن فؤادك على يقين لا يرقى إليه ريب، بأنك عظيم في عينيّ، وكبير في قلبي.. كنتَ وبقيتَ وستظل)) .

(*) في أحد الأيام أبدى طلال إعجابه بأسلوب هالة في كتابة رسائلها إليه، وأثنى على موهبتها، وحثّها على أن تكتب قصة، أو بعضاً من خواطر، وإذا بهالة تخبره بأن لها محاولات في كتابة الخاطرة، لكنها لا تجرؤ على إطلاعه عليها لأنها لا ترى نفسها قد تمكّنت من الكتابة لدرجة أن تدع أحداً يطّلع عليها . لكن طلالاً ألحّ راغباً في الاطّلاع عليها ، فكان له ما أراد .
بعد أن قرأ طلال خواطرها الأربع، رأى أنها مستوحاة من حبّهما.. وعاتبها على النظرة التي انتهت إليها من علاقتها به في خاطرتها الرابعة، فكان ما جاء في رسالتها الأخيرة الثامنة والثلاثين .بَيْدَ أنّ طلالاً لم يعتبر نفيَها خَصَّه بتلك الخاطرة، إلا حياءً منها، وصوناً لمشاعره .

- الخاطرة الأولى : (مخدَّتي)

أويتُ إلى فراشي تماماً كما أفعل كل يوم، ودَسَسْتُ جسدي المتعب فيه كي أنام بعد يوم حافل قضيته..
بغتة .. انعكس ضوء من مخدتي إلى وجهي.. تنبّهتُ وحملقت فيها ، فرأيت وجهك عليها..
جلست أتأمله ساكناً مهيباً جميلاً.. كلَيلتي هذه ! وخلال سويعات كان الضياء قد نثر بريقه الرائع فوق فراشي.. هدَلَتِ الحمامات عند نافذتي.. وانتعشت الأزاهير في حديقتي بقطرات الندى.. مُفَوِّحة عطرها مع نسمات رقيقة، فاستنشقتها ملء صدري..
غادرت فراشي لأعود إليه مساء كعادتي.. وكالبارحة، جلست أتأمل وجهك على مخدّتي.. حتى كاد النعاس يغلبني، فحاولت إلصاق وجهي بوجهك على مخدّتي لبرهة حتى كدت أختنق !
في الليلة التالية، شعرت بالغَيرة من مخدّتي.. فما كان مني إلا أن دخلت غرفتي على غفلة منها ، وانتشلت وجهك منها لأضعه سريعاً في إنسان عيني.. ورميتها تلك اللصّة بعيداً، وغفوت دونها تلك الليلة وما تلاها من ليال، مع صورة وجهك.. ساهرة .

- الخاطرة الثانية : (ما وراء الأقنعة)

أركض مهرولة في متاهات الحياة ..
ألبس رداء المجاملات وأشبك أزرار الابتسام المصطنع ، وأضع قناع الزيف ..

أضحك ببلاهة.. وأمرح بتفاهة .. لكني رغم هذا ..
أخبّئ شيئاً نفيساً بعيداً عن كل ذلك.. هو ذكراك ..
فحين أخلو بذاتي ، أسرع مبتعدة خارج حدود الحياة البليدة ..
أخلع ردائي وقناعي.. أرميهما.. وأبكيك ..
أبكيك حقاً وصدقاً.. كثكلى قُتل وليدها للتو ..
ويحلّ عذاب الحزن فوقي.. والذكرى تنهش عظمي..
فأنتحب لفراقك وأستحضرك ..

أستحضر جسدك.. أنهال على فمك ..
أسكب فيه الدماء.. لعل اليباس يرحل عنه، فترجع شفتاك حارتين غضّتين ..
لكن فمك لا يستجيب لتوسّلاتي ومحاولاتي.. ولا ينطق بحرف ، فأعمد إلى يدك الحبيبة.. ألمسها بقلبي الذي يحبّك.. وبأدمعي أحفر على يدك أخاديد، لعلها تحس بوجودي قربها.. وما من جدوى فأعانق عنُقك الجميل.. حتى تملّ الطيور العناق.. ولا أملّ أنا..
وما من مجيب !!
ويسافر الليل ..
أقوم إلى ردائي وقناعي ألبسهما ، وأعاود تكرار تمثيلي البغيض ..
أسعى راكضة على الأرصفة المزدحمة للحياة ..
أرى كيف ترمي البشر في فخاخ الموت ..
أتابع الركض..
فمن سيدرك حقيقة ما وراء الأقنعة .. مَن ؟!

- الخاطرة الثالثة : (الفصول)

البرد شديد ، والثلج يملأ المكان ..
الصقيع والنديف الأبيض يكسوان وهاد الأرض إلى أعالي الشجر.. والجبال مزهوة بحلّتها الناصعة
إنه الشتاء .. يشبه قلباً وحيداً فارغاً..
برودة في برودة .. وصقيع في صقيع ..
ويطرق الوجودَ ضيفٌ جميل .. انتثرَ على ثوبه قوس قزح ..
فتح كفّيه .. وإذا بهما تحملان زهوراً ربيعية كعمر أزهَر للتو ، بأماني الأحلام واللقاءات الخاطفة
وبدت الهمَسات البكر دافئة كنُسَيمات الربيع.. هادئة عليلة ..
وكعذوبة الغدير ورِقَّتِه تنسَلّ الكلمات رقيقة عذبة ..
يا لهذا الجمال .. !
ولكن ، سرعان ما أتت نسمة حارّة ..وهجُها نار شوق تُضْرم القلوب كشمس محرقة ..
فكانت وجداً يملأ النفس ..

كل شيء في أوجه .. ثمرٌ ناضجٌ على أغصانه ..
وحُبٌّ يسكن حنايا الوجدان الخفيّة ..
بدأ المكان يصبح موحِشاً .. تعصف به رياح شمالية .. تنذر بالوداع لحب كبير ..!
وتقرع النفسَ معلِنة انتهاءه الأليم ..!
ويتساقط الورق ، وكل ما كان وما لم يكن .. حتى الأحلامُ المريرة .. والعمرُ الأمَرّ ..
وتنساب قطرات المطر كما الدموع تنثال على الجراح العميقة .. تلْسَعُها تارة ، وتُبَلْسِمُها تارة أخرى
تَصْفُر رياح خريفيّة تنثر الوريقات ضمائر وقلوباً محطّمة تَفتتت هنا وهناك .. صفراء يابسة ..

إنه العُري من الشيء واللاشيء ..
أتأمّل لوحة الوجود الأزليّة .. أُغمض عينيّ لأرى بوضوح أكثر ..
تسري قشعريرة باردة في جسدي ، تُقْسِرُني على التنبّه ..
إنه لَسْعٌ باردٌ قاسٍ ..
وها أنا مع بداية اللوحة ..
بردٌ جديد ..
مدفأة الذكريات لا تغني عن الجليد المتجمّد داخل النفوس ..
فالحُبّ كالفصول .. يدور كما تدور .

- الخاطرة الرابعة : (الشقاء معك)

أوقفني ها هنا ، لا أريد الاستمرار معك ..
اتركني هنا في منتصف الطريق الموحش .. لا أريد المسير خطوة واحدة معك ..
قدمي رسمت خطاً مستقيماً طوال طريق قطعْتُه معك ..
حيث كان يجرحني نبات وحشي نبت على جانبي الطريق ..
فامتلأتُ قروحاً دامية ، وأنت غير عابئ ..
اتركني فقد انهارت آمالي وضاعت في ظلمة الطريق ..
تمُرّ أمامي وجوه بلهاء ضاحكة .. أكره النظر إليها.. أنا الباكية ..
أودّ أن أعود.. أن أرجع إلى أول الطريق ..
فأراني ألعوبة بيد ساخر ..
أنساق وراءه دون جدوى .. كانسياق النعاج للذبح في مكان موبوء ..
دعني .. لم أعد أريد الرجوع أو الاستمرار في السير معك ..
سأبقى هنا معلّقة بين الحزن والفرح ..
بين الجرح والتِآمه .. بين النزف وانقطاعه ..
لم أعد أطيق .. سأبقى هنا .. حبيسة بين الماضي والآتي ..
موغلةً في حاضرٍ معذَّب ..
اتركني هاهنا .. فقد عجزتُ عن التحمّل أكثر ..
تعبتْ قدماي، وتعبتْ روحي من اللهاث جرياً وراءك للوصول إلى قربك ..
نعم.. تعِبَ الجسد، وتعبت الروح، وهما يركضان ليصِلا إليك ..
أتوسّل .. دعني .. فلا أريد استمراراً معك .

دعوة إلى العَشاء ..

هَدَرت الصالة بالتصفيق.. بعد أغنيةٍ أدّاها على المسرح .
أسرعت تشقّ طريقها بين الحضور نحو إدارة المسرح، وسألت عن الأستاذ جلال .
قالوا لها إنه غادر للتو .
هُرعت إلى الخارج لعلها تلقاه قبل أن يغيب، وإذا بها تشاهده عن بعد يفتح باب سيارته، فتنادي :
أستاذ جلال .. أستاذ جلال ..
التفت نحوها وانتظر حتى دنت منه .

- مساء الخير أستاذ جلال، كم كان أداؤك رائعاً.. لقد جعلتني أحلّق نشوانة وأنا أستمع إليك.. أرجو أن تقبل دعوتي للعشاء تعبيراً عن إعجابي الشديد، ولعلها تكون فاتحة صداقة بيننا
- جميلة دعوتك يا آنسة، وأنت أيضا جميلة.. أشكر لك دعوتك بالغ الشكر، إلا أني أرجو أن تعذريني، فزوجتي وابنتاي بانتظاري على العشاء
- إذن.. ليكن في الغد
- هم كل يوم في انتظاري على العشاء
- لتكن دعوتي إذن على الغداء أو الفطور
- هم دائماً في انتظاري لنتناول الطعام سوياً . أجاب الأستاذ جلال مبتسماً .
أطرقت الفتاة خائبة، وقالت :
- يا لسوء حظي.. أرجو أن تعذر جرأتي .. إذ لا أدري كيف لم أتمالك نفسي مسرعة إليك .
- لا عليك.. إن أنا خذلتك، فثمة من لن يخذلك إن أنت دعوته، وهو جدير بإعجاب أشد من إعجابك بي..
- من تقصد ؟

رفع إصبعه نحو السماء، ونظر إلى أعلى، فقالت :

- أدامك الله لأسرتك الكريمة.. بلّغهم تحياتي

مدّ يده ، تصافحا ، وافترقا .

هي عادت متثاقلة الخطى إلى مقعدها في الصالة .
هو انطلق مسرعاً إلى المسجد لصلاة العشاء .

* * * *

سوانح

دعيني أتزيّن أمّي ..

كانت بكر والديها، متفوقة في جميع سنِيّ دراستها حتى نيلها شهادة الثانوية العامة - قسم الفلسفة، بدرجة امتياز، بمدرسة القدّيس جوزيف للراهبات في أنطاكية، عام أربعين وتسعمئة وألف، وهي في الثامنة عشر من عمرها .

أجادت اللغات التركية والفرنسية والعربية والأرمنية، وكتبت الشعر بالفرنسية، وكانت إذا ما قرأت نصاً مرتين أو ثلاثاً حفظته عن ظهر قلب. كما أجادت عزف الألحان الكلاسيكية على البيانو، وألحان التراتيل الكنسية على آلة الهارمونيوم بأناملها الرشيقة. عشقت المطالعة، وبرعت في أداء الأدوار التمثيلية الصعبة على مسرح مدرستها.

تحلّت برفعة الأخلاق، وحسن السلوك.. فكانت القدوة الحسنة، والمثل الأعلى لشقيق وشقيقتين يصغرونها سناً، ومحطّ فخر واعتزاز لوالديها.

على الرغم من تناسق قدّها، إلا أنها أرادت إنقاص وزنها، فاتّبعت حمية غذائية قاسية جداً أنهكت جسدها الفتيّ حتى غزاه مرض السل بأعلى درجاته، ما أدى إلى ضرورة إرسالها لمواظبة العلاج في مصح مجهّز بأحسن التجهيزات وأكفأ القيّمِين.. يقع في مصيف (إيرينكوي) في إسطنبول، يمتاز بهوائه النقي الشافي، فأمضت هناك قرابة العام .

في إحدى زيارات أُمها لها، في المصح، طلبت الأم إليها بإلحاح ألّا تُتعِب جسدها الواهن بالتزين أمام المرآة، فقالت " دعيني أتزين أمي.. ألا يحقّ لي التزين وقد باتت أيامي معدودة !"

خلف صورة فوتوغرافية لها، في حديقة المصح، كانت قد أرسلتها لوالديها، كتبت بالفرنسية بخطها الجميل ما ترجمته :
" وسط هذه الطبيعة الجميلة ..
المغتربةُ الصغيرة تحنّ لزرقة سماء موطنها .
٢٨/ ١١/ ١٩٤١ " .
وإذا برسالة تأتيها من والدها يدعو فيها الله أن يمنّ عليها وعليهم بشفائها العاجل لتعود إلى أحضانهم.. فترد قائلة :
" أبي الحبيب.. أشكر الله أن أمرضني فجعلك تؤمن بوجوده " .

اشتدت حدّة مرضها فتوجب نقلها إلى المشفى الأمريكي في إسطنبول.
في ليلة من شتاء سنة إحدى وأربعين، قالت لأمها الساهرة إلى جانبها : " أمي.. الثلج يهطل بغزارة الليلة.. أشعر أني سأفارقكم صباح الغد ". عند الصباح ساءت حالها ولم تعد قادرة على الكلام.

استُدعي الوالد على عجل، وحين رأته أومأت إليه بيدها تطلب قلماً وورقة، لكن القدر عاجلها قبل أن تتمكن من كتابة ما ودّت كتابته، فأغمضت إغماضتها الأخيرة، مطمئنة بوجود حبيبيها.. أمها وأبيها .. إلى جانبها، وهي على عتبة ربيعها العشرين .

تلك كانت خالتي.. رحمها الله.. شقيقة أمي .

ويَمثُلُ في خاطري طيفا جدّي وجدّتي.. وكنت قد لمستُ فيهما، أيام طفولتي ويفاعتي، فيضاً من طيب وحنان.. أتمثّلهما - وأنا أبٌ لأبناء - وقد غمرني شعور بالشفقة عليهما من مقدار الحزن الذي اعتصر قلبيهما.. مدركاً هول الفاجعة التي هدّتهما في ذلك اليوم البعيد، لحظة مفارقة زنبقة غضّة لهما، كانت بهيّة.. فوّاحة.. واعدة .

* * * *

رقصُ الفَراشات ..

كم نُسرّ بمرأى فراشتين تطيران جنباً لجنب بحركات خاطفة رشيقة، تحومان في كل اتجاه، في ارتفاع وانخفاض، لا تكادان تهدآن على زهرة.. وكأنهما تعبّران عن مدى اغتباطهما بالزهرات المتفتحات تدعوهما إليهن للوصال في أحضان الطبيعة الزاهية..

لكن ثمة مشهداً يضاهيه أسراً وأخذاً بالألباب، لفراشتين بشريتين بزلاجتين بدل الجناحين، ترقصان على سطح مليس من الجليد، تواكبان، منسجمتين متآلفتين، ألحاناً منتقاة تنبعث في فضاء رحب لصالة تغصّ بالناظرين – ألحاناً تُجنّ تارة وتهدأ أخرى ..
وما تانِّك الفراشتان المتناغمتان إلا فتىً وفتاة في أوج الصِبا، يزهوان بلباس لصيق، ملائم لجنس كل منهما، يُبرز جمال الجسد المتناسق.. ينزلقان منسابين معاً، كل على زلاجتيه - بمنتهى الخفة والروعة - على أنغام تلك الألحان تنساب في روحيهما.. فلا يخالهما الناظر إلا ريشتين تحملهما الرياح كما يحلو لهما، لا كما يحلو لها – ريشتين ما تكادان تنفصلان إلا لتعودا متشابكتين مندغمتين، تدوران وتدوران ما بين تسارع وتباطؤ ، تروحان وتجيئان بتهادٍ، أو كلمح البصر، بحركات وتشكيلات أخّاذة .. !
كم ينجلي لنا تباين المقدرة الجسدية بين الذكورة والأنوثة في اللحظات التي يحمل فيها الفتى فتاته عالياً بذراعيه، لتتخذ على يديه أو كتفيه، فوق رأسه أو على صدره، هيئات تُبرز جمال جسدها الأهيف المرن المطواع، أو وهو ينقلها من يد إلى يد، وهي تحوم حوله أو تنسلّ من بين ساقيه من طرف لآخر متكوِّرة على نفسها، أو باسطة كامل جسدها، وهي كالدمية طوع يديه، تارة يبعدها وتارة يجذبها، ثم يحررها، ليتابعا رقصهما بحركات تنساب متزامنة متماثلة.. متباينة متآلفة، كما ولا أروع.. ويا لها من لوحة باهرة.. حين تصل سرعة دورانهما متشابكين إلى ذروة لا يمكن عندها لعين الناظر تمييز ملامحهما المتماهية ببعضها. هذا في الشكل والحركة. أمّا فيما يخصّ المضمون، فلا أرى فنّاً أرقى وأبلغ، من هذا الفن، تعبيراً عن التجاذب والانسجام والتآلف الروحي والجسدي بين الجنسين البشريين. وكأني بذاك الثنائيّ الراقص يعيش لحظات حبّ حقيقي، أو على الأقل، يمثل حالة الحب الصادق بين الجنسين وهما هائمين ببعضهما !

وليس الرقص الفرديُّ لتلك الفراشات البشرية بأقل أهمية من الرقص الثنائيّ، فهو يضاهيه جمالا. فإنْ كان الثنائيُّ يمثل عاطفة الحب في أوجها، فالفرديُّ يمثل شعور الفرد بالنشوة وهي في ذروتها ..

ولا يفوتني أن أشير إلى اللحظة التي يتزامن فيها سكون الموسيقا مع سكون حركة الراقص أو الراقصَيْن معاً، إذ إني أرى في ذلك السكون .. النهاية المحتّمة لكل حال من أحوال البشر .

وكم استمرئ ذاك العناق.. وتلك القبلة التي يتبادلها الراقصان إثر انتهاء عرضهما - وهما في قمة الإجهاد - تعبيراً عن رضا كل منهما بأداء الآخر ، وعرفاناً بالجهد الذي بذل .

كلّما تابعت عرضاً للرقص على الجليد، من خلال المنافسات العالمية، منقولة عبر الفضائيات، أتساءل عن مدى تأثر تلك الفراشات البشرية - بعد أن تُمسي في شتاء العمر - وهي تتابع عروضاً مصورة لرقصها الرشيق أيام شبابها .

* * * *

أحلى صَوت ..

في حلقة من حلقات برنامج (أحلى صوت)، في مرحلته الثانية، انبرى على المسرح متباريان. شابّ وسيم مشيق القامة، شعره جعد مشعث، بلباس شبابيّ بسيط.. وشابّة رقيقة حلوة متوسطة الطول، شعرها قُصّ على هيئة (تيت كاريه)، بلباس محتشم أنيق .

غنّيا معاً أغنية جميلة باقتدار وإحساس عالٍ. ما إن أنهيا أداءها حتى ضرب كل منهما كفه بكفّ الآخر تعبيراً عن رضاهما بأدائهما، وهدَرَ تصفيق الحضور، ولجنة التحكيم، استحساناً وإعجاباً . إلا أن المُحكِّم الذي درّبهما معاً على أداء الأغنية، قد اختار الشاب ليكون بين المتنافسِين في المرحلة النهائية . عانقت الشابة الشاب مباركة له فوزه، إلا أن العناق دام زمناً أكثر من المتوقع.. حينها علت الابتسامات وجوهَ الحاضرين جميعاً، وصفّقوا تصفيقاً حادّاً معبرين عن استحسانهم وتعاطفهم الكبيرين لما بدا أنه عناقٌ يعبّر عن عاطفة حب صادقة مخبأة في قلبين.. فكان أن أعقب ذلك حوار مرح مطوّل بين المتنافسَين من جهة، ولجنة التحكيم من جهة، صرّح الشاب خلاله بأن ساعات التدرّب على أداء الأغنية مع زميلته قد أهدته صديقةً وأختاً عزيزة. علا التصفيق ثانية، وتداخلت أصوات الحاضرين.. إلا أن حَكَمَةً مدّت ذراعها، ورفعت صوتها طالبةً من الحضور أن يُصغوا إليها، ثم التفتت إلى المتباريَين قائلة :

" إني أؤمن بالعشق، وإنّ ذاك العناق الصادق الجميل.. لهو مؤشّر واضح على أن ثمة عاطفة متبادلة قد تمكنت من قلبيكما فاسمحا لها بالنمو.. " .

أراد الشاب التعليق على ما قالته الحَكَمة، لكن مدير المسرح - سامحه الله - لم يُتح له ذلك طالباً منه ترك المنصة للفتاة. فكان بين الفتى والفتاة عناق ثانٍ مؤثر، لم يكن بأقل حرارةً وامتداداً من سابقه، فتجدّد التصفيق هادراً من الحضور المتعاطف .

بقيت الفتاة على المسرح ساكنة بوجه يشي بانفعال شديد، تواجه لحظات صعبة من الترقب والتوجس، ممّا إذا كان أحد المحكمِين - غير الذي كانت في مجموعته - خلال بضع ثوان متاحة - سيضمّها إلى مجموعته لمواصلة مشاركتها في المنافسة النهائية، أم لا .

تمر الثواني المحددة لاتخاذ القرار، ثقالاً.. مصحوبة بمؤثرات صوتية ملائمة للموقف الحاسم، وإذا بحَكَم وحَكَمة، في آخر ثانية متبقية، يفاجِئان الجميع معلنَين طلبهما للفتاة، بضغطة زر. انفرجت أسارير الفتاة بالمفاجأة المفرحة غير المتوقعة، وصار عليها أن تختار أحدهما، لمواصلة المسير معه، حتى المرحلة النهائية.

راح كل من الحكم والحَكَمة يستميل الفتاة إليه بإطراءات ووعود، لتختارأحدهما دون الآخر. إلا أن الفتاة عبّرت عن امتنانها لكليهما، ثم اختارت الحَكَمة. عن سبب اختيارها قالت :

" لأنها قدّرت ما استشفّته فينا - أنا وزميلي - وأثنت عليه بحماس بالغ أحسستُ أنه نابع من قلبها " .

إن كان ذاك العناق المؤثر سبباً أدّى إلى استمرار الفتاة في التنافس، إلا أنها كانت جديرة بالاستمرار، لأدائها المتميّز .

* * * *

تلكَ التُّحف ..

تطالعني بين حين وحين، وأنا أسير عبر شوارع وأحياء مدينتي، أبنية قديمة مهجورة، غاية في الروعة تصميماً وتشييداً وزخرفاً..! هي بحق، تحف فنية جديرة بالحفظ والصون من كل أذى، فطبيعة الحياة المعاصرة، لا تسنح بتشييد أبنية تحاكي تلك الأبنية، لعوامل عدة، ليست موضوع أسطري هذه . فأقول في نفسي - وأنا أرى إلى تلك الأبنية الشامخة بكبرياء، وإلى جميل هندستها ودقة إنشائها وزخرفها - أين هي أبنيتنا الحديثة من تلك.. وكم المباني اليوم تبدو هزيلة إذا ما قورنت بتلك، بالرغم ممّا وفّرته التقنية الحديثة من أدوات مساعدة شتّى لم تكن موجودة بالأمس البعيد! بارك الله تلك اليد التي كانت تُطوّع الحجر بالإزميل، وترصفه حجرة حجرة بكل دقة وإتقان.. بئس أيام حاضرة أماتت في الناس روح الإتقان في العمل، إذ ما نراه اليوم في معظم الأعمال، مجردٌ من أبسط علائم الإتقان !

تلك الأبنية التحف المهجورة ، أراعيها ساهماً متسائلاً.. كم من الأسر يا ترى تعاقبت عليها، كم من الأحزان والآلام، وكم من الأفراح.. ضمّتها جدرانها المستوحشة اليوم، كم من آمال وأمنيات سمعتْ همسَها تلك الجدران..؟ وكأني بها تسأل.. أين أولئك الذين ضممتهم بين أضلعي، وخبّأت أسرارهم سنين إثر سنين، فكنت لهم الستر الأمين؟ لابد فيهم من أحياء.. ألا يأخذ الحنين بأحد منهم، أو من أحفادهم، فيزورني ليتمثّل ما مضى من حياة الآباء والأجداد في منفسَح غرفي ورُدهاتي ..!

كم هي حزينة بالصمت يكتنف جنباتها، وبالغبار والسخام يغطّيانها، تلك الأبنية المنتصبة شامخة إلى اليوم ! لا عزاء لها سوى العصافير والحمائم تحطّ على نوافذها وشرفاتها، متّخذة فيها أعشاشها، تسرّي عنها حزنها، تؤنس وحدتها وقد هجرها أصحابها ولم يعد هناك من يكترث بعراقتها، ولا بما تخبئه من حكايا وقصص!

بالأمس مررت ببناء من تلك الأبنية، تواظب المعاول على هدمها.. وكأني بتلك المعاول لا تمحوا أثراً آية في الجمال والصنعة اليدوية - لن يتكرر - فحسب، بل تمحوا كذلك تاريخاً حافلاً للذين ضمّهم ذاك البناء أمداً طويلاً، وظلّلهم بأجنحته الرحيبة .

واليوم.. إذا بي أصادف في طريقي عمارة تقارب الثمانين من عمرها، لطالما نظرتُ إليها بإعجاب بالغ كلما مررت بها، متمنّياً أن تلقى شيئاً من عناية أصحابها.. أراها اليوم والمطارق تعمل لتفنيَها، وأحد العمّال يُنزل ضربات قدّومه المتلاحقة - بجماع قوّته - على واحدة من حَجراتها المتراصّة في واجهتها الأمامية يريد أن يخلعها.. وهي صامدة تأبى الانصياع.. حتى تهالكت وهَوت أمام ناظريّ من الطابق الثالث إلى الأرض.. وإذا بدمعة ثخينة من عيني هوت معها .

حدثت نفسي لحظتها : إن كان الاستهتار بعراقة تلك التحف، التي لن يكررها الزمان، لا لشيء سوى المال، أما كان من الأجدى - أسوة ببعض مثيلاتها - أن تشملها يد الرعاية فتزيل ما تراكم على جدرانها عبر السنين من طبقات الغبار ، وتعمل على ترميم ما نالها من تشويه بمرور الزمن، فتستعيد حلتها ورونقها كما كانت في أول عهدها ..؟! أما كانت ستُغدق على أصحابها، غير الآبهين بتاريخها وجمالها، الربح المرجو من استبدالها ؟! أم إن الربح حينها لن يكون وافياً لإشباع سلطان المال الطاغي على النفوس الجشعة ؟!

وهناك أبنية من تلك التحف، مازالت قائمة على أساساتها، مشوّهة، مسربلة بالأوساخ، تبعث على الحسرة في نفس الناظر.. ولا من جهة مسؤولة - ويا للأسف الشديد - قادرة على إجبار مالكيها القيام بترميمها وإعادة رونقها.. كما أنها غير قادرة ، على أن تضطلع هي بذلك في حال كانت الملكية تعود للدولة !!!

وكم يحزّ بالنفس.. أن بعضاً من تلك الأبنية التحف يُهدم.. وتُسوّر أرضها لتبقى لسنين طويلة دون إقامة أي بديل عليها !!!

مهما يكن من مسوِّغ أو عذر لذاك الهدم والطمس واللامبالاة، فإنه لا يمكن أن يكون مقبولاً البتّة لذوي النفوس السليمة .

الشجَرة الظليلة ..

في المكان الذي أستقلّ منه الحافلة كل يوم للذهاب إلى عملي، تقيم شجرة عبلة ذات ظلال وارفة .. لها جِذع ضخم أجوف، يكاد يتسع لطفل. وللجذع كوّة صغيرة واطئة، يمكن للمرء من خلالها مدّ ذراعه إلى جوفها المنفتح في أعلاه نحو السماء. وعند مستوىً ليس ببعيد عن الأرض، تتفرع أغصانها، يتشابك صغيرها بكبيرها في عناق دائم. لكم أنا سعيد، كما هم الآخرون، بهذه الشجرة الظليلة.. كأنها أم تحنو على كل من يفيء إليها ليحتمي من أشعة الشمس اللاهبة، تحت أوراقها الخضر الدّغِلة .

لكَم فجعتُ اليوم وأنا أنظر إليها تئنّ من نار تعسعس في أعلى جذعها، وقد نالت من أحد أغصانها الكبيرة، فالتوى هالكاً بأوراقه الخضر نحو الأرض، متشبثاً بأمه ببقيّة من لِحاء رقيق على وشك أن ينقطع .
كان يوماً حزيناً لنا جميعاً .. نحن الذين نستظل هذه الشجرة كل يوم، ونسعد بمرآها مزدانة بخضرتها الزاهية. الكوّة الصغيرة التي يمكن للمرء من خلالها أن يطلّ على جوف ساقها، باتت مكسوّة بالسخام، ورماد الغصن الهالك متناثر على الأرض حول ساقها، لكن الدخان المتزايل الذي كان لمّا يزل يتصاعد من أعلاها، كان مبشّراً بزوال النار الأكول التي كانت في بطنها.
وبالرغم من أن الشجرة كانت لاتزال واقفة بحلّتها الخضراء، دون أن تتمكن ألسنة اللهب الإتيان سوى على غصن واحد من أغصانها العديدة، إلا أن هذا الغصن يمثّل لنا، نحن الذين نستظلها، واحداً من أبنائها.. فكيف لا نحزن.. !
أصلح الله اليد العابثة، إن كان صاحبها لمّا يزل يافعاً جاهلاً، وسلّط عليه - إن كان راشداً - الشمس يتلظى تحت لهيبها في مكان قفر يلوب فيه على شجرة يحتمي بظلها فلا يجدها، لعله يدرك سوء ما اقترفت يداه.

بُعَيد أيام من الحادثة، انفتحت ثلمة عريضة امتدّت ما بين الكوّة وأسفل ساق الشجرة المنكوبة، لتكشف عن نفايات كانت مكدّسة في جوفها بفعل أيادٍ كانت قد رمتها فيها - على مرّ السنين - من خلال تلك الكوة الصغيرة .
وما هي إلا أيام، وإذا بالمشرفين على تنسيق معالم المدينة، يجتثّون الشجرة حيّة، دون مراعاة لسنِيّ عطائها الطويلة..!! أما كان يجدر بهم تنظيف جوفها ورعايتها، سيّما وأنها كانت واعدة بدوام خضرتها.. رغم ما حلّ بها..!!
مازالت بقيّة من جذعها المتشبث بالأرض، باقية.. كلّما نظرت إليها، وأنا أنتظر قدوم الحافلة، غمرتني حسرة شديدة .

* * * *

أبـو هشـام ..

كان ومازال من المألوف في مدينة حلب، أن يواظب كثيرون من المسنّين من أبنائها ، بعد تقاعدهم عن العمل، على ارتياد حديقتها العامة، يُمضون فيها سويعات من النهار، يتجاذبون خلالها أطراف الحديث وهم ينعمون بجوها اللطيف .

في أحد أيام عام ١٩٦٣، ثلاثة أصدقاء من أولئك، كانوا جالسين جنباً إلى جنب على مقعد من مقاعد الحديقة، وإذا بأحدهم يقول لصاحبيه :

" انظرا إلى تلك الأم وأبنائها.. يا أخي الأجانب غير شكل..! " فيوافقه أحدهما :
" إي والله.." وإذا بالآخر يقول لهما :
" سأقوم إليها لأنقل لها إعجابنا بها.." فيقول له أحد صاحبيه :
" مِن أين أتتك هذه الجرأة التي لم نعهدها فيك مع النساء يا أبا هشام،
وأنت مدير مدرسة وقور؟! فيجيب :
" أتتني بعد التقاعد.. الآن ترون .. "

يسير أبو هشام إلى الأم وأبنائها، يحيّيها مصافحاً وهو يشير نحو صاحبيه.. وإذا بها تَرُدّ التحية بأحسن منها مع ابتسامة عريضة، ويتحاوران لدقائق بمودّة تبديها تعابير وجهيهما.. والصاحبان ينظران - مستغربين الأمر دَهِشين - عن بعد لا يتيح لهما سماع ما يدور من حوار .
يودّع أبو هشام الأم ماسحاً بيده على رؤوس أبنائها، ويعود إلى صديقيه ليقول :
" نقلتُ لها إعجابنا بما رأيناه فيها من صورة للأم المثالية، وقد فوجئتُ بإتقانها العربية "
وإذا بأحد الصديقين ينبري قائلاً :
" دِه حاجتك بقا طلاع من هالبواب.. لابد أنها من معارفكم العائلية ". فيقول أبو هشام :
" أم هشام خالة زوجها " .

الأم.. والدتي، والأبناء.. أنا وشقيقاي .

* * * *

كانت صُدفة ..

في أحد الأيام، تعطّل لديّ جهاز استقبال القنوات الفضائية، فما كان لي من خيار سوى متابعة إحدى القناتين الأرضيتين، فوجدتُني أمام بداية حلقة من حلقات برنامج (ابن البلد) ضيفتها الدكتورة ريم هلال..كفيفة البصر.. لم أسمع عنها من قبل .
تابعتُ الحلقة مأخوذاً معجباً. وإذ ذكرَت الضيفة، في أثناء حديثها، أن لها كتاباً بعنوان (البصر والبصيرة) يحكي سيرتها الذاتية، طفقت في اليوم التالي أبحث عنه في محال بيع الكتب إلى أن عثرت على نسخة .

أبتْ دموعي إلا أن تسيل - وأنا أنتقل من صفحة إلى صفحة - حتى فرغت من قراءة الكتاب، وذلك لِما كابدته، هذه الإنسانة الرقيقة، من معاناة وصبر، إلى أن كلّلت مسيرتها بالوصول لما صبَتْ إليه. وممّا زاد من إعجابي بها، وتقديري لها، ما شفّتْ عنه سيرتُها من نفس طيّبة نقيّة، وفكر نَيِّر، وبصيرة وقّادة، وحِسّ إنسانيّ مرهف .
أفلح سعيي يومها، في الحصول على رقم هاتفها. عرّفتها بنفسي، وأعلمتها برغبتي في إرسال أسطر تحمل إليها انطباعي عن كتاب سيرتها.. وإذا بصوتها الناعم العذب ينسُم في سمعي، مُرحِّباً بتلقي أسطري .

من خلال تبادلنا بضع رسائل عبر الفاكس، إذا بصداقة، يندُر مثيلاتها في هذا الزمن، قد نشأت بيننا - صداقةٍ صادقة.. صداقةٍ عَلَونا بها إلى عالم الحب السامي.. حبٍ مازالت شعلته متّقِدة منذ اثني عشر عاماً، بين الشهباء، وعروس الساحل .

لقد كانت صُدفةً في عمري، ولا أطيبَ منها صُدفة..

وها هي الأسطر الأولى التي أفضيتُ إليها :

ريم.. الإنسانة ..

شاهدتُك وسمعتك في (ابن البلد)، وعرفتك من خلال (البصر والبصيرة) فأحسست أنك واحدة من قلائل جديرين بلقب إنسان، ولا أشكُّ في أن هذا اللقب لَهُوَ أجلّ لديك وأسمى من لقب دكتورة .

بينما كنت أشاهدك وأسمعك، لفتني منك حديثٌ رصينٌ أخّاذ، وصوتٌ رقيقٌ عذب، ينمّان عن رهافة ونقاء.. أمّا فيما كنت أقرأ (البصر والبصيرة) فلم تفارق الدموع عينيّ - وأنا أنتقل من سطر إلى آخر، ومن صفحة إلى صفحة - تأثراً من إفصاح راقٍ عن مشاعر صادقة بالعرفان اللامتناهي بالجميل لأولئك الذين كانوا أخياراً طيّبين معك، ولوالديك اللذين عانيا الكثير من أجلك، فكنت

الفرحة الكبرى لهما. لقد كنتِ بعرفانك لهما، ابنةً بارّة.. حفظتْ جميلهما في مقلتيها.. وكانا نور قلبها وعقلها وعينيها .

كم أبكتني رسالة السيدة خديجة حكيم ..
وكم أبكيتِني وأنتِ تضيئين سطور مَن غدا مصطفاك، بذاك البَوْح الراقي ..
وكم تأثرتُ وأعجبت بما ختمتِ به سيرتك.. ما أجملها خاتمة ..
وما أجملك بإنسانيتك الثرّة وبصيرتك المتوهجة ..

بكل المحبة والتقدير والاحترام .. أنحني لك .
صادق السباعي

حلب ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٣ .

وضمّت الرسالة رأيي في تناول الكاتبة لناحية من نواحي سيرتها .

في الطبعة الإلكترونية عام ٢٠١٥ لكتاب (البصر والبصيرة) أبدلتْ الكاتبة فصلاً كان قد ورد في الطبعة الأولى الورقية، على الرغم من إلحاحي عليها حينها، طالباً منها أن لا تقوم بإبداله – ذاك الفصل الذي أحببته جداً، والذي زاد من إعجابي بها – إلا أنها أصرّت على إبداله بما يلي :

((قارئي .. أَمَا وقد قاربتْ سيرتي على نهايتها، لا شك أنكَ وصلتَ إلى الذروة في تساؤلك : " وماذا عن الحب لدى ريم ؟! "
وهنا سرعان ما أجيب : إنني حَيِيتُه حقاً، حَيِيتُه حتى الأعماق، لأن الحياة إذا ما حكمت عليَّ بالتجابه معها عبر تلك السنوات، فإنها لم تنسَ بالمقابل أنني واحدة من البشر، أمتلك من الأحاسيس والمشاعر ما يكفي لكي أكون مُحِبَّة وحبيبة. إنني حَيِيتُ الحب في أكثر من حكاية، لكن ما إن كانت كل واحدة تتوهّج بأملي حتى تأخذ بالانطفاء والأفول رماداً في بحار العدم، وكأنها لم تكن يوماً .

أما بشأن حكايتي الأخيرة التي أعيشها منذ سنوات، والتي بدأت عام ٢٠٠٣، فإن الله اصطفى لي إنساناً حدَّثَني حدسي منذ اللحظة الأولى، بأنه سيكون بجانبي ما حَيِيتُ، إنساناً عرفني مصادفةً وهو يشاهدني عبر برنامج متلفز، كُرِّمتُ من خلاله، وازداد معرفةً بي بعد أن قرأ الطبعة الورقية الأولى من كتاب سيرتي هذا، فسعى إلى الاتصال بي هاتفياً من مدينة غير مدينتي، فكان ذلك فاتحةً لصداقة حميمة نَمتْ فيما بيننا بالمهاتفة حيناً، والتراسل أحياناً.. شعراً ونثراً، حتى أضحت واحة خضراء ألوذ بها من رمضاء حياتي .

وفي يوم، وقد مضى على صداقتنا ما يقارب العام، أدلى إليَّ عبر الهاتف بما كان يضمره لي من رغبة في أن يلتئم شملنا بالارتباط . حاصرتني فرحتي، ولُذتُ بالصمت لبرهة لا أدري ما أقول،

وأخبرتُه أنها لحظةٌ لن تُمحى من ذاكرتي، سأضمُّها إلى أسعد لحظات حياتي. حلّقتُ بالبهجة عبر السويعة التي استغرقها تحاورنا، إلى أن رأيتُ نفسي وإياه، ومنذ الخطوة الأولى، مكبَّلين بكل ما يمكن أن يعوق تقدّمنا نحو ما نصبو إليه .

والآن.. وبعد مرور هذا العمر على حكايتنا، وتخطّينا الواحدة تلو الأخرى من الصعاب والعراقيل بما لا يمكن تصوّره من الغزارة والألوان والتفاصيل.. ارتأينا أن نسلّم نفسينا للقدَر الذي ربما لم يشأ أن يجمعنا في بيتنا الوردي الجميل، فنقتصرَ في أمرنا على أن نبقى زوجين روحيَّين حبيبَين، ونؤجل تحقيق أحلامنا الذهبية إلى جِنان الخلود التي ستكون بمشيئة الله أكثر رأفةً بنا، فتضمُّنا عصفورين غَرِدَين، أوغُصنَين متعانقَينِ أبداً في خميلةٍ من نور)) .

الحَرَكة الثالثة من هذا الكتاب [رسائلي إليها ورسائلها إليّ] تضمّ معظم رسائلنا بدءاً من رسالتي الأولى بتاريخ ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٣ حتى آخر رسالة عبر الفاكس بتاريخ ٢٠ / ١ / ٢٠١٠، ليستمر بعدئذٍ تواصلنا عبر هاتفينا المحمولين .

ريم ووالدتها بُعَيد مناقشة رسالة الدكتوراه
١٩٩٨

آباء وأبنـاء .. (١)

كثيراً ما يمانع الآباء اقتران أحد أبنائهم بالشريك الذي اختاره ليكون زوجاً له، بحجة أن اختياره نابع عن العاطفة دون العقل، أو غير مراعٍ للأعراف الاجتماعية.. وذلك بحجة أنهم ذوو تجارب حياتية تجعلهم يتنبأون بمستقبل ذاك الاقتران.. فينغّصون أيامهم وأيام أبنائهم، وقد يفضي ذلك بالأبناء إلى حالة من الإحباط واليأس، أو إلى زواج الأبناء – المغضوب عليهم – بعيداً عن الأهل، وتخبّطهم في معترك حياة لا يرحم إذا ما كانوا شبّانا في مقتبل العمر، وإلى مقاطعةٍ أو جفاء، لا جدوى منه لأي من الطرفين .

لا أحد ينكر حق الآباء في إبداء وجهات نظرهم، وإسداء النصح لأبنائهم، وتبيان ما يمكن أن يواجههم في المستقبل.. بل إن ذلك من واجبهم.. لكن ليس من حق الآباء مصادرة عواطف وأحاسيس أبنائهم الساعين إلى الزواج، في حال هم ليسوا موقنين من أن ذاك الزواج سيؤول إلى الفشل..

يا له من إجحاف بحق الأبناء، رفضُ الآباء زواج أحد أبنائهم بشريك اختاره، مراعاةً لأعراف اجتماعية فارغة، وإجبارهم على التماشي معها.. فإن ذلك لن يقدم للأبناء شيئاً سوى الألم والإحباط . من الغريب أن يحسب الأهل حساباً لتلك الأعراف غير آبهين بمشاعر وأحاسيس أبنائهم ! يا لها من أنانية وسلطوية في الآباء تدفعهم إلى إجبار أبنائهم على اتباع رغباتهم، أو مراعاة أعراف تنافي المنطق السليم، أو الدين القويم، على حساب قلبين متآلفين !

أيّ حكمة في موقف الآباء حين يقاطعون أبناءهم، أويحرمونهم من إرث، بسبب زواجهم غير المرحب به ! هل معاقبة الآباء لأبنائهم على ذاك النحو، سيوفر للأبناء السعادة المرجوة، ويترك أثراً طيباً في نفوسهم ؟! وفي حال جارت الأيام على الزوجين الفتيّين، كيف لذاك أن يثلج صدور الآباء بدل أن يسارعوا إلى العون إن كان في مقدورهم !

لِنُبدِ النصح لأبنائنا، لعلهم أن يقتنعوا بما نراه فيأخذوا به، ولندع القرار النهائي لهم فيما يخصّ مستقبلهم، إذ إنه ما من نفس تتقبل القسر أو الإكراه.. ولنتذكر أنفسنا يوم كنا في أعمارهم.. فالحياة خير مدرسة لهم، إمّا أن يتجنبوا الوقوع ثانية فيما قد يقعون فيه، وإما أن يتحملوا عواقب ما أوصلوا أنفسهم إليه. وفي كلتا الحالين علينا الوقوف إلى جانبهم قدر المستطاع، لعلنا بذلك أن نخفف من مصابهم، بدل التشفّي أو اللامبالاة.. فندرأ عنهم مزيداً من التخبط أو الضياع .

* * * *

آباء وأبناء .. (٢)

ليس أضرّ على أحاسيس ومشاعر الأبناء - ولاسيّما إن كانوا أطفالاً - من المشادات والمشاحنات الكلامية، تلك التي تتكرر بين الأزواج في حضرة أبنائهم. فهلّا حرصتما أيها الأب وأيتها الأم على سلامة نفوسهم النقية وقلوبهم الغضّة، ودرأتما عنها - بضبط النفس - أذى الابتئاس والانكسار، ولاسيما في أثناء تواجدهم في حضرتكما، هذا إن ليس بمقدوركما نسيان خلافاتكما من أجل عيونهم ..

وإذا كان لابدّ من انفصالكما، وحتّمت الأحوال إقامتهم مع أحدكما، فليترك لهم حرية التنقل بينكما رأفة بمشاعرهم، إذ ما أسوأ أن يناكف أحدكما الآخر، ضارباً بمشاعرهم عرض الحائط، فيقسرهم على ألّا يتاواصلوا مع أحدكما، متى شاءوا وكيفما أحبّوا.. ألا تكفيهم نكبة انفصالكما ، ليأتي أحدكما، فيزيد من شدّتها ؟!!

****

نُكوص الحبيب ..

إن شعلة الحب المتأجّجة في نفس كلا الحبيبين الصادقين في مشاعرهما، تدفعهما مع بدايات العلاقة، إلى الإحساس باستحالة الاستغناء عن بعضهما، وبالرغبة الجامحة في تتويج حبهما بالزواج، فيتعاهدان مستهينين بأي عائق قد يواجهانه .
ومع مرور الأيام واستمرار التواصل قبل الزواج، تخبو تلك الشعلة المتقدة الأخاذة التي أحسّاها في البدايات، فتجنح العلاقة إلى الرتابة.. ويحدث أحياناً أن ينكص أحد الحبيبين بوعده بالزواج . فيكون ذلك أمراً مستنكراً من الآخرين، ناعِتين الناكص بأسوأ الصفات .
لكن.. إن توخَينا الموضوعية في الحكم، لربما عذرناه أو عذرناها، وقد قيل " لا تسألوا الإنسان اسألوا الظروف ". فأمر الزواج أمر مصيري في حياة الإنسان ليس من الحكمة الاستهانة به.
ففي بعض الحالات.. يشاء القدر أن يلتقي أحد الحبيبين بإنسان يراه أكثر مناسبة لحاله من الحبيب، لبناء حياته الزوجية على أسس متينة، فينكص بوعده مرغماً وهو يشعر بالحزن والخجل لأنه أخطأ في حق الحبيب وتسبب في جرح مشاعره.. لكن ما باليد حيلة فهو أو هي أمام تحديد مصير . فعلى الطرف الآخر أن يتفهم الأسباب التي أدت إلى النكوص بالعهد، رغم صعوبة الأمر، وأن يتمنى لحبيبه التوفيق فيما هو مقدم عليه . وبذا يكون قد تفوّق على ذاته، وبرهن على صدق حبه.

أما بعد الخطوبة، ولاسيّما بعد عقد القران.. فلا عذر لأحدهما للنكوص بعهد الزواج المقدس - عهد الوفاء والإخلاص - إلا في حال إساءة أحدهما للآخر على نحو متكرر غير محمول .

ولكل حبيبين غير آبهين بشيء سوى الوفاء لحبهما وتكليله برباط الزوجية، فإني أحيّي شجاعتهما واحترامهما للوعد الذي قطعاه على نفسيهما، وأرجو لهما التوفيق ودوام السعادة .

****

جَدّي إلى أين ..

تألمتُ وحزنت جداً لمعاناة الزوجة لميس في رواية (جَدّي إلى أين) للكاتبة منى تاجو، تلك المعاناة التي تنسحب على كثيرات من نساء المشرق العربي .
إن قارئ القصة ممّن هم بعقلية الزوج حكمت، لابد أن يتألم ويحزن أيضاً لما آلت إليه حال الزوجة لميس، لكن سلوكه في الواقع، إن كان زوجاً، ربما يماثل سلوك الزوج حكمت، أو يفوقه سوءاً. فالأقوال كثيراً ما لا تتوافق مع الأفعال ! وإذ انتهيت من قراءة الرواية رأيتني منساقاً لأقول :

فترة الخطوبة في عُرف الشرقيين المحافظين، يجب ألا تطول، ويتحتم على كِلا الخطيبين أن يكتشفا، في فترة قصيرة، ما إذا كانت طباع الشريك المنتظر تناسب طباعه وعقليته، وفي غالب الأحيان - بحكم العرف - لا يجوز أن يجتمعا معاً دون وجود أحد من ذوي الخطيبة . وفي حال كهذه، لا يتسنى لكل منهما التعرف جيداً على طباع الآخر والتيقن من عقليته، سيّما وأن كُلاً منهما يريد أن يظهر أمام الآخر على أحسن وجه، تصرفاً وادعاءً.. إلى أن يتم الزواج.. فيذوب الثلج ليبين المرج .

مهما طالت فترة الخطوبة فلن تُمكّن الخطيبين من فهم بعضهما بعضاً إلا بعد أن يصبحا زوجين تحت سقف واحد. وما أشبه الأمر بالبطّيخة بعد قطعها، فتكون إما حمراء أو بيضاء أو بين بين . فالرجال بعقلية وتصرفات الزوج حكمت، كانوا ومازالوا وسيبقون. فالأمر متعلق بالبيئة المحيطة، والتربية الأسريّة، وثقافة المرء، وتكوينه النفسي. فعلى الشبّان، بعقلية وطباع الزوج حكمت أن يعوا أن الكثيرات، منذ زمن بعيد، قد تعلّمن وتثقفن، ولم يعُدن يتقبلن سلطة الرجل غير القابلة للنقاش.. إذن، عليهم أن يبحثوا عن شريكات يتقبّلن العقلية الذكورية، فهنّ مازلن متواجدات، لا أن يُمثّلوا دور الإنسان المتحضّر المتفهّم لواقع العصر، من أجل أن يوقعوا من يرغبون بهنّ في شِراكهم، ليتباهوا في محيطهم الأسري وبين معارفهم بأنهم تزوجوا إنسانة متعلمة مثقفة متحضّرة.

وبالمقابل على الزوجة مهما علت درجة تعلّمها وثقافتها، أن تتفهم أنها تعيش في مجتمع له أعرافه المتجذرة فيه، فلا تغالي في التعامل مع زوجها نداً لند .

لقد أحسن (د. جون غراي) في كتابه (الرجال من المريخ.. النساء من الزهرة) تبيان طبيعة التكوين النفسي لكل من الرجل والمرأة، وبالتالي كيف على كل منهما التعامل مع الجنس الآخر، من أجل علاقة حسنة مريحة وطيّبة .

****

أم نضال ..

وأنا مُكِبّ على حاسوبي في مكان عملي، كانت تدخل عليّ حاملة قهوتي الصباحية بوجه مشرق، مصبّحة.. وعلى ثغرها ابتسامة حلوة، ثم ترفع الفنجان من على الصينية لتضعه إلى جانبي على المنضدة. خلال هذي الثواني المعدودة، كان لابد من أن ألتفت عن الحاسوب شاكراً، مواكباً حركة يدها وهي تحطّ الفنجان على المنضدة، لتعود من ثم إلى عملها اليومي في المحافظة على المكتب - بغرفه الواسعة العديدة - دائماً نظيفاً مرتباً، وتلبية ما قد يطلبه منها زملاء العمل بين فينة وأخرى من فنجان قهوة أو شاي...

لا أدري إن كانت تلحظ عادةَ التفاتي عن الحاسوب إلى يدها وهي تُنزل الفنجان، على مكتبي، كلما أتتني به بعد دقائق من وصولي صباحاً، وعند الواحدة ظهراً. أتُراه التفاتي كان يصدر عن إعجابي بتلك اليد البيضاء الملساء الرقيقة، بأناملها الطويلة الرشيقة وأظافرها النظيفة الجميلة دونما طلاء، أم تقديراً وإكباراً لدأبها على عملها المرهق، وإنجازه بإتقان على أكمل وجه، دونما تشكٍ أو تذمر، بالرغم من حالتها الصحية الواهنة؟
إنه الإعجاب والتقدير معاً لتلك اليد.. فصاحبته أمٌّ لثلاثة أطفال، أصرّت - بعد سنوات من زواجها - أن تؤازر زوجها في القيام بمتطلبات الحياة، وهي التي ليس لها سابق عهد بالعمل.

لم يطل بقاء أم نضال معنا، فقد غادرتنا لأن زوجها، كما قالت، أصرّ على تركها العمل، لكن أم نضال كانت مصرّة على ألا تغادرنا إلا بعد أن تأتينا ببديلة عنها، وقد فعلت.
سلامي إليك يا أم نضال.. أينما كنتِ .

* * * *

صورتان ..

القيّمة على شؤون المكتب الذي أعمل فيه، امرأة تجاوزت منتصف العمر، تكدّ من أجل لقمة العيش. لها ابنة أخ في السابعة أو الثامنة من عمرها، رقيقة العود، نائية عن أمها بسبب طلاق والديها، تأتي بها عمّتها إلى المكتب في بعض الأحايين، لتعاونها في أعمال التنظيف .

يا لوجه الطفلة الباش.. وابتسامتها الحاضرة، وهي تعمل بكل اندفاع وسرور ورضا. رأيتها اليوم غافية تفترش – أمام عمّتها – منشفة صغيرة مُدّت على الأرض !

تبادر إلى ذهني أولئك الأطفال اللاهون حول أمهاتهم، ثم الغافون ملء عيونهم على أسرّتهم الوثيرة بعد أن تعبوا من اللعب. صورتان من صور الحياة جديرتان بالمقارنة .

* * * *

حكى لي صديقي ..

في أثناء سيره - عائداً إلى بيته من عمله المسائي - لفت نظرَه في واجهة أحد المحال، قالبٌ من الحلوى على شكل قلب زُيّن أعلاه بالجلاتين الأحمر، وقد شُكّلت عليه بالكريما البيضاء عبارة (I Love You)، فتَذكّرَ صديقي أن اليومَ يومُ عيد الحب، فأحَبّ أن يفاجئ زوجته وأولاده في تلك الأمسية بجلب ذاك القالب إليهم .

دخل البيت، فرأى آنسة الدروس الخصوصية، جالسة مع أفراد أسرته يتسامرون، وقد أنهت إعطاء الدرس لابنته. ألقى عليهم تحية المساء، وهو يضع قالب الحلوى أمامهم على الطاولة، مُرحّبا بالآنسة، ومثْنيا على الجهد الذي تبذله في تدريس ابنته، إذ كان قد لمس الفائدة الكبيرة التي تجنيها ابنته بعون هذه الآنسة التي يعلم خلفيتها الاجتماعية ممّا حكته له زوجته قبل بدء الآنسة بالتردد على المنزل .

كانت الآنسة من أسرة محافظة، في العشرينات من عمرها، حاصلة على شهادة معهد إعداد المدرسين. تُعين والدها في الإنفاق على الأسرة من عملها في التدريس في مدرسة رسمية، وإعطاء الدروس الخصوصية، متنقلة من بيت إلى بيت، لتعود ليلاً منهكة إلى المنزل، فتشرف على حل الوظائف المدرسية لإخوتها الصغار. محتشمة في ملبسها وذات حجاب شرعي، وليست على شيء من الجمال، إلا جمال الأدب والخلق. ولتلك الأسباب مجتمعة، كان يراها جديرة بالتقدير والثناء. وفيما كان الحديث يدور في تلك الجلسة، أتت زوجته بفناجين الشاي والأطباق اللازمة لتناول الحلوى، فبادر هو بتقطيع القالب وتوزيع القطع لكلٍ في طبق..

بُعَيد تناولها ضيافتها، أبدت الآنسة شكرها وغادرت. لكن ما إن أغلقت الزوجة باب المنزل، حتى راحت تصبّ على زوجها كلماتها الاحتجاجية بلهجة عصبية غاضبة :

- هكذا إذن.. تقوم بتقطيع الحلوى لتقدمه إليها بيديك.. لا بد وأنك أعجبت بها..
- هوني عليك.. ما ذاك إلا من باب التقدير لجهودها مع ابنتنا..
- تقديم الضيافة من مهامّي.. ليست من مهامك..
- أحياناً أقدم الضيافة لضيوفنا بنفسي ولا تُبدين أي اعتراض، فلماذا اليوم ثارت ثائرتك ؟!!
- أولئك الضيوف من الأقرباء أو الأصدقاء، لكن هذه فتاة غريبة عنك، لا تربطك بها أية صلة.. لا تحاول التبرير.. لا شك في أنك أحببتها .
- شفاك الله يا امرأة .

في أيام تلت، لم تتوان الزوجة - إثر خلاف مع زوجها - في أن تشيع بين أهلها وصديقاتها، أن من سيئات زوجها، حبّه لمُدرّسة ابنته الخصوصية .

قلت لصديقي " لشدّ ما يعجبني في زوجتي، ثقتها اللامتناهية بي، وكم أقدّر لها يقينها الراسخ بأني جدير بثقتها.. فإن حدث وأطريت على إنسانة ما، قولاً أو فعلاً، فهي تعي تماماً أن إطرائي ليس إلا تعبيراً عن تقدير تستحقه " .

فأجابني " هنيئاً لك بزوجة تستثنيك من طبع لا تستثني منه النساء معظم الرجال ! "

****

إتقانُ العَمَل ..

لماذا لم نعد نرى عاملاً أو صانعاً في سورية يعمل بضمير حي في تنفيذ العمل الموكل إليه سواء في القطاع العام أو الخاص .. بل جلّ همه هو انجاز العمل بأسرع وقت كيفما اتفق ليقبض أجره وينصرف لعمل آخر دونما أدنى اهتمام بإتقان العمل الموكل إليه ..

فكم تتضح اللامبالاة بتوخي الإتقان، فيما نراه في تنفيذ أعمال توصيل شبكات الكهرباء، والصرف الصحي، والهاتف، وتعبيد الطرق، ورصف الأرصفة، وإكساء الأبنية وشتّى الأعمال الأخرى .

ولا يقتصر الأمر على العمال.. بل وعلى المهندسين المشرفين، لاسيما إن كانوا موظفين في المؤسسات العامة، وعلى مدرائها العامّين، ومن ثم الوزراء، الذين لا يعني معظمهم سوى قبض مرتباتهم والحفاظ على سياراتهم الموضوعة تحت تصرفهم، وما يرتعون فيه من امتيازات مناصبهم .

قِلّة المردود المادي أو تواضع الأجر، لا يبرر عدم توخي الإتقان في العمل، فصاحب الضمير الحي والذي يحترم ذاته، لا يرضى أن ينجز عملاً غير متقن حتى لو طُلب منه ذلك .

قال ﷺ : ((إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه))

* * * *

ريشةُ فنّانٍ مُبدع ..

البشر مغيّبون في لوحات يوسف عقيل، ذلك لأن روحه، فيما أرى ، تنشد الخلود والنقاء والجمال مُمَثّلِين بالنور واليمام والنبات .

وإذا ما كانت النقوش الجدارية، وواجهات البيوت وزواياها - التي تحاكي الطراز المعماري القديم - حاضرة في لوحاته على نحو لافت، فذلك لابدّ إحياءً وتقديراً منه لطراز معماري لن يكرره الزمان.. وحنيناً لزمن مضى.. اتّسم بالدفء والتلاحم بين أناسه .

تشكيل موضعات لوحاته، بألوان هادئة سديمية، موزعة بحرفيّةِ ريشةٍ مرهفة، لابدّ من أن يكون محطّ إعجاب كبير .

رسالة لم تصل ..

فيما كنت أقرأ، للمرة الثانية، كتاباً للأديب (د. بديع حَقّي) كنت قد قرأته للمرة الأولى منذ بضع سنين، عادت لتنتابني مجدّداً عاطفة غامرة نحو هذا الأديب الدمشقي، فإذا بي أمسك بالقلم وأكتب :

أديبي الأثير ..

أيّ عذوبة ساحرة في ألحان حروفك وأنغام بيانك يا بديع .. !
أيّ رهافة حباك الخالق حتى يغشى عينيّ دمع لا يكاد ينحسر حتى يفيض وأنا مبحر عبر خلجات نفسك.. أو محلّق مع ترانيم روحك..!

أيّ بديع أنت يا بديع ..!
كم أغالب نفسي لأواصل - دون توقف - قراءة نضيد كلماتك المنسابة جدولاً رقراقاً بين روابيك.. ولا من سبيل! إذ يحول دون ذلك عميق تأثري وهيَمان روحي برهيف إحساسك وسموّ مشاعرك..
ما أراك إلا صائغٌ صَناع.. بل ما أراك إلا عازفٌ فذّ، قوسك القلم وكمانك القرطاس .
إن يكُ قلمي لا يرقى إلى جمال بيانك.. إلا أني أرى روحك توأماً لروحي ..
ما أحوجنا إلى أدبك الرفيع ملاذاً لأرواحنا الظمأى للجمال في زمن الرداءة ..
ها أنت تفزع إلى (جمرة الحرف وخمرة النغم) فتآلف بينهما في كتاب.. لعلك تلقى الدفء والسلوى، ونلقاهما معك .

وفيما أنا محلّقٌ في علياء الأدب بما رُقْتَه، على الصفحات، من بيانك السامي.. انتابتني رغبة لحوح لسماع صوتك عبر الهاتف، فأسألك عن حالك، وأبثّك كلماتي تنقل إليك مالك في نفسي من فيض محبةٍ جيّاشة - محبةِ قارئٍ يجالسك دفآن منتشياً.. ينهل من أطايب نفسك وروائع عزفك وتصاويرك .. وإذا بالهاتف الذي كنت آمل أن يجمع صوتي بصوتك، يجمعني بصوت من يباغتني بنعيك.. غامداً الحسرة في قلبي.. مستلّاً دموعه تهمي من عينيّ.. فما رأيت من عزاء.. غير أن الله قد منّ عليك بأن أضحى تراب وطنك - كما كنت ترجو دائماً - مثواك الأخير .
أسأله تعالى السكينة لروحك في منفسح عليائه.. والسكنى لك في رحاب جنانه..
لعل الله - كما تمنيتَ في إحدى كتاباتك - قد استجاب لك بأن حلّت روحك في إهاب نحلة معطاء، وفسح لك فضاء جنته لتتنقل بين زهراتها الفوّاحة، فرِحاً، نشوان، بعد أن اتسق لك أن تُضْحي في حياتك، كما وصفت نفسك " أشبه بنحلة صغيرة معطاء، بين نحلات الأدب - نحلةً أزجت بعض شَهدها وأحالته قصائدَ وقصصاً وروايات " .

لم أكن عارفاً بالأديب (د. بديع حقّي) قبل انجذابي إليه خلال حوار أُجريَ معه في مجلة (العربي) منذ سنوات خلت، وإذ علمت خلال الحوار أنه قد ترجم أعمال الشاعر (رابندرانات طاغور)، إذا بذاكرتي تعود بي لمساءٍ كنت فيه، في مقتبل شبابي، أتابع حواراً مُتَلفَزاً معه، يُجريه الإعلامي (عادل اليازجي) في برنامجه (المجلة الثقافية)، فأذكر كم جذبني (البديع) حينها، بشخصه وحديثه. بعد قراءتي الحوار في مجلة العربي، رحت أبحث عن كتاب سيرته الذاتية (الشجرة التي غرستها أمّي) الذي زاد من تعلقي به لما لمست من إنسانيته.. وأسلوبه الفذ، فطفقت أبحث عن مؤلفاته. حصلتُ على معظمها، ومازلت أبحث عمّا تبقى .

من كتبه التي حظيت بقراءتها، ولمست رفعة أدبه فيها، عدا الكتابين اللذين ذكرتهما آنفاً : (حين يورِق الحجر) ، (قمم في الأدب العالمي) و (التراب الحزين) الذي نال جائزة الدولة للقصة عام ١٩٦١، وقُرّر للمدارس الثانوية السورية عام ١٩٦٧ .

لقدعُنِيَ هذا الأديب بأن تكون لكلماته وعباراته موسيقا تنسجم والمعنى.. صاغها بأسلوب يتّسم بالأناقة.. بإحساس غاية في الرهافة.. كما تميّز بنقل تفاصيل الحركة المرئية إلى نصٍ أدبيّ، بدِقّة وبراعة .

□ د. بديع حقي يصافح رئيس الجمهورية الهندي في حفل دعي إليه بمناسبة انعقاد مؤتمر العلاقات الدولية في نيودلهي عام ١٩٨٧.

مع سعيد عقل ..

كانت سهرة تلفازية ماتعة مع سعيد عقل، ولا شك في أنه شاعر كبير.. بَيْد أن ما فيه من غطرسة وخُيَلاء، يُبخس من قدر إنسانيته .
ما يدعو إلى الأسف، أنه على الرغم من معرفته الواسعة ، ورغم تجاوزه التسعين ، مازال لا يدرك أن تواضع الكبير يزيد من تقدير واحترام وحب الآخرين له .

أكبرتُ في المُحاور القدير سعة صدره، ودوام ابتسامه، أمام ضيف يجيبه باستعلاء.. مستخفّاً بأسئلته، غير ناظر إلى وجهه .

ومن خلال الحوار، تبيّن أن سعيد عقل لا يعجبه إلا ما يوحي العظمة والقوة والأنفة، ولا يُؤخذ إلا بالجمال الكلاسيكي الذي يَنشد الكمال، متعالياً على البساطة والعفوية رغم ما فيهما من جمال أيضاً. والغريب في عقل الذي يمجّد العلم ويدّعيه منهجاً لحياته، أن يبني حبه وتعلقه واهتمامه بالبلدان، في الزمن الحاضر، على أسس تاريخية موغلة في القدم، لمجرد أن أناسها البائدين قد قاموا في زمانهم بعمل مجيد، أو اعتنقوا فكراً، أو مقولة ما، أو أن تلك البلدان مازالت تضمّ نصباً ما تذكارياً .
لعقل أن يرى ما يرى، إلا أنه بما تقدم ذكره، أراه يدعو إلى الشفقة على الرغم من كونه شاعراً كبيراً .

وفي إجابة عن سؤال حول أدب جبران خليل جبران، انتقده لِما جاء في مطلع قصيدته (أعطنِ الناي وغنِ) آخذاً عليه أنه قد ساوى الله بالغناء، في قوله "فالغنا سِرّ الوجود". فعقل يعدّ أن سِرّ الوجود هو الله. بيد أن جبران - كما أرى - لم يقصد سوى أن الغناء يحاكي أرواحنا، ويروّح عنّا. وكأني بعقل المتديّن يريد ليّ ذراع جبران الذي كثيراً ما تطرّق إلى سلوك المنتفعين- باسم الدين - من الرهبان .
وكأني بعقل يغار من جبران !

****

من الشك إلى اليقين ..

أيام مراهقتي، وخلال شطرٍ من مطلع شبابي، كنت أشكّ في وجود الله، وكان شكّي مبنياً على أساس أن لكل سبب لابد من مسبِب، فإن كان لابد لهذا الكون - نظراً لاتساعه الهائل ونظامه الدقيق - من خالق مدَبّر، فلابد أن يكون هذا الخالق أعظم مما خلق، فلماذا على عقلي أن يقبل وجود ما هو أعظم من الكون من دون خالق له؟!

ربما لأكون في حِلٍّ من الالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية - وأنا في تلك المرحلة العمْريّة - كنت راضياً بذلك التفكير الذي لا ينافي، ظاهرياً، المنطق. وكنت أقول : إن كان الله موجوداً، فهو لن يحاسبني على عدم إيماني، وسيسامحني لأن ارتيابي حاصل جرّاء ما أوصلني إليه عقلي، ولأني ملتزم بالمبادئ الإنسانية النبيلة، ولا أسبّب أذيّة لأحد .

في فترة الشك تلك، استعرت من صديق، كتاب (قصة الإيمان بين الفلسفة والعقل والقرآن) للشيخ نديم الجسر، وما إن وصلت إلى صفحة منه قيل فيها إن الله واجب الوجود، حتى أغلقت الكتاب، وأعدته إلى صاحبه، وعددتُ ما فيه لن ينتشلني من شكّي، لأني لم أكن أتقبل فكرة (واجب الوجود) من دون خطوات استدلالية علمية، تبرهن على وجود الله خطوة بخطوة. لكن رغبة قوية دفينة كانت باقية في داخلي تحثّني على الوصول إلى الحقيقة .

في لحظة من اللحظات، وأنا في الثلاثينيّات من عمري، ودون سابق مقدّمات، تفكّرت في تكوين الجسد البشري ووظائف أعضائه المختلفة وطريقة عملها - ولم أبتعد في تفكّري أكثر - وإذا بي في لحظة، قد تحوّلت إلى مؤمن بوجود الله دون ذرّة من شك، وأدركت أن العقل البشري مهما بلغ من الذكاء والعلم، فقد حدّه الله بحدود ليس بمكنته أن يتخطّاها ليحظى بسر الوجود الإلهي. وإني أظن أن الله لم يبين للبشر كيفية وجوده، ذلك لأن العقل البشري لن يتمكن من فهم واستيعاب ما هو خارج نطاق حدوده. فأضحيت على يقين تام بأن الله واجب الوجود .
ولا ريب في أن رغبتي القوية الصادقة بالوصول إلى الحقيقة، هي التي أوصلتني إليها، وإلا لتركني الله سادراً في شكّي .

بعد سنوات من إيماني ويقيني ، لمحت بالصدفة، في إحدى المكتبات، كتاب (قصة الإيمان..) الذي أشرت إليه آنفاً، فاقتنيته، وكم استمتعت بقراءة ما حوى بين دفتيه - بأسلوب قصصي شائق وجميل - من براهين حسابية، واستدلالات تجريبية.. تبيّن محدودية تصوّر العقل البشري، وأن الله، حقاً، واجب الوجود .

****

رسالة لعلّها تصل ..

الأديب الأستاذ حسين عبد اللطيف كعكة المحترم ،

كم أمتعتني وأنا أنتقل من فصل إلى آخر من فصول كتابك القيّم (حَيّ المشارقة) إلى أن وصلت إلى آخر سطر من فصله الأخير (نظرة عشق) وعيناي مخضلّتان، تواكبان سطوره حتى آخر عبارة فيه : " نحن مشارقجيّون .. نحن مشارقجيّون "
لم يكن تأثري حزناً على زوال ذلك الحي الأشم فحسب، بل كان بقدْر أكبر، لتَمثّلي شدّة الألم.. وحرقة الحنين.. اللذين ألمّا بك وأنت تجوب، بعد خمسين سنة من الفراق، أطلال منبتك وملعب صباك، وموئلَ عنفوان شبابك.. مستذكراً ما كان يمور في تلك الأمكنة من تفاصيل حياتية حميمة وعزيزة على قلبك .
بروحك.. وخصالك.. وأدبك الجميل.. يا أبا عبد اللطيف، ما أراك إلّا كبيراً من أكابر حلب .

بعد أن سررت واستمتعت وأعجبت بروايتك (حيّ المشارقة)، لقد أمتعتَني ثانية، وأنا أواكب تنامي ذلك الحب الزوجي الكبير، من خلال روايتك (أنت حبيبتي) - الحبِّ الزوجي الحميم الدافئ.. الحبِّ الزوجي الذي مع مرور الأيام راح يزداد توهّجاً بدل أن يخبو.. الحبِّ الذي انتشل (حميداً) من فضاء التشاؤم والتبرّم من الحياة والقدَر.. إلى عالم التفاؤل وحبّ الحياة خلال مدة غربته مع الزوجة الحبيبة .

كم أعجبتُ بخصال (حميد).. الزوج الشاب المحب العاشق لزوجته، الصديق الصدوق لشريكة حياته، المُحب الوفيّ لأصدقائه.. أستاذِ اللغة العربية القدير والمحبوب من قِبَل طلابه الجزائريين، ومن قِبَل زملائه المدرّسين العرب والفرنسيين، وسائر المديرين والمفتشين في سلك التدريس .

وكم كان تأثري شديداً بالفرحة العارمة التي اكتنفت كيان (ضياء) الزوجة الفتيّة، لحظة تيقّنِها من حمْلها، وقد تبدد قلقها الذي لازمها سنة ونيفاً، مخافة عدم إنجاب أبناء لزوجها الحبيب (حميد) . أما تأثّري الكبير.. فقد اكتنفني لحظة وداع (حميد) لأرض الجزائر - تاركاً فيها أصدقاء كُثُراً خُلّصاً، عايشهم على مدى عشرة أعوام - عائداً لموطنه الحبيب سورية، ليؤدي خدمة العلم، ويكمل رحلة عمره، بين الأهل في مدينته حلب، مع حبيبته رفيقة دربه، حاملَين في قلبيهما ذكريات حميمة رائعة، لن ينسياها مدى العمر.

لك شديد إعجابي.. وخالص تقديري ..

****

ما أروعَها لحظة ..

في منافسة متلفزة لأصحاب المواهب المتميزة ، كباراً وصغاراً، أدّت طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، أغنية على نحو حظيَ بإعجاب لجنة التحكيم بالإجماع مصحوباً بتصفيق الحضور الحار.. ما يعني قبولها للمشاركة في الدور الثاني للمنافسة، فإذا بفرحة غامرة تتملكها. ركضت تريد مغادرة خشبة المسرح، لكنها لثوان - من شدة انفعالها - لم تهتدِ إلى المخرج.. ما إن اهتدت إليه حتى ركضت لا تلوي على شيء وألقت نفسها في أحضان أمها المنتظرة خلف الكواليس. حملتها الأم بين ذراعيها ضامّة إياها إلى صدرها، فيما طوقت الطفلة أمها بجماع ذراعيها وساقيها، وأجهشت بالبكاء ذارفة دموع الانفعال غزيرة تسيل على خديها الورديين.

ما أروعها لحظة.. ما أروع الأطفال.. وما أروع الكبار حين يتفهمون الصغار .

**

في حفل يقام سنوياً لتكريم الفنانين المبرّزين.. ما إن سمع اسمه يُعلَن فائزاً بجائزة أحسن أداء عن دوره في أحد ألأفلام حتى قفز الطفل عن مقعده معانقاً أمه الجالسة إلى جانبه، ثم شقّ طريقه بين الحضور راكضاً إلى خشبة المسرح لتسلُّم جائزته أمام جمهور عريض يضمّ سينمائيين، وموسيقيين، ومغنّين، وصحافيين، ومسؤولين حكوميين كباراً. صعد إلى خشبة، والفرحة تغمره، وانتظر حتى أنهى الحاضرون تصفيقهم الحاد، ثم وهو يُعبّرعن سعادته الغامرة، وعن شكره للجميع، لم يستطع أن يمنع نفسه عن البكاء.

كان بانتظاره على المسرح أحد مشاهير الممثلين، الذي استُدعي من بين الحضور خِصِّيصاً ليناول الطفل الفائز جائزته المتمثلة بتمثال مذهّب غاية في الجمال .
انحنى الممثل ذو التسعين عاماً، والتمثال الجائزة في يده، ليتلقف بين ذراعيه، الطفل الباكي، مهنئاً.

كان عناقاً مؤثراً- اخضلت له العيون - بين نفس ذاوية على وشك أن تأفل عن الحياة، وأخرى لَمّا تزل برعماً يتفتح للحياة.. كان عناقاً معبراً أجمل تعبير عن تبادل الأدوار بين البشر .

****

من الأفلام ..

من المشاهد السينمائية المؤثرة التي هزت مشاعري .. مشهد مازال ماثلاً في ذاكرتي لفيلم لم أعد أذكر عنوانه، يصور اضطرار فتىً الانفصال عن كلبه الذي عايشه أياماً عصيبة ملأى بالمخاطر الجسيمة، استمات فيها الكلب في الذود عن صاحبه في إحدى الغابات التي سكناها معاً في كوخ، قبل أن يحرقه أناس أشرار. كان على الفتى الرحيل للعيش في بلد بعيد، في أحوال تحول دون اصطحاب كلبه. ولَمّا كان من عادة الكلب أن يرافق صاحبه كظله، لم ير الفتى مناصاً من قسره على الابتعاد عنه إلا بنهره والصياح في وجهه بكل جدّية وعنف.. ورميه بما يقع تحت يده دون نيّة في إصابته. أما الكلب المصدوم بفعل صاحبه، فقد كان يلوب متفادياً قذائف صاحبه، متنقلاً في جميع الجهات.. واقفاً في كل ثانية سانحة ينظر إلى وجه صاحبه مذهولاً مستفسراً من موقفه المفاجئ الذي لا يجد له ما يبرره، وكأن لسان حاله يقول : ماذا دهاك يا صديقي.. أهذا جزاء الوفاء والإحسان ؟! وحين أيقن الكلب مدى جدّية صاحبه، لم ير بدّاً من الابتعاد راحلاً عنه.

صعد الفتى ظهر السفينة التي ستقله إلى مقصده، بَيْد أنه في تلك اللحظات عزف عن نيّة السفر إلى المجهول، مؤْثراً الرجوع للعيش في الغابة. عاد إلى كوخه المحروق يعمل على ترميمه، آخذاً لنفسه قسطاً من الراحة كلما أنهكه التعب، مستعيداً ذكرياته مع كلبه الوفي .

تمضي أيام.. وفيما هو مكبّ على ترميم كوخه، إذا بكلبه يرقبه من على تلّ يشرف على الكوخ عن بعد. ما إن تلتقي عيونهما حتى تفضي اللهفة المتأجّجة في كليهما إلى أن يندفعا يعدوان نحو بعضهما، ما إن صارا على مقربة من بعضهما حتى قذف الكلب بنفسه إلى صدر صاحبه، فينطرحان أرضاً يتدحرجان لصيقين سعيدين..
كان مشهداً رائعاً للقاء مؤثّر، استطاع المخرج تصويره بمصداقية شديدة !

ربما تنطبق لحظة اللقاء غير المتوقعة تلك على حال اثنين، في الواقع، ينتوي أحدهما العودة للعيش مع صديقه - بعد أن كانت الظروف قد قسرته على الرحيل - وذلك لحنين فيه، ووفاءٍ لصداقة ربطت بينهما من جراء أيام صعبة كابداها معاً. فإن كانت حالتهما لا تؤثّر فينا ونحن نسمع عنها في حديث عابر، كما تؤثر فينا ونحن نقرأ ها، أو نشاهدها فيلماً، فذلك لعدم معايشتنا لتفاصيل الصعاب،أو الهناءة التي جمعتهما، وما تخللها من حوارات، ولفتات معبّرة صيغت بلغة أدبية، أو صورت بمشاهد سينمائية متقنة ترفدها الموسيقى التصويرية المناسبة للحالة الشعورية. لكن ثمة أفلام مقتبسة عن روايات أدبية، تُبخس من قدر العمل الأدبي، فإن لم يكن ذلك بسبب ضعف السيناريو أوالإخراج، أو كليهما معاً، فبسبب ما للنص الأدبي من قدرة عالية على وصف خلجات النفس الإنسانية وهواجسها على نحو أدق وأشمل، ما يتيح للقارئ تخيّل الأمكنة

والشخوص كما يحلو له ويراه مناسباً.
إن الفيلم لن يُغْني الرواية أو القصة الأدبية، ويزيد من جمالها، إلا إن امتاز ببراعة السيناريو إلى جانب براعة الإخراج ، والسخاء المادّي في الإنتاج .

***

هناك مشهد مؤثر آخر من المشاهد الأخيرة لفيلم أمريكي. تمثيل وإخراج الشهير (كلينت إيستوود Clint Eastwood) والممثلة القديرة (ميريل ستريب Meryl Streep) بعنوان : (جسور مقاطعة ماديسون The Bridges of Madison County) المقتبس عن رواية للكاتب الأميركي (روبرت جيمس وولر Robert James Waller) ذلك المشهد الذي يكثّف ويجلو الصراع الداخلي العنيف لزوجة مُحبّة لزوجها وولديها - ابن وابنة في مقتبل العمر- هامت بحب رجل عابر للمنطقة الريفية التي تسكنها ، وهو في مهمة لتصوير بعض المعالم الطبيعية هناك ، لصالح مجلة (ناشيونال جيوغرافيك National Geographic) .
نشأ ذلك الحب، في غضون أربعة أيام من غياب الزوج مع الابن والابنة عن منزلهم الواقع في إحدى المقاطعات الأمريكية .

في أثناء عبوره المقاطعة بسيارته الزراعية، توقف الرجل إذ رآها أمام منزلها، ليسأل ما إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح نحو جِسر (روزمان) . حاولتْ أن تُرشده على وجه الدّقة نحو المكان الذي لا يبعد كثيراً عن منزلها، لكنْ ضماناً لوصوله دون أن يضلّ الطريق، أبدت استعدادها لمرافقته إن أحب، فقبل ذلك شاكراً. وفيما كان يلتقط بعض الصور للجسر وبعض النباتات المحيطة به، كانت هي ترقبه عن بُعد من على الجسر ريثما ينهي مهمته. في طريق العودة، أبدت رغبتها في استضافته في منزلها الزوجي، إذ إن زوجها وولديها سافروا للمشاركة في مسابقة ستدوم أربعة أيام. تعرّف كل منهما خلال هذه الأيام على ماضي وحاضر الآخر، واستشف ما تنطوي عليه سريرته، وشعرا خلالها بحب حقيقي قد احتل قلبيهما – حبٍ وصفَه لها بأنه " الحب اليقين الذي لا يتأتّى للمرء إلا مرة واحدة في حياته، أو لا يتأتى العمر كله " فلمَ لا يتشبّثان به، ويرحلان معاً يتنقلان بين البلدان بحكم طبيعة عمله..
بعد مناقشتهما فكرة تخلّي الزوجة عن زوجها وولديها، للعيش مع من هامت روحها بروحه، وروحه بروحها، تستقر المرأة على قرار عدم التخلّي عن أسرتها، مضحّية بحبها في سبيل الواجب، فيوّدع كل منهما الآخر والحسرة تعتصر قلبه .

يؤوب الزوج الغائب وولديه، فتستقبلُهم الزوجة على عادتها ببَشاشة ومَحبّة. وبعد أيام قليلة ، تدعو الحاجة لأن يترافق الزوجان لشراء بعض الحاجات الضرورية للأسرة. يستقلان سيارتهما الزراعية قاصِدَيْن السوق وسط المقاطعة. فيما كانت الزوجة تنتظر زوجها في السيارة، ريثما يبتاع بعض الحوائج من أحد المتاجر، والمطر يهمي غزيراً، نشاهد الحبيب قد لمح من بعيد سيارة حبيبته متوقفة، لحظة توجهه نحو سيارته، فيتقدم قليلاً ليستجلي ما إذا كانت هي ذاتها.. ما

إن تأكّد أنها هي والحبيبة داخلها حتى جمد في مكانه تحت وابل المطر ناظراً إليها. أما هي، فتنحني نحو نافذة السيارة إلى جانب المقود، وتنظر إليه متسائلة أيكون حبيبها ذاك الذي يقف وسط الطريق مسربلاً بالمطر وبعضٌ من خصلات شعره تكاد تغطي عينيه..! تجمد منحنية تواصل النظر إليه وقد عرفته.. إلى أن تستقيم في جلستها مجفلة وقد انفتح باب السيارة بغتة ليصعد الزوج عائداً .

عند شارة مرور ضوئية، يتصادف أن تتوقف سيارة الزوج خلف سيارة الحبيب. ينتبه الحبيب إلى ذلك فيُخرج سلسلة كانت قد أهدتها الحبيبة إليه لتكون ذكرى له منها - صليبٌ حُفِرَ عليه اسمها - ويعلّقها على حمّالة المرآة أمامه، والحبيبة ترقب ما يقوم به، من خلال زجاج السيارتين، بتركيز شديد. في تلك اللحظة، يحتدم الصراع الداخلي في أعماقها على أشده.. أتهرع إليه قبل أن تأذن شارة المرور بالعبور، أم تلبّي نداء الواجب.. ها هي يدها تمسك بمقبض باب السيارة مراعية ألا تلفت انتباه زوجها.. تدير المقبض بحذر وبطء شديدين.. لم يبق عليها سوى أن تقوم بضغطة يسيرة لينفتح الباب وتقفز لتستقر في سيارة الحبيب فينطلقا معاً.. لكن وازع الضمير، في الثواني الأخيرة، يكبّل يدها، مانعاً إياها من الاستسلام لفكرة شيطانية ألمّت بها، فتعيد مقبض الباب رويداً رويداً إلى ما كان عليه، والدموع تنهمرعلى وجنتيها من شدّة ما عانت في ثوان من صراع أنهك أعصابها أيّما إنهاك، ولتيقّنها من أنها فقدت حباً حقيقياً إلى الأبد .
يلحظ الزوج حالها.. يستفسر عن سبب دموعها، فتتذرع بضيق نفسي، مبهم الأسباب، ألمّ بها فجأة .
تؤذِن الشارة الخضراء بالعبور، ويغيب الحبيب بسيارته داخل الضباب .
كان مشهداً مؤثّراً جداً ضمن جو شتائيّ ماطر.. مشهداً يُدمع العيون .

تعود الزوجة إلى سابق عهدها، فتهتم بزوجها وولديها على أحسن وجه ، ولاسيّما حين يمرض الزوج ولا يقوى على مغادرة الفراش لمدة طويلة، ويعتذر لها خلال مرضه عن عدم تمكّنه توفير حياة سعيدة لها كما كانت تتمنى. تتفانى بالسهر والحنوّ عليه بحب وإخلاص إلى أن يفارق الحياة .

في أحد المشاهد، كم كان تأثر الحبيبة بالغاً، بعد سنوات مرّت، وهي ترى إلى الرسائل والتذكارات - التي كان الحبيب قد أوصى بإعادتها إليها بعد موته - مُرتّبة ضمن صندوق، وشريط أحمر يلفّ رسائلهما المتبادلة بعناية لافتة .

أعود إلى بداية الفيلم حيث رأينا الابن والابنة بعد انقضاء ما يقارب عشرين عاماً على قصة أمّهما التي جرت عام ١٩٦٥، يقومان معاً بقراءتها، في دفتر مذكراتها، وقراءة رسالة موجهة لولديها، عثرا عليهما ضمن صندوق خشبي مع أشياء أخرى عزيزة على نفسها من ضمنها آلة التصوير التي كانت تلازم حبيب أمهما في أثناء عمله، والسلسة بالصليب الذي كانت قد أهدته إليه، والفستان الذي ابتاعته خصيصاً لمناسبة تناول أول عشاء معه خارج المنزل. وقد شرحت في الرسالة كيف

نشأ ذلك الحب الكبير في أثناء غيابهما مع والدهما، وتطلب منهما أن يتفهما ذلك الحب. كانت وصيتها، عند محاميها، أن يُحرق جثمانها. فيتولّى ولداها ذرّ رماده فوق رماد جثمان الحبيب - إذ كان قد أوصى محاميه بذّر رماد جثمانه هناك - على جانبي جسر (روزمان) الذي كان سبب تعارفهما .

عارض الابن بشدة تنفيذ وصية أمه بحرق جثمانها، وهو الذي مع بداية اطلاعه على قصتها، كان الامتعاض والتجهم باديين على وجهه طوال الوقت لما اعتبره خيانة لوالده وفعلاً مشيناً لا يمكن لابن أن يغفره لأم، في حين أن الابنة كانت متفهمة لمشاعر أمها ، وقد أحست بالغيرة منها، إذ رأت أنها تفتقد رومانسية أمها في علاقتها هي بزوجها. ومع انتهاء الابنة من قراءة الرسالة لأخيها نرى علامات الرضا ترتسم على وجهه، فتجيش عاطفته نحو زوجته، فقد أحس أنه مقصّر في الاهتمام بها، فيذهب إليها ويضمّها إلى صدره بقوة واشتياق، أما الابنة فتسارع إلى مهاتفة زوجها لتلتقيَه بعد قطيعة طالت بينهما . وإذا بنا في المشهد الأخير، نرى الابن بصحبة بقية أفراد الأسرة، ينثر رماد أمه بيديه، برويّة واقتناع، على أحد طرفي جسر روزمان، ليتعانق الرمادان، وإذا بالمشهد يصعد بتؤدةٍ نحو السماء .

لقد جلّى الفيلم التباين بين حُبّ يتأتّى بالمعاشرة الزوجية، فيغدو مع مرور الأيام علاقة مودّة تسودها مشاعر المحبة والاحترام، وبين حب ينشأ عند الوهلة الأولى للقاء رجل وامرأة جرّاء انجذاب أثيري بين روحيهما، واستشفاف رؤىً وميولٍ مشتركة بينهما، فتتأجج المشاعر، لتفضي في ظرف سانح – إذا لم يكن رباط الزوجية متاحاً – إلى اللقاء الجسدي، بِنيّة مسبقة، أو بغير سابق نيّة .

لابدّ للمشاهد من أن يحزن للمعاناة النفسية الشديدة التي كابدتها الزوجة في اتخاذ القرار - إمّا بالرحيل مع حبيبها، وإمّا بالبقاء مع زوجها وولديها. إنها إشكالية ملازمة للحياة الإنسانية منذ القدم.. الصراع بين هوى النفس، والقيم الأخلاقية النبيلة .

إن النفس البشرية مهما كانت قوية إزاء كبح أهوائها المنافية للشرائع والأعراف، فإنها في حال من الأحوال، يمكن أن يعتريها الضعف، فلا تسلم من الزلل إلا إن كان إيمانها قوياً بالثواب والعقاب الإلهيّيَن، إذ إن النفس حتى وهي مسلّحة بذاك الإيمان، فهي غير معصومة كلّيّاً عن الزلل، ما لم تحرص على النأيّ بذاتها عمّا يمكن أن يؤدي إلى السقوط .

***

وهذا مشهد مؤثر آخر في فيلم آخر :

كانت تزيل الغبار عن رفوف مكتبة، في أول يوم عمل لها في ڤيلّا تسكنها أسرة ثرية، ولم تكن تعلم من هو رب الأسرة، وإذا بعينيها تقعان على مشبك شعر خشبي تزينه نقوش ملوّنة، يركن في زاوية من تلك المكتبة. تناولته وراحت تدقق النظر فيه، وإذا بيديها ترتجفان. يرجع المشهد

بالمُشاهد إلى لحظة وداعهما الأخير قبل ثلاثين سنة، حين ملسته عن شعرها لتضعه في راحة يده، مطبقةً عليه أصابعَه بأناملها .

****

أحسنت يا صادق ..

أيامَ كنتُ على مقاعد الدرس، أحببت حصص القراءة، العربية منها، والإنكليزية. كنت أنتظر بلهفة سؤال المعلم :
" من يَود القراءة ؟ " وكنت دائماً ممّن يرفعون أيديهم راغبين بها. وكم كنت أُسرّ حين يقع الاختيار عليّ، وكنت أزهو بنفسي حين أكمل ما يتيح ليَ المعلم قراءته من مقطع، دون الوقوع بأي خطأ، إلى أن يَطلب مني، في نهاية مقطع، التوقف عن القراءة بقوله " أحسنت يا صادق "، ليتيح القراءة لغيري. لكنه بذلك كان يقطع عليّ متعتي، إذ كم كنت أتمنى أن يتاح لي الانفراد بقراءة النص كاملاً .

واليوم ، وقد تقدم بي العمر ، مازال يُمتعني أن أقرأ كتاباتي، أو مقالة أعجبتني، أو رواية شدّتني.. وآخرون يصغون إليّ . لو كنت معاصراً لزمن (الحكَواتيّة).. ربما كنت حكّاءً .

****

من أيامٍ خلَت .. وشبابٍ مضى ..

في السبعينيّات من القرن الماضي، اعتاد كثير من الشبان والشابات في مدينة حلب أن يُروّحوا عن أنفسهم جيئة وذهاباً مع الأصدقاء على طول شارع طويل كانوا يدعونه بـ (الخط)، مرتادين بين فترة وأخرى المحال التي يضمها، يتناولون فيها المرطبات أو الحلويات أو شطائر المأكولات، جلوساً أو وقوفاً وهم يتجاذبون أطراف الحديث ما بين هزل وجد، وثمة منهم من كان يأمل بمرور إحداهن بعينها لعلها تتنبه إلى نظراته المعبّرة فتبادله النظرات فتفضي بهما لاحقاً إلى التعارف. وثمة آخرون يسرّهم أن يتابعوا بنظراتهم من هنّ محطّ إعجابهم الشديد ولو لم يلمسوا أي التفات لهم منهن. أنا وبعض الأصدقاء كنا من أولئك الروّاد، معتدّاً بشبابي أيّما اعتداد، لا أبدي إعجابي بأحداهن، ومن طبعي ألّا أبادر بالتقرب من أيّ فتاة، ولو أعجبتني، إلا إن بدر منها ما يؤكد لي رغبتها في ذلك .

من الشابات الجميلات الأنيقات.. اللافتات.. اللواتي قلّما كُنّ يشاهَدن على (الخط)، واحدة مشيقة القد، كانت محطّ إعجابي وأصدقائي، وكان يطيب لنا أن ندعوها بالـ (poupée)، تشبيهاً بالدمية (باربي Barbie) نُسرّ بمرآها وهي تقف مع صديقات لها بعد خروجهن من الكنيسة وقد أدَّينَ صلاة يوم الأحد، أو وهي تقود سيارتها. وما كان يزيد من إعجابنا بها، وقفتها ومشيتها اللتان تنمان عن أنَفَة، وثقة بالنفس. في أحد الأيام، وأنا في الخامسة والعشرين، فيما كنت وصديقين لي نسير الهوينى على أحد الأرصفة في شارع يتفرع عن (الخط) وإذا بنا نلمح الـ (poupée) خلف زجاج مكتب يقع على مستوى الشارع، جالسة تتعلم الضرب على الآلة الكاتبة، في تلك اللحظة، رفعتْ رأسها ناظرة عبر الزجاج، وإذا بي وصديقيّ نفاجأ بأن خصّتني بنظرة شككت في أن تكون عابرة ! وانتبه كل من صديقيّ إلى نظرتها تلك إليّ. بعد أن قطعنا مسافة قصيرة، طلبت من صديقيّ أن نعود أدراجنا على الرصيف ذاته لأتأكد إن كانت ستخصّني ثانية بالنظرة ذاتها.. وإذا بها تكررها ! سرّني ذلك، وكنت موضع حسد من الصديقين على حظوتي، عادّين تلك النظرة، تعبيراً عن إعجابها بي. لكن وأنا المعتدّ بنفسي، لا يمكن أن أتخذ زمام المبادرة لطلب التعارف لمجرد أنها خصّتني بتلك النظرة. حدّثت نفسي إذ ربما كانت نظرة لا تحمل في طيّاتها أي معنى – نظرةً عفوية جرّاء مرورنا من أمام واجهة المكتب .

مرّت أيام، تصادف خلالها، أكثر من مرة، وأنا في طريقي ماشياً، أن أراها تقود سيارتها أو تقف بها عند شارات المرور الضوئية، فأنتبه إلى أنها تُديم النظر إليّ، لكني لم أكن أُحمّل نظرتي إليها أي معنى، مواصلاً السير في طريقي، مسائلاً نفسي : أتُراها راغبة في التعرف إليّ؟ إلى أن كان يوماً قررت فيه اتخاذ خطوة أبدي بها رغبتي بالتعرف إليها، فنظراتها المتكررة تلك، حفزتني لأن أتّخذ زمام المبادرة. في اليوم التالي كنت قد عزمت على انتظارها عند سيارتها ساعة انتهائها من التمرّن في ذلك المكتب. يممتُ شطره مزهواً ببذلتي الرمادية الأنيقة وربطة عنقي الخمرية.. أسندتُ ظهري

إلى باب سيارتها المركونة إلى جانب الرصيف، عاقداً ذراعَيّ منتظراً قدومها وكلّي ثقة بأني سأكون موضع إعجابها وسرورها بجرأتي وإقدامي على ذاك النحو. لحظات.. وإذا بها تخرج من المكتب متجهة نحو سيارتها. بقيت كما أنا معقود الذراعين مُسنداً ظهري إلى باب سيارتها حتى صارت أمامي وأنا أنظر إليها، قالت وهي تُبدي لي مفتاح باب السيارة بيدها :

- أتسمح

- مؤكَّداً أسمح، لكني راغب في التعرف إليك إن أحببتِ، فأنا معجب بك منذ زمن.

- حسناً.. لكنك أفزعتني وأنت تنظر إليّ مكتوف الذراعين مستنداً إلى باب السيارة.

- أرجو المعذرة

- لا عليك

عرّفتها باسمي، وعرّفتني باسمها، وأخبرتها بأني على علم به، وبأني وبعض أصدقائي من المعجبين بها، وبأننا ندعوها (poupée).. وإذا بها تقول لي مُقاطِعة : إن بعضاً من معارفها يدعونها بذلك أيضاً، وهي لا تحب أن تدعى بهذه الصفة، ثم ذكرتْ اسم طبيب، وسألتني إن كانت تربطني به صلة قربى، فأجبت : إنه ابن عمّ والدي، ثم أردفتُ :

- هل لنا أن نجلس في كافتيريا الـ (ستراند) لنواصل الحديث ؟

- أرجو المعذرة، لا أرى ضرورة لذلك

ردّها هذا كان صادِماً لي ..

- لكن لديّ ما أريد أن أُفضي به إليك

- أعتقد أنك تتّبع الـ (cours classic)

وإذ هي تفاجئني بهاتين الكلمتين بالفرنسية، تعني بهما أنني أتّبع النهج التقليدي في التعارف، ولأنها لم تستجب لدعوتي، فقد تملكني شعور من الانزعاج والارتباك، وما زاد من انزعاجي وارتباكي.. عدم تمكني من الرد بالفرنسية، فرغم معرفتي الضئيلة بالفرنسية، كان بمقدوري الرد بها لو أُتيحت لي لحظات لصياغة جملة مناسبة. كم تمنيت لو كانت قالت تلك الكلمتين بالإنكليزية. وكان مِنّي أن أجبتها :

- لا لستُ أتّبع الـ (cours classic)، بل نظراتك كلما رأيتِني من بعيد، مع كوني معجباً بك.. هي ما دعاني إلى طلب التعارف. فقالت :

- الحقيقة هي أني رأيت في وجهك وجه (un enfant innocent) وهذا ما كان يدعوني لإطالة النظر إليك .

تملّكني غيظ شديد لأنها ترى وجهي كوجه (طفل بريء) وأنا المعتدّ بفتوّتي وشبابي.. ولشدة غيظي وانفعالي لم تعد بي رغبة في متابعة الحديث فقلت :

- إن كان الأمر كذلك، أرجو المعذرة لتسببي في مضايقتك.

- لا.. إطلاقاً

- وداعاً

- وداعاً
عدت أدراجي محبطاً، وطفقت أفكر بكيفية الثأر لكبريائي المكلوم.. لن أدع الأمر يمر بهذه البساطة.. وقلت في نفسي، كان من المناسب أن أجيبها قائلاً :
Au contraire, se ne pas un cours classic, mais il est un cours très modern.
ما معناه : على العكس.. ليس نهجا تقليدياً، بل هو نهجٌ جِدُّ حديث. وبذلك أكون قد أوحيت لها بأنني ذو ثقافة ليست بأقل من ثقافتها.

في صباح اليوم التالي وأنا في عملي الوظيفي كان شرودي ملحوظاً للزملاء، ذلك لأني كنت أفكر بالانتكاسة التي منيتُ بها في اليوم الفائت، وبما يجب علي عمله لأسترد اعتباري.. وقلت في نفسي، ربما خطوتي التالية تكون سانحةً تجعلها تبدّل رأيها فتقبل بمصادقتي.. فانتويت الذهاب بعد ظهر ذلك اليوم لألقاها، عند خروجها من حصة التمرين، وأبدأ الحديث معها باللغة الإنكليزية مباشرة، فإن أجابت بالإنكليزية، وأغلب ظني أنها لن تتمكن من الإجابة بها، أكون قد أعلمتها بأنه إن كانت هي تجيد الفرنسية فأنا أجيد الإنكليزية. وقفت بعيداً بعض الشيء عن مكان تدرّبها، أنتظر خروجها. حين خرجت، انتظرتُ قليلاً حتى تجلس خلف مقود سيارتها، ثم أسرعتُ الخطى حتى وصلتُ إلى السيارة وأخذتُ أنقر بإصبعي شُباك المقعد المجاور لمقعدها. حين رأتني طلبت منها، بإشارة من يدي، أن تفتح لي الباب. انحنت وفتحته. صعدت وحييتها، فردّت تحيتي مع ابتسامة. قلت :
- Your attitude yesterday was absolutely not refined and hurting as well.
- عذراً.. أنا لا أتقن الإنكليزية.
فقلت مترجِماً :
- موقفك البارحة لم يكن البتّة متصفاً باللباقة، وكان جارحاً أيضاً .
ولم أنتظر منها ردّاً، بل تابعتُ حديثي سائلاً :
- هل ترين في انتمائنا إلى دينين مختلفين عائقاً يحول دون بناء صداقة بيننا؟
- لا.. لا أرى في ذلك حائلاً.
- إذن ما يمنعك من صداقة إنسان رأيت في وجهه ما يوحي ببراءة طفل؟
- ليس بالضرورة أن يكون صاحب وجه يوحي بالبراءة.. ذا طَوِيّة بريئة.
- الأيام كفيلة بكشف الطويّة..
- أرجو أن تعذرني.. فأنا مرتبطة.
- أوه.. لابد لي من الانسحاب إذن، واسمحي لي أن أقول، كان يجدر بك، وأنت مرتبطة، أن لا تطيلي النظر إليّ كلّما ألقتني الصدفة في طريقك.
ودون أن أنتظر منها جواباً، ودّعتها، وخرجت من السيارة.
مشيتُ وأنا راضٍ بما كان، وأحسست أني انتصرت لكبريائي، وحدثت نفسي قائلاً :

لعلها مرتبطة حقاً، أو إنها ترى في انتمائنا لدينين مختلفين حائلاً، لكنها لم تصرح بذلك، أو إنها حقيقةً لم تر فيّ سوى وجه طفل بريء.

في أيام تلت، كنا نلتقي مصادفة في الطريق أو في إحدى المحال التجارية، فكنت أتقصد أن ترى نظرتي السريعة إليها نظرة من تقع عينه على شخص لا يعرفه. وفي أحد الأيام، شاءت الصدفة أن أنتظر على أحد الأرصفة، جيئة وذهاباً، صديقاً لي ريثما يرجع من لقاء قصير مع أحد معارفه، وكان ذلك بجوار متجر تباع فيه أصناف التحف والهدايا، تعود ملكيته، بحسب ما أعلم، إلى شقيق والد الـ (poupée) وإذا بي أفاجأ برؤيتها داخل ذلك المتجر تُحدّث عمّها وكلاهما ينظران إليّ، ما يعني أنها تحكي له عمّا كان مني معها، ويظنّان أني أروح وأجيء أمام المتجر منتظراً خروجها. انتابني انزعاج شديد للوهلة الأولى، لكنه سرعان ما زال عني، لأن دقائق قليلة ستنقضي، فيخيب ظنّها وهي ترى أني غادرت وصديقي، ناظراً إلى ساعتي، فور التقائي به .

****

يتمنّعنّ وهنّ راغبات ..

بعض الرجال، ممّن يَنشُدون التقرّب إلى إحداهن، يبدؤون محاولاتهم، كل منهم على طريقته، فإذا لم يحظوا باستجابة منها، لا يبرحون مواصلة لجّهم بمعسول الكلام، تماشياً مع مقولة (يتمنّعن وهنّ راغبات) ذلك على الرغم من عدم إبداء الأنثى أيّ إيماءة توحي برغبتها في التقرب، أو بالرغم من التزامها الجدّية في الحوار أو التعامل، أو حتى بعد إبداء اعتذارها الصريح القاطع. بل إن هؤلاء البعض يُغرِقون في الإلحاح والانبطاح.. ما يؤدي إلى نفور الأنثى منهم إلى حد التقزز في بعض الأحيان .

إذن، أيها الشاب، ولاسيّما أنت أيها الرجل.. ميّز جيداً بين من يتمنعن وهنّ راغبات ومن لسن براغبات، إذ حتى الراغبات - إذا ما كنّ سويّات رزينات - سوف ينفرن ممّن يمكن أن يرغبن فيه، ويصغُر في عيونهن، إذا ما لمسوا أنه لا يتمتع بلباقة حقيقية.. أو يفتقر لعزة النفس . فكن حريصاً على عزة نفسك، وابق كبيراً في عيونهن.. لتحظى، على الأقل، باحترامهن .

**

طلب إضافته صديقاً لها على (الفيسبوك) فكان له ذلك .
تبادلا الإعجاب والتعليقات على منشوراتهما.. منشوراته هو المتعلقة بالأبحاث والشؤون الاجتماعية، ومنشوراتها هي المتعلقة بالأدب والأحوال الإنسانية ..
بادر من خلال زاوية الدردشة، برسالة مبدياً فيها إجلاله لشخصها وإعجابه بفكرها وكتاباتها أيمّا إعجاب.. شكرت له ذلك، وعلمت أنه أستاذ جامعي وله كتب وأبحاث .
واظب على مراسلتها يومياً محمّلاً كل رسالة من رسائله مزيداً من الإعجاب، وفيضاً من المشاعر التي تنمّ عن رغبته الشديدة في توطيد صداقتهما.. لأن أحاسيسه نحوها أضحت مشاعرَ حبٍّ يؤرقه.. وكان ذلك بالرغم من حرصها منذ البداية على عدم إبداء أيّ إيماءة توحي بأنها ترغب في صداقة تتجاوز الصداقة الفكرية. لكنه في كل مرة كان يلحّ طالباً منها مبادلته مشاعره وعواطفه، إذ إنه يراها ملاكاً في كل كلمة من كلماتها وفي كل رأي من آرائها .
حين رأت أن عدم ردها على معظم رسائله، أو ردها المقتضب، أو حتى طلبها إليه الالتزام بحدود الصداقة الفكرية.. لن يجدي نفعاً، ولن يوقف إدلاءه بسيل عواطفه الجيّاشة نحوها، رأت مضطرة أن لا مناص من إعلامه بالعهد الأبدي لحبيبٍ روحيّ لها، ذاك الذي مازال معها على العهد منذ عقد من الزمان . وهي إذ باحت بما باحت، قد توقعت أن أستاذاً جامعياً صاحب أبحاث فكرية، وقد لمس من ملائكيتها ما لمس، سوف يقدّر عهدها لذاك الحبيب، وسيكفّ عن إلحاحه، ويلجم عواطفه، وينسحب، أو يكتفي بالصداقة الفكرية، لكنه لم يأبه لبَوحها ذاك، بل ظلّ مواظباً لجوجاً.

ما أوردتُه آنفاً، لهو مثال على صاحب شهادات عليا، يفتقر إلى أدنى الخصال الإنسانية الرفيعة، فلا تُعلي شهاداته من شأنه، ويبقى هزيلاً.. أمام أولئك اللبقين في سلوكهم.. الصائنين لعزة نفوسهم .

****

ميثاق الأمم المتحدة :

((نحن شعوب الأمم المتحدة قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب التي في خلال جيل واحد جلبت على الإنسانية، مرتين، أحزاناً يعجز عنها الوصف، وأن نؤكّد مجدّداً، إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدْره، وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها، من حقوق متساوية، وأن نبيّن الأحوال التي يمكن في ظلّها تحقيق العدالة، واحترام الالتزامات الناشئة عن المعاهدات وغيرها، من مصادر القانون الدولي، وأن ندفع بالرقي الاجتماعي قدماً، وأن نرفع مستوى الحياة في جوّ فسيح من الحرية.
وفي سبيل هذه الغايات.. اعتزمنا ان نأخذ أنفسنا بالتسامح، وأن نعيش معاً في سلام وحسن جوار، وأن نضم قوانا كي نحتفظ بالسلم والأمن الدوليين، وأن نكفل قبولنا مبادئ معيّنة، ورسم الخطط اللازمة لها، وألّا تُستخدم القوة المسلحة في غير المصلحة المشتركة، وأن نستخدم الأداة الدولية في ترقية الشؤون الاقتصادية والاجتماعية للشعوب جميعها)) .

بعد هذا الكلام المنمّق ذي الطابع الإنساني الذي لا يمكن أن لا يُعجَبَ به أحد.. يأتي حقّ (الڤيتو) - الذي يملكه الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن - مناقضاً للمبادئ الإنسانية السامية الواردة في الميثاق، ومَبنيّاً على منطق القوة، ليعطي القويَ حق النقض لما يتعارض مع مصالحه، ما أدى إلى انتقادات واسعة لهذا الحق الذي يشلّ قرارات مجلس الأمن الدولي الذي عليه أن يلتزم النزاهة في تطبيق القانون الدولي لحل النزاعات .
يا له من تناقض صريح بين أهداف الميثاق وحق(الڤيتو) المشابه لقانون الغاب - تناقض لا يقبله المنطق السليم، ولا النفس الإنسانية السليمة، ولا أيّ من الشرائع السماوية .
إن حق (الڤيتو) يهدف ضِمناً، وبكل وقاحة، إلى تقرير مصير الدول بناء على مصالح كل دولة من الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن، تلك المصالح المتمثلة بعلاقات كل من هذه الدول مع الدول الأخرى الضعيفة، فتضمن عدم قيام الحروب بين مالكي ذلك الحق، جرّاء طمع أحدهما في دولة ضعيفة.. وليس بناء على الحق والعدل نُصرةً للمظلوم من الدول أو الشعوب التي لاحول لها ولا قوة .
إذن، على الدول الخمس صاحبة ذاك الحق المنافي للحق، أن لا تتظاهر باستنكارها لمنطق هتلر، أو تيمورلنك.. إن أكثر ما يمكن أن يقبله المنطق السليم، هو أن يطبَّق ذاك الحق – إن كان لابد منه – بالتصويت بين مالكيه الخمسة، ليكون الحسم بثلاثة مقابل اثنين. بَيْد أن هذا، للأسف، لن يكون مجدياً أحياناً، لأن ثلاثة منهم يجمعهم حلف الناتو، والآخرَين خارج هذا الحلف .
من المحزن جداً.. أن تلطِّخ بقعة (الڤيتو) السوداء، صدر ما يسمى بالأمم المتحدة .

***

من المستغرب أن فارضي العقوبات الدولية على دولة ما، لا يأبهون بالضرر الذي سيلحق بشعبها..!! ما جدوى العقوبات إن كانت ستزيد في ظلم شعب مقهور .
إن عدم اكتراث المعاقِبين بهذا الأمر، ما هو إلّا لأمر في نفس يعقوب .
فرضُ العقوبات الدولية لا جدوى منه إلا على نظام يكترث بمصالح شعبه أولاً وأخيراً.
إن كان شعب الدولة المعاقَبة دولياً، يرى الصواب في نظام حكمه، فإنه سيحتمل العقوبات في سبيل المصالح القومية، أو إنه سيلجأ إلى مطالبة حكّامه بتغيير نهجهم المتسبب في العقوبات. أما إن كان الشعب مستنكراً أصلاً لنهج حكّامه، فكيف لهم أن يُلحِقوا الأذى بالناس !!

***

لماذا يكون من الصعوبة بمكان أن توضع أسس ناجعة للتعاون والتضامن والتكافل بين الشعوب والدول؟! أمن الصعوبة بمكان أن توزّع خيرات كرتنا الأرضية على كل دولة بحسب حاجتها، وتُصك عملة واحدة يتعامل بها الجميع؟! إن كنا قد أضحينا في عصر ما بعد الذرّة، وتوصل الإنسان إلى ما توصل إليه من العلم والمعرفة في مختلف الميادين والمجالات.. أليس بعجيب أنه غير قادر أن يعيش مع أخيه الإنسان بمحبة صادقة ؟! أم إن ذلك ليس بعجيب لأن الإنسان على الرغم من قدراته العقلية العالية، غير قادر على أن يلجم أنانيته المستحكمة..؟!
إن كان الله قد وضع فينا غريزة حب الذات.. فبالمقابل قد أكرمنا بالعقل وأمرنا بالتوادد والتراحم والتكافل والتضامن، ليمتحننا.. واليوم آتٍ لا ريب، ليرى من منا استسلم لهواه.. ومن منا عمل بموجب أوامره ونواهيه التي تصب في صالح الإنسان .

***

لقد اعتنق الإنسان الأديان السماوية الداعية إلى المحبة والخير والتآخي.. ومجّدها.. وعلا صوته من على شتى المنابر، حتى السياسية منها، يدعو للقيم الإنسانية الفاضلة لإحقاق الحق ونصرة المظلوم ومساعدة الضعفاء والمساكين.. وتشكلت لهذه الغاية المنظمات الإنسانية المتعددة.. ومع هذا تأتي الأفعال – سواء على مستوى الفرد أو الجماعة أو الدول – على عكس الأقوال..!!
الكل يلهث وراء منافعه ومصالحه منافحاً عن مكتسباته ولو كانت بغير حق..!!

****

في العلاقات الإنسانية ..

ثمة أمر مستنكر، من البشاعة بمكان، من أناس اعتادوا الغيبة والبهتان.. نراهم في المجالس يلوكون - بغاية التسلية والثرثرة - سمعة أو أخطاء أصدقاء أو أقارب لهم، كانوا بالأمس القريب يتسامرون معهم مبدين لهم كل مودة! وهم بسردهم أخطاء وعيوب الآخرين، يبتغون إظهار أنفسهم أسوياء أتقياء.. ويا ليتهم كانوا أفضل ممّن يستغيبونهم، إذ ربما كانوا- وهم يدرون أو لا يدرون - يضاهونهم سوءاً. إلى أين نسير..؟! وإلى أيّ حضيض ستنتهي إليه مجتمعاتنا ؟!
أدام الله أولئك الورعين.. فلا بد أنهم سبب رأفة الله بالبشرية .

****

الشعب الذي يقتتلان باسمه.. يموت ويُشرّد ويهاجر.. الوطن الذي يزايدان باسمه أضحى كُوَماً من خراب ودمار.. ولايزالان سادرَين غير آبهَين. طرَفٌ يستند إلى قوّته.. وآخرُ يتّكئ على عزيمته .
المحور المزعوم للقتال: الوطن والمواطن.. وليس ثمة مغلوبٌ ومسحوقٌ من هذا التناطح العبَثي سوى الوطن والمواطن..!!! إلامَ سنصل إن بقينا نقاتل بعضنا بعضاً ؟!
أما آن لطرف أن يكون سبّاقاً فيَكُفَّ عن صَلَفه.. ويسمو برجاحة عقله.. وإنسانيته..؟!

****

أيها المتناحرون.. عليكم بالبراري فهي أرحب لتناحركم..
قضيّتكم مهما تكن.. لا تساوي دمعة طفلة يُتّمت.. ولا أمّ ثُكّلت.. ولا أسرة شُرّدت.. ولا نفس بريئة قُتلت ..

****

أفاقت البيوت الوادعة على هديل الحمائم.. وسقسقة العصافير، فيما النسائم الرخيّة تنسُمُ حاملة شذى الأوراد.. ورائحة القهوة الصباحية ..
وما هي إلا ثوان حتى استحالت، تلك البيوت، إلى خرائب فوق رؤوس ساكنيها!!!
يقولون : إن ذلك من أجل دحر الطغاة، والوصول إلى غدٍ مشرق واعد..!!
وآخرون يقولون : من أجل إعلاء كلمة الله على الأرض..!!

****

ليتك تنام ليلةً تحت شجرةٍ بجانب ساقية.. وتصحو فجراً مع الطيورِ المغرّدة.. فتوقن قبح مدينتك ومدنيّتك الباهرة .

****

أتفهّمك جيداً حينما تريد أن تتغاضى عمّن يسرقك مقابل أمنك واستقرارك..
أمّا أن تدافع عنه بملء صوتك وتنزّهه.. وتجعل منه الراعي الأمثل والحارس الأمين.. فهذا ما لا يمكن أن يتقبله إنسان يعرف الحق وينبذ الباطل .

****

لا يختلف اثنان في أن الرمَد أخفّ وطأةً من العمى ..
لكن أن تمتدح الرمد وتعتبره حالة صحيّة سليمة.. فأنت بذلك صاحب مصلحة ما.. ليس إلّا .

****

ليس مقبولاً عذرٌ لإنسان يخالف القيم النبيلة بحجة أن القانون يقف إلى جانبه..
إن القوانين الوضعية، والأحكام الشرعية، ليس بالضرورة أن ترقى إلى القيم الإنسانية النبيلة، فهي قد بُنِيت بما يتماشى والأحوال العامة السائدة في المجتمع، لتضمن الحقوق وتَحُول دون النزاعات، ولتحسمها في حال وقوعها لصالح أحد الطرفين تبعاً للأحوال العامة، إذ إن كثيراً من الأفراد أو الجماعات يُظلَمون من جراء تطبيق القانون الذي لا يمكن أن يُفصَّل بحسب كل حال على حدة .

****

العلماء والأدباء والمفكرون النابهون، والفنانون الماهرون، والسياسيون النابغون، والقادة العسكريون الحاذقون - السالفون منهم والمعاصرون - كثرتهم في شَعب من الشعوب، ليست مدعاةً لأن يفخر الشعب بنفسه.. فأولئك جديرون بأن يفخروا بأنفسهم .
مازلنا نعتز ونفاخر ونناطح بأمجاد أجدادنا الذين منهم أول من اخترع كذا، ومنهم أول من وضع أسس علم كذا، ومنهم من كان المثال الأمثل في المعاملة الإنسانية، وصون الحقوق..
وأتساءل : إن كنا نحن الأحفاد قد تخاذلنا ولم نواصل المسير على هَدْيِ الأجداد وما أسسوه، وصرنا في آخر الرتل من الأمم.. أيكون ما كان لهم مدعاة لنا للمفاخرة والشعور بالخُيَلاء.. أم مدعاة للأسى والخجل، والعمل الجاد.. لعلنا أن نحظى بمكانة بين الأمم؟!
الشعب الذي يستحق أن يفخر بنفسه هو ذاك الذي تسود المحبّة بين أفراده دون النظر لانتماءاتهم ومعتقداتهم أياً كانت، ويحافظ على نظافة وسلامة مدنه بشوارعها وأبنيتها ومؤسساتها، وينيط زمام إداراتها بالأكفأ، ويسود في بلده القانون والنظام على الجميع دون تمييز،

ودخلُ الفرد فيه يوفّر حياة كريمة لأسرته، ودولتُه تكفل شيخوختَه على الوجه اللائق مدى الحياة. ذاك هو الشعب الذي يحق له أن يفخر بنفسه .

****

وطني.. ليس رقعةً من قماشٍ ملوّن.. ولا قيّمين عليه أوفياءَ كانوا أو غير أوفياء..
وطني.. منفسَحٌ رحب بسهولِهِ وجباله وبحره وناسه الطيبين.. يضمّ أهلي وأحبتي وذكرياتي الحميمة..
وطني.. هو ذاك الذي يمكنني العيش فيه وأسرتي.. حياة آمنة كريمة .

****

إنها لمصيبة كبرى أن يكون السلاح بأيدي من يتحيّنون الفُرص ليُشبِعوا ميلهم الفطري إلى العنف والهمجية بحجة أنهم يحافظون على الأمن والنظام.. فنراهم منساقون بغريزتهم، كالغِيلان الفالتة من عقالها.. أمّا المصيبة الأكبر فهي غضّ نظر من بيده ردعهم !!
ألا يتحتّم على أجهزة الأمن وحفظ النظام أن تكون مُنتقاة ممن يصحّ وصفهم بالبشر ؟
أم إنه يتحتم على تلك الأجهزة أن تكون مكوّنة من قطعان من الغِيلان ؟!

****

يا من ترون الممارسات الخاطئة أمراً عاديّاً لا يستدعي الرفض والاستنكار، لأنها تتماشى مع مصالحكم، فلا تتوانون في تأييدها.. أنتم النفعيين (الشُطّار) الذين تعدّون أنفسكم، دونما حرج، أصحاب حنكة ودراية وعقل راجح.. ومن يخالفكم إن هو إلا بسيط ساذج.. متى ترتقوا بأنفسكم الضعيفة فتناصروا الحق وتستنكروا الباطل..؟! ألا تبّاً لكم.. ليتكم على أقل تقدير، تلزمون الصمت فلا تجعلون الخطأ صواباً، أو تتغافلون عنه.. وهو بَيِّنٌ كقرص الشمس في وضح النهار.
كفاكم سباحة في الروحانيات والمعنويات ادعاءً، وأنتم غارقون في الماديات عملاً !!

****

ما أبشع التعامي عن الحقيقة، أو التبرير المِعوَجّ، حين يصدر عن أناس على قدر كبير من الثقافة والوعي - أناس لا يُتوقع منهم إلا أن يتكلموا باتزان وموضوعية. إنه لأمرٌ محزنٌ حقاً أن يُضطّر إنسان إلى التفوّه بما لا يعتقد بصحته، حفاظاً على أسباب عيشه.. وإنه لأمر مُخزٍ أن يتغاضى عمّا يمليه الضمير، طمعاً في الحصول على مكتسبات أو امتيازات دنيوية.

****

ليس بمستغرب أن يكون الغرب والشرق الأقصى على ما هما عليه اليوم.. وأن يكون كل من الشرق الأوسط والأدنى على ما هما عليه اليوم. فالأولان في القمة.. والثانيان في الدرك الأسفل.. الأولان

يطبّقان جوهر الأديان السماوية وغير السماوية.. فأعزهما الله. أما الثانيان، فمكتفيان بالتغني بالماضي (المجيد) ظناً منهما أن الدين ما هو إلا طقوس وأدعية وأذكار.. فأذلهما الله .

****

إذا ما نظرنا اليوم إلى دول العالم التي اتخذت منذ زمن بعيد حتى اليوم الديمقراطية الحقيقية ، نهجاً لأسلوب حكمها والتفتت إلى العمل لنهضتها وارتقائها.. نرى أن الله قد أعزّها .
وإن الدول التي ارتضت الحكم الملكي أو الأميري أو ماشابه.. والتفتت إلى العمل لنهضتها ونموها وتقدمها.. قد أعزها الله أيضاً .
أما االدول التي مازال شغلها الشاغل منذ زمن بعيد وحتى يومنا هذا، من يكون حاكمها، أو كيف يكون نهج الحكم فيها، ولم تتمكن من تجاوز هذا الشغل الشاغل.. قد أذلها الله، وتركها تتخبط في أزماتها وتخلفها ..
إذن، فإن الله قد أعزّ الشعوب التي أحسنت إعمال عقولها التي أكرمهم بها.. وأذلّ تلك التي لم تحسن إعمال نعمة العقل .
((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم)) مسلمين كنتم.. مسيحيين كنتم.. يهوداً كنتم.. بوذيين كنتم.. أو كنتم ما كنتم.. ليس فيكم من اختار دينه ..

****

ما يزيد على أربعة مليارات دولار ثمناً لثلاثين طائرة حربية متطورة ..
ثلاثة ملايين وستمئة ألف درهم دُفِعوا في مزاد علني، ثمناً لرقم مميّز لهاتف محمول ..
يا للعزة والفخار..!!!

****

في أثناء رحلتي القصيرة ورفيقي إلى الهند، تصادف مرورنا في شارع رئيسي، مع مرور جوقة من الهنود يحتفلون بعيد آلهة من آلهتهم محمولة على عربة، وهم يسيرون خلفها راقصين على إيقاع ضرب الطبول. استوقفنا المشهد متأملين هذا العرض الغريب عنا.. وليس ببعيد عني، وقفت متفرجةٌ شقراء - أوربية القسمات مشيقة القد محتشمة اللباس - وحيدةً تهزّ جسدها بلطف وعفوية على ذاك الإيقاع. حين تلاقت عيناي بعينيها رغبتُ بالتحدث إليها، وكأني بها هي أيضاً أرادت التحدث إليّ.. لكن الحياء حال بيننا . أما روحانا فقد تحاورتا لثوان رغماً عنّا، إذ لا حياء يحول دون تلاقي الأرواح .

****

ما أتعسك أيها الزوج الطيّب المُعسِر بزوجة لا تراك سوى أداة إنفاق خَرِبة.. فتنكّد حياتك ليل نهار..!! وما أسعدك أيها الزوج الطيّب المعسر بزوجة صالحة ترى من واجبها الأدبي، إن كانت تعمل ، أن تؤازرك في الإنفاق، وإن كانت لا تعمل، أن تشعرك بالرضا والامتنان .

****

أرأيتم إلى السُّبحة حين تنفرط حباتُها وتتدحرج متباعدة تتبعثر..؟
هكذا تنفرطُ حبّات الأُسَر .. فإن أمكن أن تعود السبحة إلى هيئتها الأولى ..
هيهات.. هيهات.. أن تعود الأسَر .

****

إنْ قلنا إنّ بعض البشر كالحيوانات.. نكن قد ظلمنا الحيوانات.. إذ ما هؤلاء البعض سوى حشرات ضارّة.. بل هم أحطّ قدْراً.. لأن الحشرة المسيّرة بغريزتها .. إن كانت تضر، فإن الله بالمقابل، قد جعل لها دوراً بيئيّاً نافعاً .

****

أيها الشاب المُعسِر البائس التّعِس.. آهِ لو تُدرك أنك بشبابك أغنى من أثرى شَيخ.
فكن ممّن يخافون الله ، ليزيد غِناكَ غنىً .

****

لو كان قُيّض لنزار أن يخُطّ في هذه الأيام، قصيدته المغنّاة " أيظنّ " لقال :
(حتى جينزاتي التي أهملتُها.. فرحَتْ به.. رقصتْ على قدميه)
أو ما كان للشاعر أن يورد حالة الرقص.. إذ لا يمكن للجينزات أو السراويل الضيقة أن ترقص.
كم كنتنّ تَبدُنّ جميلات بفساتينِكنّ وتنانيرِكنّ أيتها الآنسات والسيدات.. لقد كانت أظهرَ لأنوثتكنّ.. وأكثر ملاءمة لرقتكن ..

****

أنا حزينٌ عليك أيها الكِتاب، لأن كثيرين من قرائك قد هجروك.. وأضحوا متيّمين بالذي احتلّ مكانتك..! لاتحزن أيها الكتاب.. أنت الأصل.. وستبقى كذلك.. لكننا بشر تغرينا الألوان.. ويسحرنا التواصل مع الآخرين عن بُعد بكبسة زر. أحنّ إليك أيها الكتاب.. لكن ما باليد حيلة..!
لسماحتك وسعة صدرك.. أنا على يقين من أنك ستعذرنا نحن الكثيرين الذين ابتعدنا عنك، وأنت على يقين من أننا - بين فينة وفينة والشوق يملؤنا - سنعود إليك..

****

رسائلي في رسائلها

ريم.. الإنسانة ..

شاهدتُك وسمعتك في (ابن البلد)* وعرفتك من خلال (البصر والبصيرة)** فأحسستُ أنك واحدة من قلائل جديرين بلقب إنسان، ولا أشكُّ في أن هذا اللقب لَهُوَ أجلّ لديك وأسمى من لقب دكتورة .

بينما كنت أشاهدك وأسمعك، لفتني منك حديثٌ رصينٌ أخّاذ، وصوتٌ رقيقٌ عذب، ينمّان عن رهافة ونقاء.. أمّا فيما كنت أقرأ (البصر والبصيرة) فلم تفارق الدموع عينيّ - وأنا أنتقل من سطر إلى آخر، ومن صفحة إلى صفحة - تأثراً من إفصاح راقٍ عن مشاعر صادقة بالعرفان اللامتناهي بالجميل لأولئك الذين كانوا أخياراً طيّبين معك، ولوالديك اللذين عانيا الكثير من أجلك، فكنت الفرحة الكبرى لهما. لقد كنتِ بعرفانك لهما، ابنةً بارّة.. حفظتْ جميلهما في مقلتيها.. وكانا نور قلبها وعقلها وعينيها .

كم أبكتني رسالة السيدة خديجة حكيم ..
وكم أبكيتِني وأنتِ تضيئين سطور مَن غدا مصطفاك، بذاك البَوْح الراقي ..
وكم تأثرتُ وأعجبت بما ختمتِ به سيرتك.. ما أجملها خاتمة ..
وما أجملك بإنسانيتك الثرّة وبصيرتك المتوهجة ..

ويأتي العتب على قدر المحبة :
فقد لمستُ شيئاً من قسوة في قلمكِ على بعض أترابك، فيما مضى، وغيرِهم ممّن لم يكونوا أخياراً معك ! فرأيتُ - وأنت الإنسانة - أن ليتك قد أوجدت لهم أسباباً مخففة، لتكوني أكثر رأفة بهم إن ما استطعتِ صفحاً.. فقلّة هم الذين حباهم الله ببصيرة أولئك الأخيار ..

بكل المحبة والتقدير والاحترام .. أنحني لك .
صادق السباعي

حلب ٢٩ / ٩ / ٢٠٠٣

---

* برنامج متلفز، كُرّمت د. ريم هلال في إحدى حلقاته .
** كتاب سيرتها الذاتية .

الأستاذ صادق السباعي المحترم

أشكر لك ما أبديته حيال شخصي وتجربتي ومؤلَّفي (البصر والبصيرة) من المشاعر النبيلة والمبادرة الثمينة التي أعادتني من جديد إلى التفاؤل بثراء الحياة، وبإمكان انطوائها دائماً على ما هو جديد وجميل، مقابل ما تنطوي عليه، من جانب آخر، من الآلام والأحزان .

إلا أنني لا أرى بدّاً من الإجابة عن الإشارة التي ذيّلتَ بها ورقتك المضيئة، والتي تتعلق بتلمّسك شيئاً من القسوة لدي حيال أترابي الذين لم يحسنوا إليّ عبر حياتي .

إنني أكتب سيرة ذاتية، ولعل هذه تُعَدّ من أكثر الأجناس الأدبية حاجة إلى قول الصدق، إلى قول الحقيقة، وتصويرها من جوانبها المختلفة كما هي دون مواربة أو مجاملة أو تجميل، وإن كان ذلك حتى على حساب صاحب السيرة ذاتها، إذ لعلك تتذكر كيف أنني لم أتستر عن ذكر بعض أخطائي التي انزلقتُ بها أنا الأخرى . إنني حين أكتب قصتي لا أفعل ذلك من أجل أن أقتصّ من هذا أو ذاك،

ولا لكي أشفي غليلاً، ولا لكي أعبّر عن حقد، بل من أجل أن أؤدّي إلى قرائي رسالة أبيّن من خلالها ماهيّة الحياة التي تنطوي دائماً على جانبيها كما سبق أن أشرت، ولكي أبيّن ماهيّة البشر الذين ينقسمون دائماً إلى صنفيهم المعروفين .
إنني حين أكتب قصتي وما حدث معي من قِبَل الأشخاص، لا أفعل ذلك لكي أقدّم الأشخاص ذواتهم، إنما لكي أقدّم نماذج بشرية يمكن أن تتكرر في كل زمان ومكان. ولعل أوضح دليل على قولي أنني لم أذكر أسماءهم، واكتفيتُ بحروف ترمز إليهم مقابل تصريحي بالأسماء الكاملة للذين أحسنوا .
وشكراً لك دائماً، وأرحّب بك وبكلماتك وصداقتك .
د. ريم

اللاذقية ٤ / ١٠ / ٢٠٠٣

الدكتورة الفاضلة ريم ،
وأنا في غمرة السرور بتلقيَّ رداً منك.. وإذا بجميل الكلمات والمعاني تبوح لي بفيض لطفك وجمّ إنسانيتك.. وما زال لديّ انطباع - منذ اللحظة التي رأيتك وسمعتك فيها عبر الرائي - أنك من صنف الملائكة.. فأنّى لملاك أن يحمل في جنبيه ولو نذراً من قسوة !
أتّفق معك تماماً في وجوب نقل الحقيقة دون مواربة أو مجاملة أو تجميل.. لكن لكونها سيرة ذاتية، لا يمكن لك أن تتخذي جانب الحياد دون أن تسكبي من ذاتك فيها.. حاشى أن يكون قد خيّل إليّ أنك تحملين حقداً أو غلّاً على أحد، لكن جلّ ما قصدتُ، أنه كان يطيب لي أن أجد عبارات تنم عن صفح - بعد مضيّ السنين - عن أولئك الذين أساءوا التصرف، وربما وُجِدَتْ تلك العبارات ولم أتنبه إليها، وحتى إن لم توجد، فلك أسبابك، وإني وأنا أقرأ مؤلَّفك، قدّرت لك فضل الاكتفاء بذكر أحرف ترمز إلى أصحابها الذين لم يكونوا أخياراً .
أرى أن لا نحمّل الأمر أكثر مما يَحتمل، وننتقل إلى ما هو أجدى ..

في مستهل كلماتك الطيبة لي، أسعدني جداً، استبشارك بثراء الحياة، وبإمكان انطوائها دائماً على ما هو جديد وجميل. أشكر لك جزيل الشكر ترحيبك بي وبكلماتي وصداقتي، وإنه ليشرّفني ويغبطني أن أحظى بصداقة إنسانة عظيمة راضية بما قسم الله لها – وكما قالت مرة – تخشى إمّا تعافى بصرها، أن تفقد شعلة أضاءها الله في داخلها. لكن، أيمكن لتلك الشعلة أن تنطفئ بعدما أضاءها الله في جنبات نفسها السامية..؟! فياليتك لا تُبدين صدوداً إن كان من أمل في التعافي، فتزداد الحياة جمالاً في عينيك وقلبك معاً ..

حفظك الله يا ريم ورعاك.. وأنالك ما تصبين إليه .
مع خالص تقديري ومحبتي ..
٦ / ١٠ / ٢٠٠٣

الدكتورة الفاضلة ريم ،
سلام الله عليك وعلى جميع من حولك من أحبة وأصدقاء..

أرجو أن يكون انهماكك في العمل والمشاغل هو السبب في تأخير الرد على خطابي الأخير، وليس ما قد يكون ساءك – دون قصد مني – في ذاك الخطاب .
فإن كان السبب هو الانشغال، أو أن خطابي لم يحمل ما يستدعي الرد، فلا تهتمي للتأخير، أما أن يكون ما ساءك – لا سمح الله – فذلك ما يؤرقني ..
لك أطيب تمنياتي ..
١١ / ١٠ / ٢٠٠٣

الأستاذ صادق المحترم
تحياتي الطيبة ،
لقد فوجئتُ بما انطوت عليه رسالتك الأخيرة من ظنك أنني مستاءة منك !
مِمَّ يمكنني أن أستاء؟! أمِن عباراتك التي أشرقت لطفاً ولباقة؟! أم من نَسْبك إياي إلى صنف الملائكة؟! أم من لغتك الرفيعة التي طالما نتوق إلى ما يماثلها؟! أم هل يمكنني أن أستاء من ملاحظة رقيقة لم تقصد من خلالها سوى أن تزيدني نصاعة ونقاء؟!
لقد سبق أن أخبرتك أنني أحمل كل التقدير لمبادرتك الثمينة ومشاعرك النبيلة - واليوم أضيف - ولدموعك التي انهمرت من عينيك في أثناء قراءتك (البصر والبصيرة)، والتي أراها ستزيد حقولي اخضراراً .
وهكذا لا يبقى لي في النهاية سوى أن أطالبك بأن تعرّفني بنفسك مثلما تعرّفت أنت إليّ من خلال سيرتي الذاتية ... فمن أنت ؟ ...
١٤ / ١٠ / ٢٠٠٣

الآنسة الرقيقة الدكتورة ريم ،
إليك أحلى تحيّة ..
رسالتك العزيزة.. حملت من عبارات الاستفهام ذات المدلول التعجّبي، ما كان لجرسه في نفسي وقعاً خاصاً.. حلواً.. أما ثناؤك عليّ فقد كان غدقاً منك لا أستحقه ..
ها أنت تطلبين ما كنت أعلم أن ليس منه بدّ : من أنا ؟
ترى كيف رسمتِني في مخيّلتك؟ أمّا أنا، فأوثر أن تبقى صورتي لديك انطباعية، إلا إن كنت تصرّين على إبدالها بالواقعية. حسناً.. فأنت من تتحمّل التّبِعة .
أنا بكر أبناء ثلاثة لوالديّ، تخطيت الواحدة والخمسين في الثاني عشر من الشهر الماضي. أعمل مترجماً ومراسلاً تجاريا باللغة الإنكليزية، في شركة خاصة لاستيراد المواد الكيميائية والغذائية .
لست حاصلاً على درجة جامعية - لأسباب يطول شرحها - على الرغم من وصولي إلى امتحانات السنة الجامعية الأخيرة في قسم اللغة الإنكليزية، وقد تبقى عليّ اجتياز أربعة مقررات لكي أتخرج.
وأنا لم اكتسب إنكليزيتي الجيدة من دراستي الجامعية - إذ لم أكن أواظب على حضور المحاضرات، لارتباطي الوظيفي - إنما اكتسبتها من ميلي إلى اللغات الأجنبية منذ طفولتي، ولولعي الشديد بها وأنا على مقاعد الدرس، وممّا تلا من تحصيلي الذاتي فيما تلا من أيام .
شاء القدر أن أتزوج وأنا في الثامنة والعشرين - قبيل سنتي الجامعية الثالثة - من فتاة تصغرني بعامين، مجازة بالأدب الإنكليزي، وموظفة في منظمة دولية. بعد عشرين سنة من زواجنا، منيتُ بالطلاق الذي مضى عليه الآن أربعة أعوام .

لدي من الأبناء (ناظم) اثنان وعشرون عاماً، (ديمة) سبعة عشر عاماً، وكلاهما يعيشان معي، و (همسة) ذات السنوات التسع، تعيش في بيت جدها مع والدتها، أصطحبها في نزهة بين حين وآخر.

حفظ الله والداي.. وأعان أمّي عليّ.. أمّي ذات الطيبة اللامتناهية.. تشدّ من أزري، تصبّرني، تصرّ على مواصلة الطبخ لنا، وترى فيّ مثالاً للصلاح يُحتَذى.. هي أرمنيّة، تركيّة المولد، لأب واسع الثقافة، ومن كبار المحامين في أنطاكية يوم كان لواء اسكندرون تابعاً لسورية. وقد أخذنا عنها، أو بالأحرى، عن جدّي وجدّتي - ما نلمّ به أنا وأخواي من اللغة الأرمنيّة والتركيّة، إذ إن أمّي اعتادت أن تحادثنا بالعربية مذ كنّا أطفالاً .

أمّا أبي العزيز أطال الله عمره، موظف متقاعد، مازال يكدّ ويتعب رغم اعتلال صحته، ليجابه متطلبات الحياة .

لابد أني أسهبت في (من أكون) ولن أطيل أكثر. أما كان أحلى أن تظلّ صورتي لديك انطباعية؟

سلامي إلى السيد الوالد والسيدة الوالدة، والأحباء أشقّائك رندة و عمر و رفيف، وكل من يحيطك بمحبته ورعايته..

ودمت بخير ..

١٦ / ١٠ / ٢٠٠٣

الأستاذ صادق المحترم

تحياتي الطيبة ... صباح الخير ...

آلمتني قصتك.. مثلما آلمتني القصص الكثيرة التي كشفها لي الكثيرون ممن يتواصلون معي، ويجدون فيَّ واحة يأنسون بها من هموم الحياة .

آلمتني رسالتك.. لكنني انتهيت فيها مثلما انتهيتُ في كل رسالة من سواك إلى القول : إنما هكذا هي الحياة التي مثلما تغتني بما هو إيجابي، كذلك تغتني بما هو سلبي، إذ لم يكن من الطبيعي ألا تختبئ خلف كل فرد على هذه الأرض قصة تميزه إن لم تكن قصص عديدة، لذلك فإنني أعدّ الله دائماً الأديب الأكبر في هذا الكون، الأديب الذي يخلق في كل لحظة مع البشر الكثيرين حكاياتهم الكثيرة المتنوعة الجديرة بأن تُقَصّ وتروى عبر الليالي والنهارات .

أستاذ صادق.. لا شك أن إنساناً مثلك ما كان يستحق أن يمر بمثل هذا الظرف القاسي، ولا كذلك أبناؤك الذين أرى أنهم حُرِموا من حقهم في أن يعيشوا في كنف والديهم في بيت واحد، لكن في الوقت ذاته أقول : لولا الجراح الكبيرة في نفوسنا لما امتلكنا ربما، مع الزمن، شفافيتنا وحسّنا الإنساني تجاه الآخرين، أو بالأحرى.. لولا الذي مررتَ به أنت، لما رأيتُ، ربما، دموعك إزاء ما مررتُ به أنا، والعكس صحيح لديّ، فلنبارك جراحنا إذاً.. لنبارك الجراح البشرية جمعاء التي من شأنها دائماً أن توحّد ما بين البشر .

أستاذ صادق... هل تسمح لي بسؤال : من أين أتيتَ بلغتك الرفيعة النقية هذه التي أفتقدها لدى طلابي الذين هم على وشك التخرج من قسم اللغة العربية؟! من أين أتيت بلغتك؟! وقد امتزجتْ في دمائك - كما أخبرتني - دماء أرمنيّة؟!

١٧ /١٠/ ٢٠٠٣

الآنسة الكريمة .. الدكتورة ريم ،
أحييك تحية خريفية.. فالخريف فصليَ المحبب ..
لك كل التقدير لِما انطوت عليه رسالتك من رؤية واقعية، وما أبديته لي من تعاطف نبيل ..
لعله ما كان عليّ أن أضيف إلى ما مرّ بك من قصص محزنة، قصتي المحزنة أيضاً. لكن لا بأس، إذ إنكِ أنت أيضاً قد أنضحتِ دموعي فيما كنتُ أقرأ كتاب سيرتكِ. إذاً فلنعتبر الأمر على أنه واحدة بواحدة .
وأريد هنا أن أقول : إن عينيّ لم تنضحا بالدموع لِما مررتِ به في سيرتك من مِحَن فحسب، بل - كما أسلفتُ في خطابي الأول لك - إن بلاغة التعبير عن بعض الحالات أو الانفعالات الإنسانية يمكن أن تستدر دموعي، كما أن الإفصاح الصادق النابع من الأعماق عن الشكر والامتنان، والعرفان بالجميل.. إنْ صِيغ بأسلوب مؤثر، يمكن أيضاً أن يستدعي دمعي. وهذا ما وجدتُه في كتابك، فللّغة موسيقاها، إذ حين تعبّر عن حالة ما بأسلوب راق، وجرس جميل.. منسجم مع المعنى، يكون لذلك في النفس المرهفة، ما للموسيقى التصويرية من دور في إغناء المشهد السينمائي لجعله مؤثراً في المتلقي. ذلك كما هو الحال مع الأغاني، إذ إنها تكون مؤثّرة، وتطيب للسامع، حين يتواءم لحنها مع مغزى كلماتها، كما في (أعطني الناي وغن، سكن الليل، أيظن، لا تكذبي) على سبيل المثال لا الحصر.
إذن آنستي.. فلولا استشفافي لحِسّك العالي ونقائك من خلال أسلوبك المؤثر.. لما نضحت دموعي إزاء ما مررتِ به في سيرتك. ولولا أني وجدت فيكِ إنسانة تمتاز برهافة ونبل يندر وجودهما.. لما رأيتُني مُنساقا إلى مكاتبتك.
أمّا لغتي هذه التي تفتقدينها لدى طلابك وهم على وشك التخرج، فلا أشك في أنك على يقين من أن التخرج من الجامعة لا يهب موهبة، أو يخلق مَيلاً، أو يُحلّي ذوقاً. وإنه لجليّ أن سؤالك عن منهل لغتي، ما هو إلا تعبير عن إعجابك بالقدر الذي أتقن فيه لغتي، فشكراً لك .
وعن مسألة امتزاج دمي بدماء أرمنية، فلم يكن ذلك لِيُشكّل أيَّ عائق يحول دون ما ترينه من سلامة وجمال في أسلوب كتابتي، سيّما أن أمي لم تكن يوماً متعصبة لعرقها أو دينها، وترى في انتماء الأبناء إلى مِلّة أبيهم أمراً طبيعياً، وهي التي أصرّت على تسميتي (صادق) بالرغم من أنه اسم كان يُعتبر قديم الطراز يوم وُلدتُ، لكنها أصرّت عليه لأنه اسم جدّي لأبي الذي كانت قد سمعتْ كثيراً عن إنسانيته وكرمه وحسن سيرته.
حدّثيني عن حالك في هذه الأيام.. هل تكتبين، هل تؤلفين..؟ وتلك التي أسميتِها في كتاب سيرتكِ (سطوراً جميلة) تلك التي أسالت دمعي.. ما حالها..؟ أتمنى أنها ازدادت جمالاً ومازالت .
بكل المحبة ..
٢١ / ١٠ / ٢٠٠٣

الأستاذ صادق المحترم
تحياتي الطيبة.. رمضان كريم..
لا شك في أنك تمتلك الطبيعة التي رسمتَ أبعادها من خلال الرسالة الماضية، لكن ما أردتُ الإدلاء به هو ما للظروف المؤلمة في حياتنا من دور حيوي في إذكاء هذه الطبيعة، وجعلها أكثر وأكثر توهجاً .

سألتني عن حالي في هذه الأيام... لقد قضيتُ الأشهر البضعة الماضية في نشاطات ثقافية مكثفة، لا أكاد أخرج من أحدها حتى يتم إدخالي في آخر، وذلك من مقابلات صحفية وإذاعية وتلفزيونية، إضافة إلى إشراكي في مهرجان المحبة ضمن أمسية شعرية، وإلى ندوة أقامها البرنامج الإذاعي (كاتب وموقف) في اللاذقية حول كتابي (البصر والبصيرة). ولا شك أن هذه كلها تسرني كثيراً لما تُحقق لي من التواصل مع الناس الذين أحبهم، وأشعر بمحبتهم لي على اختلاف فئاتهم وأعمارهم، لكن لا أخفي بالمقابل ما سببتْ لي من إرهاق، وتوق إلى توزعها، على كثرتها، عبر زمن أطول يتيح لي ما يكفي من التأمل اللازم للكتابة، وإن كنت لا أنقطع عنها ولاسيما الآن ضمن مجال الخواطر التي أمزج فيها ما بين النثرية والشعرية .

لا أدري ما إذا كان بالإمكان العثور على مجموعتَيّ الشعريتين في المراكز الثقافية بدمشق، لأنها لم تعد متوافرة في مركز اللاذقية، لكن بإمكاني أن أرسل إليك مجموعتي الشعرية الثالثة (اسمي والأرض) عن طريق إحدى شركات النقل، لكن بعد علمي برقم هاتفك الذي ستحدده لي .

٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٣

الدكتورة ريم المحترمة ،

خواطرك المنثورة كالزهور على شبكة (صبايا) طبعتها وأخذت أقرأ الخاطرة تلو الخاطرة، وأضع إلى جانب النفيسة منها، إشارة تلو إشارة، وإذ ليس من خاطرة إلا وقد حاذتها إشارة ! ما عساي أقول..؟! هل من إطراء من قرائك حتى الآن لمّا تسمعيه؟! هل من ثناء لمّا تناليه..؟! ماذا أقول ..؟! أنت أعلم الناس بما أنت ..

أشكر لك بادرتك الطيبة بإرسالك لي المجموعة الشعرية المنمنمة الغنية.. وقد سرّتني فيها مفاجأة.. أتعلمين ما هي؟ هي محبتك لجبران .

ريم البحر
يا وديعة كبنفسجة
يا رقيقة كزهرة الياسمين
(اسمك والأرض)* :
وجدانك والسماء
روحك والنجوم
ومضات.. نفحات.. نسمات ..
ليتك حمّلتها نغمات .

ربما حرصتِ على النمنمة.. فأغفلتِ النغمة ..
هل وصلك ما أرسلتُ بـ (القدموس) ؟
تحياتي لك ..
٨ / ١١ / ٢٠٠٣

---

* مجموعة قصائد نثرية بعنوان (اسمي والأرض) .

الأستاذ صادق المحترم

وصلني ما أرسلت إليّ من قصص، وقد انتهيت اليوم من قراءتها، وكتابة التعليقات حولها.

لكن سأتريث في إعادتها إليك ريثما أنتهي من تصويب بعض الهفوات اللغوية الصغيرة التي تخللت الصفحات، وإن كنتُ لن أحذف لك بناء عليها أي درجة .

أشكر لك تلك المقطوعات االموسيقية الجميلة التي عادة ما تنقلني مثيلاتها إلى ذلك العالم النوراني الشذي الذي يريحني من غبار الأرض . كما أشكر لك تلك الكلمات الشعرية الجميلة التي كان لها في نفسي وقع الموسيقى ذاته .

١٠ / ١١ / ٢٠٠٣

الصديقة العزيزة .. الدكتورة ريم ،

استيقظنا اليوم في حلب على طقس شتائيّ موحٍ، وها أنا أقلّب صفحات كتاب قرأته منذ سنين، مستذكراً ما يحتويه من مقالات وخواطر لأديبٍ دمشقي مرموق في عصرنا، قد تقدمتْ به السن، ما تسنى لي من قراءة مؤلفاته سوى اثنين، وكنت قد فقدت الأمل في العثور عليهما - لمرور زمن على نشرهما - لولا المساعي الطيبة للأديب (فاضل السباعي) الذي فزعت إليه بالأمر .

إن ما حفزني للبحث عن مؤلفَي ذاك الأديب، قراءةُ حوار أجري معه في عدد قديم من مجلة (العربي)، ذاك الحوار الذي أفضى إليّ بما لصاحبه من خصوصية أدبية وشخصية فذة.. وتذكرت لحظتها أنني منذ سنين خلت كنت قد تابعت حواراً متلفزاً له مع الإعلامي الرصين (عادل اليازجي) عبر برنامجه (المجلة الثقافية) وكيف جذبني من ذاك الأديب حينها لغة راقية، وتعابير أنيقة.. تحاكي أناقة شخصه اللافتة.. لابد أنكِ عرفتِه.. إنه الأديب الرفيع (الدكتور بديع حقي).. أراه كجبران في أناقة أسلوبه.. عازفاً بالكلمات.. فيراعه لا يكتب..! يراعه يعزف بحس عال، لنفس غاية في الرهافة.. يحزنني أنني ما تمكنت من الاستمتاع بعزف كتاباته.. سوى من كتابين :

(الشجرة التي غرستها أمّي) و (جمرة الحرف وخمرة النغم). لعلك قرأتهما.. فإن لا.. يسعدني أن أرسلهما لك فتطربين بهما .

أمدّ الله أديبنا الغالي بوافر الصحة.. إن هو مازال على قيد الحياة.. ورحمه بواسع رحمته.. إن كان قد حلّق نحو الأبديّة ..

كل عام وأنتم بخير ..

٢٤ / ١١ / ٢٠٠٣

الأستاذ صادق المحترم

أشكر لك ما قمت به حيالي من هذا التنبيه إلى الأديب الشفاف بديع حقي الذي ربما عرفته من خلال حديثك حوله، وكم أشعر بالأسف لإجحافي بحقه حين لم يُتَح لي أن أقرأه وأنا أبحث دائماً عن أمثاله، إذ كم يلزمنا من الزمن للإحاطة ببحار الكتب والكتّاب، لذلك سأحاول إحضار ما يتوفر من أعماله في المكتبات، وإذا أخفقت، فإنني أسألك ما إذا كان بالإمكان أن ترسل إليّ على سبيل الإعارة مما يتوافر عندك منها، مع الوعد بألا أتأخر في ردها إليك كي تعود وتستمتع بقراءتها.

وما دمنا الآن نعيش هذا الجو الذي أحاطنا به الأديب المذكور ومن يماثله كجبران، فإنني سأسطر لك ما أذاعته لي محطة (مونتي كارلو) البارحة مساء من إجابة عن سؤال المذيع (فايز المقدسي) حول المدينة التي أحلم بزيارتها أو الإقامة فيها، وذلك في برنامج (أكثر من صوت) الذي يقدَم يومياً مابين الثامنة والتاسعة مساء في المحطة المذكورة، والذي يطرح كل يوم موضوعاً

جديداً بإمكان أي من المستمعين الإدلاء برأيه حوله إما بصورة صوتية يسجلها المذيع مسبقاً كما هي الحال لديّ، أو مكتوبة عن طريق الإيميل .
وهذا هو ما قلت، مع تمنياتي لك قبلاً عيداً سعيداً في الأيام القادمة وفي كل عام :

" مدينة أحلامي ... هي اليوتوپيا التي لم تولد بعد ... هي التي تسبح في نهاراتها ... ملايين الشموس الدافئة ... وفي لياليها ... ملايين الأقمار ... هي التي أرضها ... بحار من الزنبق الأبيض ... وجزر من المراجيح ... وملاعبِ الأطفال ... هي التي أهلوها ... يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً ... يتناجون بلغة السلام والسكينة ... الأشعارِ والصلوات ... مدينة أحلامي بعيدة ... نائمة في الهناك الهناك ... هي تناديني كي أرحل إليها ... وأنا أناديها ... عبر حمائمها ... كي تحلّ هنا على كوكبنا ... " .
٢٨ / ١ / ٢٠٠٤

صديقتي .. يا زنبقة بيضاء ..
يا لمدينة أحلامك الرائعة..! كيف تقولين هي لم تولد بعد ! بل لقد وُلدت منك ومن أمثالك النادرين . يوتوپياك أحلى وأزهى.. أين منها الأخريات !
لكن أين الأيادي التي ترعاها حتى تكبر.. وهناك من لا يريد لأمثالها أن يرى النور ..!
ما أحوجنا إلى زنابق بيضاء أمثالك في هذا العالم.. لعل البشرية ترفل بالمحبة النقية الخالصة ..
سأكون عاتباً بعد الآن إن لن أعلم منك بأن حديثاً لك سيذاع أو ينشر ..
دكتورة ريم .. منذ الصغر تمتعني القراءة جهراً سيّما إذا كان ثمة من يستمع إليّ مهتماً، أو مستمتعاً، ولازمني هذا الشغف أيام صباي إلى أن صارت إحدى أمنياتي أن أكون مذيعاً في الراديو، ثم في التلفزيون حين انتشر، إلى أن أضحيت شاباً ولم تهيّئ ليَ الأيام ما كنت أصبو إليه، ولم يكن لي من الأصدقاء من يلذّ له الاستماع لمن يقرأ له، فما استطعت إشباع رغبتي تلك إلا وأنا موظف حكومي، إذ تصادف أن شاركني الغرفة زميلان في العمل، استمرأا الاستماع إليّ قارئاً في أوقات فراغنا، ثم انضم إليهما ثالث من غرفة مجاورة. وكي أجعل الملل لا يعرف إليهم سبيلاً، اخترت أن أقرأ لهم رواية شائقة عنوانها (كارِن وحسن) لخليل تقي الدين، كنت قد قرأتها وأنا أمضي مدة الخدمة الاحتياطية ضمن قوات الردع في بيروت عام تسعة وسبعين، وكان أن أعجب الزملاء بالرواية وبقراءتي، فأمسينا أصدقاء .
وهكذا كان يتاح لي بين الفينة والفينة أن أستمتع بالقراءة جهاراً والأصدقاء يصغون إليّ مستمتعين .. كما ولا أمتع ..
واليوم إذ لم يعد حولي من يمتعه الإصغاء للقراءة، كم أتمنى لو أننا، أنا وأنت، نعيش في مدينة واحدة، لعلك تقبلينني قارئاً - بعد إذن الآنسة القارئة - فأهنأ بالجلوس إليك، وبالقراءة لك، كما ولا أحلى ..
عيد أضحى مبارك لكم جميعاً ..
٢٨ / ١ / ٢٠٠٤

الأستاذ صادق المحترم
تسعدني سطورك التي تستوقفك من خلال قراءاتك مثلما كانت تسعدني سطورك التي تكتبها أنت، وإن غدوتُ أتوق إلى هذه الأخيرة التي تصدر من داخل ذاتك .

لا أدري كيف أعبّر لك عن سعادتي بمؤتمر الطفولة الذي اشتركت فيه، ذلك بدءاً من دعوتي التي دلتني على مدى إحساس الآخرين بأحاسيسي المرهفة تجاه قضية كهذه، قضية الطفولة، وكم أسعدني الأطفال أنفسهم حين قدّر لي، في ساعات الافتتاح، أن أجلس محاطة بهم وسط الزحام الشديد محتملة شغبهم وارتطاماتهم التي أخذت تتوالى عليّ في كل لحظة، أو كلما أرادوا النهوض والتحرك، والتي حملت من ترافقني على الاستغراب من صبري المبتسم تجاههم، إذ كانت إجابتي دائماً : ألم آت إلى هنا من أجلهم . بل كم أسعدتني إقامتي في ذلك الفندق (شهباء الشام) الذي أشعرني بكل من فيه وما فيه بأنني في بلد غربيّ من حيث الرقي في التعامل وتأمين ما أمكن من وسائل الراحة والرفاه . وهكذا إلى أن أن امتدت سعادتي نحو جلسات المؤتمر الذي اخترت منه محور حماية الطفل من العنف والأذى، ورعاية المعوقين، نظراً لما أتيح لي من بث أفكاري التي كنت أشعر من خلال كل كلمة فيها براحة الضمير تجاه هذا المخلوق الضعيف الذي يحتاج إلى من يفكر به ويبدي اهتمامه. لكن مقابل ذلك كله، كم أحزنني ما اطلعت عليه - من خلال محاضرات المحاضرين القائمة على الإحصاءات الواقعية الدقيقة من أوضاع الأطفال المزرية في بلدنا، بل في وطننا العربي، امتداداً نحو العالم الثالث، وذلك بدءاً مما يتعرض له، ولاسيما في البيئات المتدنية، من أشكال العنف البيتي، ومن ثم العنف المدرسي، ومن ظروف غير ملائمة في مراكز الأحداث والمعوقين، ومن اعتداءات تحدث ضده من القريبين والبعيدين، هذا بالإضافة إلى حرمان أهله إياه أحياناً من التعليم بغية إخراجه إلى العمل أو التسول أو الخدمة .

ومجمل القول : هذه هي الحياة، إنها منطوية دائماً على جانبيها المشرق والمظلم، المفرح والمؤلم، إنها إن أسعدتنا من ناحية، فلا بد من أن تحزننا من ناحية أخرى، والعكس صحيح .

وفي النهاية ، كم كنتُ، أستاذ صادق، أتوق إلى التقائك، وأن نحتسي القهوة في فندق الشهباء خلال نصف الساعة التي كان مقرراً أن تشكل فترة استراحة ما بين جلسة وأخرى، لكن للأسف، كانوا في كل مرة يأخذونها كلها، ولا يبقون منها سوى خمس دقائق لا أكثر .

لقد كنت سعيدة جداً في بلدك، وللمرة الأولى . وبرغم ما لديّ مما يسمى بالنوستالجيا ، كنت لا أرغب في العودة من هناك إلى بلدي .

٢٠٠٤ / ٢ / ٢١

آنستي الفاضلة .. الدكتورة ريم ،

أغبطك على أيامك الحافلة بمناسبات توفر لك مادة للحديث عنها وعن انطباعاتك حولها.. وعلى الوقت الوافي والجو الهادي الذي يُعينك على التعبير عما يجول في ذاتك الطيبة من خواطر وفكر، بين الفينة والفينة، بموهبة عالية ..

أمّا أنا، فحياتي الرتيبة لا تمدني بأحداث جديرة بأن أحدثك عنها بين آن وآن، فإن كانت طبيعة عملي تتيح لي فسحة لا بأس بها للقراءة، إلا أنها لا تهيّئ لي المناخ الملائم للتأمل والكتابة. أمّا بيتي بمشاغله، ومع وجود الشاشة الصغيرة، فليس ملائماً البتة للكتابة، ولا حتى للقراءة. أضيف إلى ذلك كله أنني من النوع (السكّيت) إلا فيما ندر، أي أن جوابي غالباً ما يكون على قدر السؤال، ولا أعدّ ذاك فيّ من المحاسن. كنت أود أن أكون نصف ثرثار، علّي أشبع توقك بكتابات تصدر، دائماً، من داخل ذاتي كما ترغبين، إلا أنني للأسباب الآنف ذكرها مجتمعة، ارتأيت أن أنتقي لك سطوراً من قراءاتي، لأتمكن من التواصل معك، وهي عموماً، لن تكون مجرد سطور استوقفتني، بل تعبّر عني ولو كانت صادرة عن غيري .

تُرى.. في رحلتي القادمة إلى بلدك، أأكون سعيداً جداً، وللمرة الأولى، فلا أرغب في العودة منها إلى بلدي؟ لابد سأكون .
٢١ / ٢ / ٢٠٠٤

هبة الكريمْ
درّةٌ مكنونة
كنزٌ عميمْ ..
آيُ جمالٍ تجلّت
روضاً من نعيمْ ..
إنها ريمْ ..
نور تبدّا
أحالَ حُلكةَ المدى
ضياءً .. سَنا ..
أنبتَ القفرَ شَتلاً
سريلَ وجدانيَ هَنا ..

آنستي الدكتورة .. هي محاولة من صميم ذاتي.. ترى هل وُفقت ؟
٢٢ / ٢ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
مؤكداً وُفقتَ في هذه السطور التي بدت لي أجمل من المصدر الذي أوحى إليك بها. إنها سطور زادت من اقتناعي بأن فيك أديباً مخبأً لا أدري لماذا تحذر من أن تظهره للآخرين ! لذلك.. وبناء على رغبتي في أن تعيش على الأقل الأجواء الأدبية والثقافية، أقترح عليك الآن ما نسيتُ أن أقترحه في الرسالة السابقة، وذلك بأن تبدأ بالتواصل مع أديبة مقيمة في حلب، قد حظيتْ منذ سنوات بالكثير من محبتي وتقديري لما تحمل من روح إنسانية عالية، وقدرة على العطاء قد تمثلت لي بصورة رئيسة في تعريفي بالعديدين من أديبات وأدباء حلب.. إنها السيدة ليلى المقدسي، أخت مذيع مونتي كارلو فايز المقدسي . أنصحك بمصادقتها من خلال المبادرة بالاتصال بها إذا شئت، وأنا واثقة بأنك لن تندم أبداً، نظراً لما ستفتح أمامك من باب واسع على عالم ثقافي واسع سيغني حياتك، وأفترضك أنا فيه أصلاً. وقد حدثتها عنك حين كنتُ في حلب، فأحسست بأنها أبدت تشوقاً صامتاً للتعرف عليك . أعود لأقول : إنّ هذا ما أقترحه اقتراحاً، فإذا وافقت عليه، أرجو إخباري لأذكّرها قبلاً باسمك، وإذا لم توافق، فلا تحرج نفسك. وعلى أي حال، إن رقم هاتفها هو .....
ريم
٢٣ / ٢ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ،
أشكر لك ما أبديته لي من تشجيع، وقد غاليتِ وأنت ترين سطوري أجمل من المصدر الذي أوحى

إليّ بها. كما أشكر لك رغبتك في أن أستمتع بالأجواء الأدبية والثقافية من خلال ما اقترحت عليّ .
لقد أثرت فضولي للتعرف بالسيدة الأديبة من خلال كلماتك عن خصالها الراقية، إلا أن إحساسك بأنها قد أبدت تشوقاً صامتاً للتعارف، حين حدثتِها عني، أمر يدعو إلى التساؤل.. إذ ربما يكون تشوقاً حقيقياً، أو تشوقَ تأدب ومجاملة.. كيف لنا أن نعرف؟
وأتساءل : هل تنوين بتعريفي إلى غيرك، صرفيَ عن إشغالك بعبء الرد على فاكساتي؟ مزحة.. صدقيني هي مجرد مزحة، ولو كانت سمجة .
إليك أطيب أمنياتي ..
٢٥ / ٢ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق المحترم
أبهجتني مزحتك اللطيفة ... أضحكتني طويلاً ... أنا ومن تقرأ لي ... إلى درجة جعلتني أشطّ عن التركيز اللازم لتصحيح ما تبقى من الدفاتر الامتحانية، فجاء هذا ربما لصالح بعض طلابي الذين قد أكون سهوت عن بعض أخطائهم. على أي حال: إن السيدة ليلى اعتادت أن تعرفني بمن لا أعرف، لا أن تسلبني من أعرف، ولو لم يكن الأمر كذلك لما اقترحته عليك مطلقاً .
أما بالنسبة إلى ما استوقفك من قولي حول إبدائها التشوق الصامت، فأعتقد أنني أنا التي لم أحسن التعبير، وقد تنبهت إليه، لكن بعد فوات الأوان، إذ كل ما في الأمر، أنني حين ذكرت لها اسمك، وأخبرتها عن اهتمامك بالثقافة والأدب ... وقفتْ أمامي مستغربة من عدم حدوث الفرصة التي كان من المفترض أن تتيح التقاءكما، ولاسيما أنك في حلب، أو أنها بالأحرى تبدي دائماً من رحابة الصدر إزاء اتصالات الآخرين وزياراتهم، ما هو كثير .
وخلاصة القول : إن السيدة ليلى في انتظار اتصالك .
٢٦ / ٢ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم الكريمة ،
وأنا أجالس السيدة ليلى، في أول زيارة، لمست فيها إنسانيتها السامية، وطيبتها اللامتناهية، مما جعلها تعاني مثلما يعاني معظم الطيبين في هذه الحياة من جحود ونكران.. وقد أهدتني ثمانية كتب من مؤلفاتها، وكنت سعيداً بالساعات الثلاث التي أمضيتها بضيافتها.. فشكرا لك ..
واليوم اتصلتُ بها علّي آنس بجلسة معها، وإذ بها تُنهي إليّ نبأ مرض شقيق لزوجها يكنّ لها وتكنّ له كل المحبة والتقدير.. وكان الحزن بادياً في صوتها، فكان أن أرجأنا الجلسة إلى يوم تراه مناسباً فتتصل بي . وفي مهاتفة سابقة، على عجل، علمت منها أنكما تتهاتفان من حين إلى حين، وأنكما تحدثتما عني.. ما قلتما يا ترى ؟
وأنت أيتها الرقيقة الرهيفة.. يا ذات الخصال.. هل مازلت منكبّة على دفاتر الامتحانات، أم بات لديك شاغل آخر ؟
تحياتي لكم جميعاً ..
٧ / ٣ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق المحترم
سرني جداً تعارفكما، لما حدث فيه مما توقعتُ من الانسجام كما أخبرتني السيدة ليلى، إذ أخذت

تمتدحك طويلاً ، لما لمست فيك من الخصال، ثم استكملتْ حديثها بإبداء تعاطفها إزاء ما أعلمتـها به أنت من تفاصيل وضعك العائلي التي لم أكن أعلمها قبلاً ، والتي تحرجتُ من أن أسألك عنها بعدما أشرتَ إلى مقدمتها في بداية تعارفنا، إذ ليس من عادتي أن أسمح لنفسي بالتطفل على خصوصيات الآخرين، بل أترك لهم هم أن يخبروني بها إذا شاؤوا، لكي أبدي من رحابة الصدر لدى تلقيها. وعلى أي حال، إن السيدة ليلى بالمقابل، كانت قد أخبرتني أنكما تحدثتما عني أيضاً، فحول ماذا كان الحديث يا ترى .. بالخير إن شاء الله ؟
إنني لاأزال منشغلة بتصحيح الدفاتر الامتحانية التي تجعلني أخشى على نفسي من أن أضيع بين تلالها، هذا إلى جانب ما يتسم به العمل فيها من ثقل ورتابة يكبلانني كل يوم ساعات طويلة، إضافة إلى ما قمت به مؤخراً من النظر في رواية أولى لصديق والدي، ورواية أولى لابنة صديق آخر لوالدي قبل طبعهما. ويومياً أقوم بالقراءة، وبإجبار نفسي على الكتابة لكي أظل أتذكر اتصالي بعالم الأدب، وأزوّد أسبوعياً موقع الإنترنت بما هو جديد .
مع تحياتي الطيبة .
٢٠٠٤ / ٣ / ٨

دكتوره ريم ،
السيدة ليلى لفتت انتباهي إلى سلسلة (آفاق ثقافية) تصدر شهرياً عن وزارة الثقافة، وصديقتنا مواظبة على اقتنائها. وقد جاء العدد السابع منها بعنوان (الأوراق) وهي مقالات مختارة في الأدب والفن والاجتماع، لكاتبها الدكتور (إبراهيم الكيلاني) صديق العمر لأديبي الأثير الدكتور بديع حقي. طفقت أبحث عن هذا العدد رغم أن السيدة ليلى كانت كريمة برغبتها في إعارته لي. عثرت عليه في إحدى المكتبات، ليطالعني أول مقال فيه للدكتور الكيلاني يقول :
((... إنّ تمثل الآثار الفذة أو آثار أيّ عبقري، يُظهر لك وهَن التقسيمات التي لجأ إليها البلاغيون المدرسيون، والباحثون أنصار التفريق بين المعنى والمبنى في كلامهم عن الأساليب البيانية، ولم أر فيما قرأته في هذا الباب أدق وأجمل من عبارة للشاعر (فيكتور هوغو) يقول فيها " ... وفي الواقع إذا أردنا أن نرتفع إلى ذلك العلاء الذي يوجز كل شيء لنشهد الفن حيث تختفي الفوارق كما تختفي الهضاب، فليس ثمة معنى ولا مبنى بل، وهذا لعمري كل شيء، انبثاق هائل للفكر حاملاً معه التعبير، وقذف البركان لكتلة متكاملة هي بمثابة معدن البرونز بين الحمم، أو التمثال بالنسبة للقالب، واندفاع رائع للفكرة المزودة بالأسلوب ". إن التعبير كالفكرة يظهر للوجود بصورة حتمية، وهو، أي التعبير، لا يقل أهمية عنها، فيتم تلاقيهما الخفي في الأعماق، فتكتسي الفكرة رداءها، ويأخذ التعبير في التصعيد، فيصل الاثنان متداخلين حتى يغدو تزاوجهما اتحاداً. فالفكرة هي الأسلوب، والأسلوب هو الفكرة، وإذا ما حاولت أن تنزع الكلمة، فإنما تنتزع الفكر، فإن تعبير الفكر هو ما يجب أن يكون، أعني به رداء من نور على جسم من فكر، لأن العبقري في هذا الإبداع المقدس الذي نسميه الوحي، يفكر بالكلمة والفكرة في آن واحد. أذكرُ هذا لترى أنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلاً، التفريق بين ما نسميه أسلوب الكاتب وبين أفكاره وشعوره ونظرته للوجود، فالأسلوب مادة ملازمة للفكرة والعاطفة وكل ما يصدر عن الوجدان ...)) .
نعم دكتوره، وخير مثال، ما يتبدّا جلياً في أدب بديع حقي. وإني لأرى فكرة الاندماج تلك تنطبق على الأغنية، كلمات ولحناً، فطوراً يجيء اللحن لباساً يزيد من جمال القصيدة، وطوراً ينتقص منه، فنلقى القصيدة في واد ، واللحن في واد آخر .

٢٨ / ٣ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
إن القضية التي تطرقتَ إليها هي من أكثر القضايا إشكالية، ومدعاة للتفكير المتأني، والبعد عن الأحكام النهائية. فقد تم التباين في المواقف إزاءها ما بين مذهب ومذهب، وبصورة أشمل ما بين القدماء والمحدثين، القدماء كان معظمهم يؤكدون الانفصال مابين العنصرين المشار إليهما : اللفظ والمعنى – المبنى والمعنى – الشكل والمضمون، والدلالة على ذلك ما كانوا يبدونه أحياناً من اهتمام بأحدهما على حساب الآخر، كالجاحظ الذي اهتم بالألفاظ اعتقاداً منه أن المعاني مطروحة في الطريق . هذا إضافة إلى ما كان يقوم به هؤلاء القدماء في أحيان أخرى من تقصي الجودة أو الرداءة في كل منهما بصورة مستقلة كما لدى ابن قتيبة الذي قسم الشعر بناء على هذا إلى أربعة أضرب. في حين بدأ المهتمون في هذا المجال منذ العصور الحديثة يجنحون إلى الاعتقاد بما اعتقده كل من (هوغو) و (الكيلاني) على سبيل المثال، وذلك من حيث عدم إمكان الفصل ما بينهما، وتشكيلهما معاً كلاً واحداً متكاملاً، يسهم في تكوين التجربة الإبداعية. هذا فيما يتعلق بالقدماء والمحدثين، أما فيما يتعلق بموقفي أنا شخصياً، فلاأزال مترددة حائرة وسأبقى أمام المذهبين، نظراً لتبصري بالصواب في أحدهما أحياناً، والآخر أحياناً، إذ إنني من خلال تجربتي الكتابية يتبين لي تارة أن النص يتدفق من داخلي دفعة واحدة نامة على ذوبان العنصرين في بعضهما بعضاً، وتارة أقضي أياماً وأياماً من أجل البحث عن كلمة أو عبارة أو صورة تسهم في الدلالة على ما أريد وفي لوحة أكثر فنية وجمالية، هذا أمر قائم لا نستطيع أن ننكره، مثلما لا نستطيع أن ننكر بالمقابل حالة الاندماج والتزاوج التي تمت الإشارة إليها، وإلا فكيف وُجد كل من مذهبي الطبع والصنعة. إن العملية الإبداعية برغم خوضي فيها أحياناً بصورة يومية، لاتزال غامضة علي، وعلى المبدعين جميعاً كما أعتقد، لأنها تبقى في النهاية عملية داخلية تجري في أعماق أعماق نفوسنا، وما يعني هذا من امتلاكها سرّيتها حتى حيال أصحاب هذه النفوس، شأنها في ذلك شأن ما يتعلق بالوردة التي لا ندري ماذا يجري في داخل بذرتها قبل أن تتفتح بألوانها وشذاها، هل الألوان والشذى يتكونان معاً ؟ أم كل على حدة ؟ من يدري ؟ إن العملية الإبداعية هي عملية الخلق، الخلق الإنساني الذي لا يمكننا الدهر بأكمله الإحاطة بآليته .
أخيراً أستاذ صادق، أشير إلى أن برنامج (أكثر من صوت) أصبح موعده مؤقتاً ما بين السابعة والثامنة مساء بعدما كان ما بين الثامنة والتاسعة، بناء على التوقيت الصيفي الذي سبقتنا إليه باريس منذ يومين، لكنه سيعود إلى ما بين الثامنة والتاسعة في يوم الجمعة الذي سنخضع نحن فيه أيضا لهذا التوقيت، كما أشير إلى أنه إضافة إلى ما سيذاع لي في يوم الأربعاء في البرنامج المذكور، من المحتمل أن يذاع لي أيضاً في هذا اليوم الثلاثاء، حديث بمناسبة ذكرى الفنان عبد الحليم حافظ، إذ من الممكن أن أتحدث لدقائق عن تأثيره البعيد في تجربتي الحياتية والإبداعية .. ولك تحياتي ..
٣٠ / ٣ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
هل قرأت رواية (السجينة) لمليكة أوفقير ؟ إذ أرغب، إذا لم تقرأها، بأن أهديك نسخة منها، لكي

تجود عليها بدموعك السخية، وذلك كما أنا التي وضعتُ في أثناء قراءتها بجانبي علبة مناديل .
٢٠٠٤ / ٣/ ٣١

دكتوره ريم .. طاب نهارك .. وكل ربيع وأنت بخير .
أتفق معك فيما أدليت به من رأي حول المعنى والمبنى في العمل الإبداعي، وقد أعجبت بالنحو الذي به تناولت الموضوع، واسمحي لي أن لا أرى ضرورة تحميل القضية أكثر مما ينبغي لتضحي من أكثر القضايا إشكالية، ومدعاة للتفكير المتأني.. وبكل بساطة أقول : لا أعتقد أن هناك من لن يثني على أن يأتي المبنى موائماً للمعنى، وأن لا يكون أحدهما على حساب الآخر .
حاولت أن أجلس إلى المذياع أول أمس في السابعة تماماً، إلا أنه لم يتسن لي ذلك إلا في السابعة والربع، أي بعد أن مضى على حلقة (أكثر من صوت) عشر دقائق، فإما قد فاتني حديثك في تلك الدقائق العشر، وإما أنك لم تشاركي يومها. أما البارحة فقد حرصت جداً على ألّا يفوتني شيء من الحلقة، وكنت سعيداً بسماع صوتك تعلقين على موضوع الحلقة، ولكنتُ أسعد لو كنتِ أنت ضيفتها. ويبقى فيّ توق كي أطّلع على مدى تأثير الفنان عبد الحليم حافظ في تجربتك الحياتية والإبداعية ..
لك كل الشكر والامتنان لمبادرتك بتزويدي بدراستك عن (حركة النقد العربي الحديث حول الشعر الجاهلي) ، وذلك حالما علمتِ برغبتي في قراءتها .
نعم آنستي.. منذ حوالي خمس سنين قرأت رواية (السجينة) لمليكة أوفقير عن ترجمة للأستاذ ميشيل خوري، بعد أن تابعت مقابلة متلفزة بين مليكة ومضيفتها الإعلامية جيزيل خوري من خلال برنامج (حوار العمر)، وقد شعرت بتأثر بالغ لما أصابها وأسرتها، وكان للمسؤولين عن عذابهم أعنف الشتم واللعن في سرّي .
شكراً جزيلاً لرغبتك في إهدائي نسخة من الرواية، فرغبتك هذه هي هديتي، وأنا أعني ذلك، ولا أقوله مجاملة .
لك خلص مودتي ..
٢٠٠٤ / ٤ / ١

أستاذ صادق المحترم
طاب نهارك، وأتمنى أن تكون حياتك ربيعاً دائماً، وأزهاراً مفتحة في حقول أيامك .
إنني أقرأ الآن مجموعة بديع حقي (نجوى زهرة البوكسيا) ولعل أول ما يمكن أن أدلي به حولها هو أنني حين أعجب بكتاب ما أتباطأ في قراءته وأتباطأ كي يتاح لي أكبر قدر من المتعة به وأطوله، وهكذا حتى أصل إلى نهايته متأسفة عليه، متمنية أن أحظى بما يماثله تأثيراً في نفسي. وهذا هو ما حدث معي بشأن الكتاب المذكور . من جانب آخر أرجو ألا تظن فيّ المجاملة أو المبالغة إذا ما ذكرت أنني لمست تقارباً واضحاً بين أسلوبك وأسلوبه، إذ كلما بدأتُ بقراءة قصة له أتصور أنني أقرأ واحدة من قصصك الثلاث التي سبق أن أطلعتني عليها، لذلك لا أدري ما إذا كان هذا يشكل سبباً آخر في إعجابك به وميلك إليه ولو بصورة لا شعورية، وذلك إلى جانب السبب المتحدد في كونه كاتبا عظيماً . لكن هناك أمرين استوقفاني في الأديب : أحدهما تشكيل الموت هاجساً دائماً يشغل تفكيره بأكمله فيما يبدو، إذ لم تخلُ من التطرق له حتى الآن واحدة من قصصه، وهو ربما له في ذلك مبرره كإنسان سيؤول حتماً إلى هذا المصير، لكن حبذا لو وسّع رؤيته أكثر ليواكب مع صورة

الموت هذه صورة الحياة التي تقابلها، وتشكل – هي الأخرى – مصيراً مسبقاً للإنسان. أما الأمر الآخر الذي استوقفني، فهو الغرائبية التي تبدو للوهلة الأولى مغلّفة دائماً أعماله، هذا وإن كنا لا نستطيع أن ننكر أن هذه ليست حقاً سوى تجسيد للواقع الغريب الذي نعيشه في كثير من الأحيان. سألحق هذه الرسالة خلال الأيام القادمة رسالة مكملة أنقل فيها مفارقة تلمستها من خلال قصة (حقي) الأولى التي حملت عنوان المجموعة، وذلك بشأن إحدى قريباتي . أما الآن وبرغم تحرجي من الإطالة، فلا أرى بداً من تلبية رغبتك بتدوين المداخلة التي كنت أنوي تقديمها حول تأثير الفنان عبد الحليم حافظ في تجربتي ضمن برنامج (أكثر من صوت) والتي عدلتُ عن الإدلاء بها باتفاق مع الأستاذ فايز المقدسي بسبب زحام الأصوات التي كانت ستشارك – هي الأخرى – ضمن الحلقة التي خُصصت للفنان. وإليك المداخلة :

" حين كنتُ أنصت إلى أغنيات عبد الحليم، وأتبين من خلالها تلك النبرة الحزينة المتألمة بفعل يتمه ومرضه، تعلمتُ منه كيف يمكن للألم أن يشكل مصدراً لإبداعنا، وكيف يمكن أن يضفي الجمال والضياء، عبر الأزمنة والأمكنة، على هذا الإبداع. حين كنتُ أنصت إلى أغنيات عبد الحليم التي كانت تبدو لي، برغم فنيتها وجماليتها، وكأنها مرسومة بالمسطرة بفعل دقته في اختيار الكلمة واللحن، وفي تدخله بقيادة الفرقة التي ترافقه، تعلمت منه كيف ينبغي على الإنسان أن يكون متقناً أي عمل ينجزه احتراماً لنفسه بما تنطوي عليه من طاقات وقدرات ، وللآخرين الذين يتلقون عنه بما ينطوون عليه من أذواق وأحاسيس. حين كنتُ أعلم عن عبد الحليم ذلك التعامل الإنساني مع الناس على اختلاف شرائحهم، تعلمت منه كيف ينبغي على المبدع أن يكون دائماً هكذا إنسانياً متواضعاً، لأنه في النهاية ليس سوى ناطق بمشاعر البشر وأفكارهم وأحلامهم. ولعل أكثر ما استوقفني بهذا الصدد أنه كان واقفاً يوماً بإحدى نوافذ بيته يتفرّس في الطرقات والمارة، فلمح شخصاً جالساً على الرصيف مستسلماً لحزنه وبؤسه، فنزل إليه، وأخذ يواسيه بما لا أعرف من الوسائل، حتى قلب حال هذا الجالس البائس إلى الفرح والغبطة. سنوات طويلة مضت على رحيل عبد الحليم، لكنني إلى الآن أتذكر كيف كان وقع ذلك النبأ عليّ، وكيف خسرت لأجله الدموع الكثيرة، لأنني حينئذ، في تلك السن المبكرة ، كان جديداً عليّ أن أدرك كيف نخسر الثمين في هذه الحياة .

شكراً .. وآسَف للإطالة .

٣ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..

استلمت رسالتك صباح اليوم، إذ كنتُ البارحة في رحلة دامت يومي الجمعة والسبت، من الرحلات التي ينظمها شقيقي شادي بين فترة وأخرى، والتي قلّما أشارك فيها. وكنا هذه المرة في مصيف (مشتى الحلو) لكنه في هذا الوقت من السنة لا يُعد مصيفاً بل مشتىً حقيقياً (اسم على مسمى) . استمتعنا بالطبيعة الخلابة هناك، وبالخدمات الممتازة في الفندق الذي ضمّنا، فليتك كنت معنا . ليت الله يحقق أمنيتك فتكون حياتي ربيعاً.. إذ هل في أيامي حقول لتتفتح فيها الأزهار ! نخلة فريدة هي في صحراء أيامي، قد أنعم الله بها علي، أتفيأ بظلها، أقطف وأتغذى من رطَبها.. تساوي جميع الأزهار والورود.. ولا أحسب أنها عنك بخافية. وهنا تحضرني أبيات للشاعر علي الجندي لما تزل في ذاكرتي باقية منذ يفاعتي، كنت قرأتها في ديوان له في مكتبة عمّي، تقول :

هزّي بجذعك هزّي
يانخلةً في الفيافي ..
وعربدي واستفزي
نارَ الهوى والقوافي ..
وحيدٌ أنتَ ..
لا شيءَ على شطِّ الأعاصير
فمرّغ وجهكَ المغرور
في وحلِ الدياجير

رغم أن الشاعر يصف حال العرب وقد مُنوا بنكسة حزيران، إلا أن ثمة نخلة وفيافي ووحدة .. كما في صحراء أيامي .
تحياتي لك ..
٤ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتورتي الفاضلة ريم ..
تتساءلين ما إذا كان التقارب بين أسلوبي وأسلوب بديع حقي في الكتابة يشكل سبباً من أسباب إعجابي به وميلي إليه ولو بصورة لا شعورية. هذا جِدُّ ممكن، لكني أرى أن التماثل فيما بيننا هو من حيث النظر إلى الأشياء وإحساسنا بها، وانفعالنا بانعكاسها في نفسينا. هذا ما أراه الأساس فيما يشدّني إلى هذا الأديب، فحين يعبّر أحس أن روحه توأم لروحي.. بمعنى أن تأثره بأمر ما أو مشهد ما يماثل تأثري لو أني صادفت الأمر أو المشهد ذاته. أما فيما يخص الأسلوب، فملاحظتك في محلها، فربما تشابه أسلوبينا هو سبب آخر من أسباب انجذابي لهذا الأديب، رغم امتياز أسلوبه على أسلوبي .
هل أفهم أنك لا تحبذين الغرائبية في الأعمال ولو كانت تجسيداً للواقع الغريب الذي نعيشه في كثير من الأحيان؟ أمّا أنا فمع الغرائبية التي تقبلها النفس فلا تنفر منها.
أنتظر رسالتك التي ستنقلين فيها إليّ مفارقة تلمستِها من خلال القصة، بشأن إحدى قريباتك .أرجوك دكتوره ألا تتحرجي من الإطالة في رسائلك إليّ، فإطالتك تسعدني .
ترى هل كانت نظرة أحد غيرك من المعجبين بالفنان عبد الحليم حافظ، على امتداد الوطن العربي، كما كانت نظرتك إليه؟ وهل تعلّم منه أحد من معجبيه ما تعلمته أنت؟ لا أظن .
حبذا لو يطلعوا على مدى تأثير ذاك الفنان في تجربتك الحياتية والإبداعية ..
سلّمك الله وحفظك ..
٥ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
تعقيباً على قصة (نجوى زهرة البوكيسيا) أحكي :
بعد إخفاق أحد أخوالي في الارتباط بفتاتين اثنتين، ارتبط بفتاة ثالثة، قد عثر فيها على مصدر سعادته وانطلاقه اللذين كان قد افتقدهما قبلاً. وما إن مضت بضعة أشهر على وقوفهما معاً بلبلين غردين فوق غصن الشباب والفرح، وكان هذا عام ١٩٧٦، حتى بدأت الفتاة تشكو من أعراض غير

مريحة في معدتها، وما إن راجعت أحد الأطباء، حتى زادها وزاد خالي تخوفاً وتوهماً، إذ أعلمها أن كتلة كبيرة الحجم توجد في جوفها. وهكذا تم تحويلها إلى إحدى مشافي حلب لإجراء عملية جراحية يمكن من خلالها أن يتبين ما ينبغي تبينه. وما إن خرج الأطباء من غرفة العمليات حتى صاحوا مندهشين أمام خالي وأخيها : تسع وتسعون بالمئة حالة سرطانية، فسقط الاثنان أرضاً. وبدأ انشغالنا وانشغال أهلها بهذا اللامتوقع الذي طرأ منتحبين.. متحسّرين.. على صبا الفتاة تارة، وتارة أخرى على حظ خالي الذي تبين سوءه للمرة الثالثة بعدما كان يبشر بطلوع نهار مضيء. وتم التحاور في أول مجلس ضمّنا بعد ذلك العمل الجراحي بشأن تحليل خزعة من الأورام العديدة التي اكتشفت، إما لتوثيق ما ذهب إليه أطباء حلب، وإما للحظوة بفرج الواحد بالمئة الذي عُلّقتْ عليه الآمال الهزيلة . ودار الحديث حول المخبر الذي يمكن انتقاؤه من بين الاثنين اللذين لم يكن يتوافر سواهما حينئذ في سورية، وهما مخبر الدكتور إياد الشطّي، ومخبر الدكتور كنعان الجابي، وأنا لا أدري إلى أي منهما تم اللجوء، لكن ما أدريه هو أن حالة الفتاة تثبتت سرطانيتها مئة بالمئة، وأنها حُوّلتْ بعد ذلك للعلاج بالجلسات الكهربائية التي كانت هي السائدة قبل الكيميائية. ليس من داع للدخول في التفاصيل الكثيرة حول ما انتاب نفسي التي كانت لا تزال هشة حيال مثل هذا الحدث الكبير عليّ، إذ كيف كان بإمكاني أن أستوعب شهود صبية، هي في أوج تفتحها، تذوب يوماً بعد يوم حتى وصولها إلى وزن طفلة في العاشرة، كيف كان بإمكاني أن أستوعب أن واحدة هي اليوم جالسة بيننا، ستأتي في الغد يد القدر القوية لتنتشلها عنوة إلى عالم آخر بعيد.. وأي سبيل كان عليّ أن أتخذه كي أخفف من دموعي الآخذة في الانهمار والانهمار، ولاسيما حين كانت تتردد في نفسي وصيتها بألا ينتزعوا قبل دفنها الخاتم الذي وضعه خالي في أصبعها؟ "يا بابا هذه ستموت" يقول أبي . "يا ماما هذه ستموت" تقول أمي، فعليك أنت وإخوتك أن تداروا مشاعرها قدر الإمكان قبل أن يحدث ذلك . ستموت إذاً .. أتحاور أنا ونفسي.. كيف يكون الموت لمن يماثلونها ؟ ألا ينبغي أن يقتصر فقط على كبار السن؟ لكنني سرعان ما كنت أعقّب على تصريحات والديّ القاطعة : بل إنها لن تموت. يندهش الوالدان : كيف؟! أجيبهما بالصمت تارة، وبالقول تارة : إن تفاؤلها بالحياة الذي يبدو لي واضحاً برغم كل شيء لا يمكن أن يجعلها تستسلم للرحيل. يعقّب الوالدان : هذا ما نأمله . ويسود الصمت الحزين أو الباكي. وهكذا مضى اليوم بعد اليوم، الشهر بعد الشهر، العام بعد العام، ونحن موزّعون ما بين القلق من أن يحدث أي شيء في أية لحظة، والطمأنينة لعدم حدوث أي شيء، وهكذا وهكذا.. إلى أن مرّ حتى الآن ثمان وعشرون عاماً، لتبقى زوجة خالي بيننا، تزورنا ونزورها، تهاتفنا ونهاتفها، ولأقرأ في هذه الأيام قصة بديع حقي (نجوى زهرة البوكيسيا) التي علمتُ من خلالها أن الدكتور كنعان الجابي الذي كان واحداً من اللذين علّقنا عليهما أمل الواحد بالمئة بالنسبة إلى مريضتنا، لم يمهله الزمان بعد بدء حالتها الخطيرة التي نجت منها، أكثر من ست سنوات .

٢٠٠٤ / ٤ / ٩

دكتوره ريم ..

أسعدت أوقاتاً.. أنا الآن في حيرة من أمري! والسبب هو أنني لا أعلم أياً من أمرين أنسَب لك : هل أرسِل لك نسخة من كل كتاب أتمكن من الحصول على نسختين منه من مؤلفات بديع حقي، أم لا ؟

أرجو التريث قبل أن تجيبي، إذ ربما تكونين قد اكتفيت بما أرسلته لك لسببين : أولهما أنه حتى لو أعجبت بالأديب، ليس بالضرورة أن تكوني مأخوذة به بالقدر الذي أنا عليه. وثانيهما أنه لكي تقرئي كتاباً، أمر يستلزم عناء القارئة بتسجيل ما تقرأ على شريط، وإلى ذلك تخصيصك وقتاً للاستماع ربما يكون على حساب شاغل آخر أجدى لديك. ومن نحو آخر، ربما يسعدك الاطلاع على المزيد من كتابات أديبنا.. لكنك تتحرجين من أن تصرّحي لي بذلك كي لا أتكبد ما تعدينه عناء لي .
فأحب أن أقول : أنا ما زلت أسعى للحصول على كامل مؤلفات الدكتور بديع، ولا أعلم كم سأوفق في مسعاي، فحتى الآن قد انضاف لما لدي من أعماله رواية (جفون تسحق الصور)، ورواية من مترجماته (ولاتزال الشمس تشرق)، ومجموعة قصصية (التراب الحزين)، وكتاب (قمم في الأدب العالمي) . وأنوّه إلى أن مقالات وخواطر له في كتابه (حين يورق الحجَر) هي لدي سابقاً لكني لم أرسلها لك خشية أن ينسرب إليك ولو القليل من السأم حين قراءتها، رغم جمالها، لأنها خواطر متشابهة في مغزاها عن القضية الفلسطينية، كانت قد نشرت متفرقة في أعداد من جريدة تشرين . وتجدر الإشارة إلى أنها تحوي ثلاث رسائل من بديع إلى الشاعرة فدوى طوقان .
أعود إلى موضوعنا : إن كنت اكتفيت بما صار لديك من مؤلفات بديع، فلا بأس. أما إن كنت ترغبين في المزيد، فإن تزويدك به سيكون مصدر سرور حقيقي لي .
لا أريدك أن تجيبي برغبتك بالاكتفاء أو الاستزادة، من باب التأدب أو المجاملة، فرغبتك الحقيقية هي التي ترضيني وتسعدني .
١١ / ٤ / ٢٠٠٤

آنستي الدكتورة ريم ..
أدام الله " الشعلة المتوهجة " في داخلك.. التي من خلالها تبصرين الجنان التي تنتظرك، وتُحسّين بموج الكوثر الأبيض وهو يرشّك برذاذه من بعيد - كما جاء في خاطرتك - وتخشين على تلك الشعلة من الانطفاء إن تعافى بصرك. لكن أودّ أن أقول : أليس ثمة من يبصرون الأرض بعيونهم المضاءة، كما يبصرون بأحاسيسهم الجنان التي تنتظرهم؟ أم إن كل من يبصر بضوء عينيه قد حتّم الله عليه ألّا يرى سوى الأرض؟!
عليك أن تتصوري فرحي وفرح أهليك، حين سيلتئم ضوء بصرك بضوء بصيرتك .
حين تصلين إلى خطواتك الأخيرة من زمانك، وتطيرين بكليتك ..كيف لا تدرين إلى أين، وأنت تبصرين الجنان التي تنتظرك..؟!
١٢ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
ترى هل كان في نيتك مسبقاً أن ترسلي لي الحوار المنشور في جريدة الخليج، أم جاءني رداً على رسالتي التي ما قبل هذه؟ إن كان رداً، فاسمحي لي أن أقول : أنا مدرك تماماً أن حالتك الخاصة قد أصبحت صديقة لك وعوضتك عن الكثير.. وأنها تمنحك ما يكفي من الشعور بالدفء والسكينة والفرح بقضاء الله وقدره الذي تبين لك أنه أكثر إشراقاً بكثير من قضائه بأن تكوني واحدة من المبصرين. نعم.. أنا مدرك هذا من بدايات تعارفنا. وأنا كما أهليك وسائر محبّيك.. حين نُعرب عن الفرح الذي سيغمرنا، إن تمكنت عيناك من إبصار النور الخارجي، فإننا بذلك نطلب الفرح لأنفسنا،

واعذرينا إن كنت ترينا بذلك أنانيين.. لكننا قَطعاً بغنىً عن تلك الفرحة إن كانت ستطفئ تلك الشعلة الوقّادة داخلك.
١٢ / ٤ / ٢٠٠٤

صباح الخير دكتوره ..
بعد استماعي لمداخلتك الإذاعية البارحة، اتصلتُ بك لأعلّق عليها، لكن لسوء وحسن الحظ معاً أنك لم تكوني في المنزل .
كان من حسن حظي أن تحدثت مع والدك الكريم.. فلمست أكثر، من جمّ لطفه وكياسته، بعد أن كنت قد لمستهما في مرتين سابقتين .
إني أُثني على ما أدليت به من رأي موضوعيّ في الشعر ما بين اللهجة الفصحى والمحكية، وأضم صوتي إلى الشاعر (الأبنودي) وأقول :
إن كان ثمة من يرى أن اللهجة المحكيّة أقل انتشاراً لصعوبة فهمها من قِبَل القرّاء ذوي اللهجات الأخرى، فإن الشعر بالفصحى لا يقل صعوبة، حين ينتهج الغموض أو المغالاة في عدم المباشرة، أسلوباً في التعبير.. ولا يبرأ شعر اللهجة المحكية أحياناً من هذا أيضاً. حبذا لو يتوخى الشعراء السلاسة في التعبير ، والابتعاد عن الإغراق في عدم البيان المباشر، واللجوء إلى الرمز، هذا إن اعتبرنا أن المباشرة تنقص من جمال التعبير الشعري .
كم يكون جميلاً أن ينساب القارئ في قراءة قصيدة ما دون أن تستوقفه صور وتراكيب تستلزم منه تكهّن ما يُقصد بها.. هذا إن كان الشاعر أصلاً يقصد معنى ما غير العزف بالألفاظ والصور على نحو مبهم، ليوحي للقارئ أنه دون مستواه في النظم والتأويل. وبات الأمر بين الشعراء كأنه تنافس في مجال الرمزية المستعصية على فهم الآخرين دونهم.
إن كانت اللوحة التجريدية في الفن التشكيلي تلقى إعجابنا أحياناً، إلا أن القصيدة لا يجب أن تصل إلى حد التجريد، وإن استساغتها النفس أحياناً لما فيها من ألفاظ وصور وقوافي .
١٥ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
استلمت هذا اليوم المغلف الذي أرسلته لي، أشكرك على كل ما فيه، وآمل ألّا أتأخر في الانتهاء من قراءة الكتب .
ستكون لي أيضاً في الغد مشاركة في برنامج الأستاذ فايز المقدسي ضمن البرنامج ذاته ما بين الثامنة والتاسعة مساء حول موضوع (الأدب والإنترنت). أعتذر لعدم انفساح المجال خلال اتصالك الأخير لإسماعي قصيدة نازك الملائكة التي كنت تود قراءتها عليّ، لكن يمكنك خلال هذه الساعة تحديداً أن تسمعني إياها إذا كان ظرفك يسمح .
ولك الشكر .
١٨ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
واخجلتاه.. واخجلتاه.. من خطأ، لن أغتفره لنفسي، في تحديد يوم عيد ميلادك في السادس عشر

من نيسان بدل التاسع عشر . ما ذاك إلا من فعل ذاكرة خوّانة، أصلحها الله. أرجو أنّ تَدارُكي لخطئي قبل أن تصححيه لي يخفف منه. فتقبّلي تهنئتي للمرة الثانية، متمنياً لك وافر الصحة والهناءة العمر كله .
هل سمعت بشاعرة ليبيّة تدعى ردينة الفلالي؟ يا لها من شاعرة لافتة.. شابة في الثالثة والعشرين، شاهدتها واستمعت لبعض من شعرها من خلال لقاءين متلفزين معها، فأخذتُ به كما كل من استمع إليه، ورآها تلقيه بنبرة تنمّ عن ثقة متناهية في النفس بعيداً عن الغرور.. أما حركات يديها، وأناملها، وكتفيها .. فيرفدان إلقاءها على نحو ولا أروع..! إلى ذلك كله، تتلمسين من خلال أجوبتها الحاضرة على لسانها، ذكاءً وقّاداً وشخصية متميزة، ذكّرَتني بك يوم شاهدتك وسمعتك لأول مرة عبر التلفاز .
لك أجمل أمنياتي ..
١٩ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
نهارك سعيد دائماً ... من أخبرك بالموعد الدقيق لعيد ميلادي؟ لابد أنها عصفورة مشاغبة تحلق من مكان إلى مكان وتبوح بكل أسراري.. تدعى (البصر والبصيرة) . لكن مع ذلك أنا ما كنت أعلم أنك ستتنبه إلى هذا الأمر أو ستتذكره إلى هذا الحد .
على أي حال إن الآنسة هنداً التي تقرأ لي تشكرك وتشكر جميع من تذكروا هذا اليوم، لأنكم ذكّرتموها به هي الأخرى، وتمكنت بوساطتكم من تهنئتي به كما فعلتم أنتم .
آسف لعدم كتابتي هذه الرسالة بصورة منسّقة أكثر بسبب تحضير نفسي للذهاب إلى الجامعة .
سأعود إلى رسالة من رسائلك الأولى إليّ، وأتجسس من خلالها على عيدك أنت الآخر، وأعتقد – كما أتذكر- أنه في شهر أيلول .
بإمكانك الاتصال بي لإسماعي القصيدة في أي يوم تشاء، وبصورة مضمونة الساعة العاشرة مساء .
ولك الشكر دائماً .
١٩ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
بُعيد استماعي إلى حلقة البارحة من (أكثر من صوت) تنبهت إلى ما كنت أنتوي التطرق إليه معك منذ فترة .
تلك الومضات الشعرية النثرية المميزة التي تنشرينها عبر الإنترنت، كم هي جديرة بأن تجمعيها منسّقة في كتاب أو أكثر، وتنشريها كما يليق به.. رغم ما قد يواجهك من أعباء التعامل مع دور النشر. إن اكتفاءك بنشرها عبر الإنترنت سيفضي إلى يوم تُنسى فيه تلك الومضات .
هل يضاهي رونق صفحة الإنترنت رونق الكتاب؟! أين قيمة صفحة مكتظة بعشرات العناوين، يزيغ منها البصر، وتحار النفس أيها تختار لتقرأها دونما روية، وتنتقل إلى أخرى.. أين قيمة ذلك من كتاب يظل خالداً بين أيدي القراء، يعودون إليه لحظة شاءوا جيلاً بعد جيل ..؟!
لذلك أتمنى يا دكتوره ألا تكتفي به لنشر ومضاتك، مهما كانت حسناته بل، أن يكون رديفاً للنشر بعد الكتاب الذي آمل أن تخلّدي به كلماتك المنيرة، رغم الصعاب.. لأقول فيه :

صوتٌ من عروس البحر آتْ
ينسابُ في النفسِ أسمى أغنياتْ ..
ومضاتٌ تنبثق من روح ملائكية
تتفجر شهباً شعرية ..
تدوم نجوماً عُلْويّة ..
تتوق إلى شعاعاتها
كل نفس نقيّة ..

٢١ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
إن الفكرة التي اقترحتها عليّ لم أكن متغافلة عنها، بل منذ حين وأنا أضع في الحسبان ضرورة ضم خواطري في كتاب مستقل مراعاة للذين لا يحسنون استخدام الإنترنت، وكذلك للذين يضيقون بتبعات هذا الاستخدام. لكنني سأتريث قليلاً في فعل ذلك ريثما يأتي الوقت المناسب الذي ستكون فيه هذه الخواطر قد وصلت إلى الكَم الملائم لكتاب أو – على الأقل – لكتيّب . علماً أنني من جانب آخر أريد أن أتوقف قليلاً أو كثيراً عند المقارنة ما بين الكتاب والانترنت، إنما من منطلق مباين للذي اخترتَه .
صحيح أن الكتاب يشكل ما هو أكثر رونقاً وجمالاً.. غلافاً وصفحات، وما هو أكثر يسراً ومرونة في التعامل معه لدى سماحه لنا بالتنقل به إلى حيث نشاء، وفتحه متى نشاء، وما هو أكثر بعثاً على الشعور بالراحة والطمأنينة والهدوء والاستقرار لدى سماحه لنا بالقراءة الأكثر تأنياً وترويا وبُعداً عن القلق من سلبيات الإنترنت المتمثلة في إزاغة البصر وإضرار الإنسان بإشعاعاته وضعف الشبكة ... لكن حبذا بالمقابل لو نقلب الموازين قليلاً، ونتذكر سلبيات الكتاب وإيجابيات الإنترنت هذا .
فالكتاب العربي هو في أسوأ، أسوأ حال، ولا أقول هذا إلا انطلاقا مما عشته لسنوات من التجارب المخفقة والإحباطات التي تعددت تعدُّد دور النشر التي تعاملت معها على اختلاف أنواعها واتجاهاتها، أو تعددَ المراحل التي تخللت كل تعامل مع كل دار. فإذا ما وضعت جانباً الحسابات المالية التي لا تهمني بكليتها، ولا بما إذا كانت جائرة أم عادلة مقابل ما أهتم به من وظيفة الأدب السامية. فهناك أولاً الفوقية التي يتعامل من خلالها أصحاب هذه الدور مع الأدباء، إذ يشعرونهم دائما بأنهم هم الأساس، إضافة إلى تمنين هؤلاء الأدباء من خلال قولهم لهم بصورة صريحة أحياناً ومبطّنة أحياناً : يكفيكم أن دورنا تصدر لكم أعمالكم.. علماً أنهم لا يستحقون ذلك منا أبداً ما داموا لا يفقهون غالباً سوى القليل أو العدم من الناحية الثقافية، ولا يشكلون في البداية أو النهاية سوى تجار يبحثون عن الأرباح وتكديس الثروات من خلال هذا الكتاب البريء الذي لا يشكل – وفق منظورهم- سوى سلعة خالية من أي قيمة روحية أو إنسانية ! هذا بالإضافة إلى عدم طباعة هذه الدور النسخ الكافية خشية كساد البضاعة، إذ مهما بلغ عددها الذي لا يتجاوز غالباً الخمسة آلاف، فإنها لن تغطي حاجة القراء بالعربية الذين يفترض أن يبلغ عددهم – على الأقل – بضعة ملايين . هذا بالإضافة إلى تقاعسهم عن التوزيع المتوازن المدروس لهذه النسخ الضئيلة على مكتبات الوطن العربي، واقتصارهم في تحركهم – بهذا الصدد – على المعارض التي تبقى محددة في زمان ومكان معينين، زمان العرض الذي لا يبلغ سوى بضعة أيام، ومكانه المتركز في العواصم فقط.
الكلام يطول في هذا المجال، وأنا الآن لا أكتب عنه إلا من ألمي الذي رافق تماسّي مع هذه الدور،

بل ألمي الكبير وندمي الأكبر اللذين يتوقدان حالياً في نفسي بناءً على تماسي مع دار من تلك الدور، تلك التي لم ألق منها منذ سنوات أربع إلى الآن سوى الإهمال من جميع النواحي التي يمكن تصورها، وسوى الانحرافات المتتابعة عن نصوص العقد المبرم فيما بيننا مقابل تقييدي بما يمكن أن تعود إليه أنت في الصفحة الأولى من كتابي، الأمر الذي يحملني ويحمل والدي على محاولة التحرر منهم وتحرير كتابي الذي لا يبدو لي في هذه اللحظة إلا وكأنه أسير بين أيديهم، هذا برغم تشكيله بالنسبة إليّ الآن وقبلاً ودائماً العمل الأثمن والأثمن ما دام شكل ذاتي بكليتها .
وبعد هذا كله، بعد سردي هذه الخطوط العريضة التي تنطوي على المزيد والمزيد من التفاصيل، هل لي أن أفكر بعد بعيوب الإنترنت مهما كثرت وتنوعت؟! ألا يجدر بي أن أراها لطيفة محببة؟! أو غير مساوية شيئاً ؟! يكفيني من هذه الشبكة أن تُطيّر كلماتي في أي لحظة أشاء إلى معظم بقاع الأرض.. ويكفيني منها أنها تحقق لي التواصل مع ذلك العدد الكبير من القراء الذين لا أتصور أن بإمكاني أن أدركهم أو يدركوني من خلال أي كتاب أو أي دار .
كنت قد ساءلتني مسبقاً بصدد خاطرة قرأتها لي حول كيفية عدم إدراكي إلى أين سأطير بكلّيّتي بعد الرحيل عن هذه الأرض؟ علماً أنني – كما تبين لك – قد أظهرتُ من خلال خاطرة سواها أنني أحس بأن الجنان تنتظرني، وبأن كوثرها يرشّني بمياهه من بعيد.
وهنا أجيب : إنه مزاج الأدباء يا أستاذ صادق، مزاجهم الذي حُلّل له بصورة خاصة قيامه على التناقض والتلون والتبدل ما بين لحظة ولحظة، حالة وحالة، تجربة شعورية وتجربة ..
وأخيراً .. أرأيت كم أطلت في هذه الرسالة أيضاً ! لكن الذنب ليس ذنبي، فأنت الذي تطرح عليّ في سطور قليلة قضايا كبيرة، فلا أجد نفسي وأنا أكتب عنها إلا قد انطلقت عبر آفاقها الشاسعة !
٢٤ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
حول ما ساءلتني عنه بالأمس بشأن العصفور الذي مر بك في خاطرة لي، فأنا حقاً افتقدت عصفوراً كان يشاغب عليّ كل أصيل مبتغياً ربما ملاعبتي، ممازحتي، أو التعبير عن شعوره بأنني أكتب مراراً عن الجنس الذي ينتمي له.. فهو كان بسرعة يدنو من نافذتي، وبسرعة يلقي بتغريدته المنغّمة الخاصة، وبسرعة يفرّ مني وكأنه يتصور أنني سألحق به. وهكذا كان يعيد معي دوراته المتتالية حتى ينام .
أما بشأن العصفور الذي تصورته أنت، فأنا التي لزمت الصمت حياله وليس هو . الصمت شبه النهائي بفعل تبدّل نظرتي فيه . وقد كان تواصلك الأول معي – كما أذكر – في يوم من الأشهر الثلاثة التي قضيتها في أزمة عارمة منه، وفي انكفاء على ذاتي جعلني أحار في كيفية قضائي النهارات التي كانت تمر عليّ .
أكتفي بكلامي هذا، وأعتذر عن توضيح المزيد من التفاصيل مراعاة لخلاصي الذي انتهيت إليه الآن، وحرصاً على ألا أشوه صورته التي رسمتها يوما نقيّة. هذا فقط لك مثلما كان لأسرتي ولصديقة مخلصة .
٢٦ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
سرّني أخذك بالحسبان ضرورة ضم خواطرك مستقبلاً في كتاب مستقل، وقد خطر في بالي، لهذا

الغرض، أن أقترح عليك تجربة النشر عن طريق (دار إشبيلية) لصاحبها الأديب فاضل السباعي المقيم في دمشق، هذا إن لم يكن في ذهنك داراً بعينها تودين اللجوء إليها. اتصلت به البارحة بعد انقطاع طويل، وحدثته عنك وعن معاناتك من دور النشر.. فشرع يحدثني عن تفاصيل عملية النشر، وفيما يتعلق بنشر الخواطر .. فاستوقفته راغباً إليه في أن يناقش هذا الأمر معك شخصياً حين تقررين إصدار كتابك. وأحب أن أنوّه إلى أن ما اطلعتُ عليه من كتب صادرة عن داره، جاءت كلها في حلة أنيقة لافتة.. والأهم من ذلك أني أتوسم في الأستاذ فاضل معاملة سلسة مرضية، لما تتّسم به شخصيته من لباقة ولطف حقيقيين .
أتفهم جيداً مزاج الأدباء وحالاتهم الشعورية المتبدلة حسب حالاتهم النفسية .. لذا لم يكن سؤالي عن المكان الذي ستطيرين إليه بكليتك.. سؤالاً حقيقياً أطلب له تفسيراً، بل سؤالي كان مَجازياً، حمل جوابه معه، تأكيداً مني ثقتيَ بأن الجنان تنتظرك .. بإذن الله .
كيف لك أن تري إطالتك لرسائلك لي ذنباً..!! مما يعجبني فيك أنك تنظرين إلى الأمور بعمق، وتتناولينها بمسؤولية، وتفندينها بأناة الناقد والباحث..
أما بشأن العصفور الذي تصورتُه أنا، فلن أستوضحك المزيد عنه، سوى بسؤال ما إذا كان مصطفاك في (البصر والبصيرة) أم سواه؟ آملاً من ذاك الذي كان يدنو من نافذتك مع كل أصيل، أن يعود، ليُدخل السرور مجدداً إلى قلبك وهو يلقي بتغريدته الخاصة لك.
٢٦ / ٤ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
القصيدة التي أرسلتها لي لـ (فوتشيك) ذكّرَتني بقصيدة لي. هل تسمعها :

قد توْدع في أرضٍ مئة بذرة
ولا ينبت منها سوى بذرة
حينئذ ..
ليتك تقول لوردتك الوحيدة
التي تفتحت :
صباح الخير
بدلاً من أن تقول :
وأين ورودي الأخرى ؟

فيما يتعلق بتساؤلك عن الشخص.. نعم هو ذاته الذي تحدثتُ عنه في (البصر والبصيرة) .
٢٧ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..

أنت تقولين :

أنا أمام عصفور وليد
أجثو ملبّية ..

أنا أمام تقطيبة نسر
أصعد عرش فرعون
أستعير دماء لبوة ..

_____

هي تقول :
أنا أمام عصفور وليد
أجثو ملبية ..
أنا أمام تقطيبة نسر
أشيح بوجهي
متغافلة .. مستغبية ..

أنا أقول :
أرجو ألّا تشنّي عليّ
حرباً ساخنة ..

٢٩ / ٤ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
حيّيتِ.. حيّيتِ.. إذ أحيَيتِ بالأمس، عبر الأثير، ذكرى البديع حقّي بطلبك من الأستاذ عبد الرحمن حلبي، بث حوار قديم معه، وإذا به يُسمعنا أبياتاً من شعره، نسيها الزمن، من ديوانه بعنوان (سِحْر) الذي حوى أول وآخر ما تفتقت به قريحته من شعر التفعيلة الرمزي، والذي كان هو أول من خاض غماره من الأدباء العرب، بحسب قوله، لكن الكثيرين يجهلون هذه الحقيقة .
وتحضرني الآن آيات البيان الإلهي كأروع وأول بيان بأسلوب التفعيلة، إذ لا بد أنها كانت المنارة الأولى لبديع حقّي في اعتماد التفعيلة أسلوباً لشعره .
٢ / ٥ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
سرتني تلبية الأستاذ عبد الرحمن حلبي لطلبي، أو السرعة في هذه التلبية، وإن كنت لا أستغرب ذلك منه، نظراً لما أستحوذ عليه من مكانة لديه، علماً أنني تساءلت حول عدم بثه مقطعاً من الحوار الذي كان قد أجراه مع الأديب (حقّي)، هل هذا يعود إلى رغبته في إطلاعي على شعره بجانب اطلاعي على قصصه؟ أم أنه يعود إلى عدم تمكنه من تجهيز التسجيل من أرشيفه الضخم الذي أعتقد أنه يعمل حالياً على جمعه مكتوباً، بناء على طلب من وزيرة الثقافة السابقة .
ربما ستكون لي هذا اليوم مشاركة مع الأستاذ فايز حول أجمل ما قرأت، وإن كنت ممتعضة منه بعض الشيء، فهو في يوم الخميس طلب مني أن تكون لي مداخلة حول هذا الموضوع، ووعد بأن يكون التسجيل في اليوم التالي الجمعة الثامنة والنصف مساء، فانتظرته وحيدة في غرفتي بجانب الهاتف ساعتين كاملتين لكن دون جدوى، مما سبب في توتري، وعدم تذكر برنامج كاتب وموقف إلا في اللحظة الأخيرة قبل بثه. لا أدري لماذا يتكرر منه هذا مؤخراً بعدما عهدته جد دقيق في

مواعيده ! ومع ذلك فأنا لا أرى بداً من الغفران له لفضله الكبير علي، ولعدم تقصّده حتماً ما يصدر عنه .
أستاذ صادق : هل لك أن تخبرني من هي هذه الشاعرة التي وُجد هذا التطابق الحرفيّ ما بين قصيدتي وقصيدتها في الأسطر الثلاثة الأولى؟ من الضروري أن أعرف لأن الأمر أقلقني، وأعد بألا أشن عليك أي حرب لا ساخنة ولا باردة، بل سأشكر لك فعلك الذي نبّهني إلى ما كنت غافلة عنه. لكن هل يمكن أن تخفف من قراءاتك قليلاً كي تخفف عليّ من اكتشافاتك المباغتة ؟
٢٠٠٤ / ٥ / ٣

دكتوره ريم ..
أرجو ألا تكوني ممتعضة مني أيضاً كما أنت من الأستاذ فايز.. إذ زارني البارحة أحد الأصدقاء ولم يغادر إلا في وقت متأخر من الليل، فحال ذلك دون هتفي إليك . أبدي شديد اعتذاري إن كنت تسببت في جعلك تنتظرين. فأنا من الذين يحترمون المواعيد إلى حد اعتبارها منعكسا لشخصية أصحابها. كما أني أستنكر فعل أولئك الذين يتخلفون أو يتأخرون عن الموعد ظناً منهم أن ذلك يعلي من شأنهم .
أستغرب طلبك بأن أخفف عنك من اكتشافاتي المباغتة ! إذ هل ثمة من اكتشاف غير ذاك الذي تخيلتِه أنت من تطابق حرفيّ ما بين قصيدتك وقصيدتها..؟! أم إن إطلاعك على بعض ما هو جميل يستوقفني من آن لآن، يثقل عليك؟ حسناً لن أفعل بعد الآن .
ليس ثمة من قصيدة أخرى تتطابق الأسطر الثلاثة الأولى منها مع قصيدتك كما طننتِ، وما كان قصدي سوى نوعٍ من مشاغبة بريئة لابد وأنك لمست فيها ما أرمي إليه، وأنا لست ناسياً حالات الشاعر المزاجية والنفسية بين عمل وآخر ..
كل ما قصدت قوله، تعقيباً على قصيدتك، أن ما أحلاك لو تصعدين عرش التسامي بدل عرش فرعون، فتشيحين بوجهك عن ذاك النسر، متغافلة عنه. هل أتوقف عن المشاغبة ؟
٢٠٠٤ / ٥ / ٣

أستاذ صادق
أكتب إليك هذا الرد وإن كان على عجل، إذ لا أرى بداً من ذلك .
لستُ ممتعضة منك، لأنني أقدّر ما يطرأ على الإنسان من ظروف مثلما يطرأ عليّ، لكن الأمر مع الأستاذ فايز مختلف تماماً ، إنه هنا يتعلق بموعد تسجيل وبعمل ينبغي أن يكون فيه أكثر جدية . ستجعلني أعتب عليك إذا تصورتَ ما أخبرتني به، وهو أن ما يستوقفك يثقل عليّ. لكن يبدو أنك أحياناً لا تتقبل مشاغباتي، فأنا أقصد أنك تقرأ وتقرأ فتسمعني أحياناً ما أراه متشابهاً مع نصوصي كنص (فوتشيك) ونص (رفاعية) . سأعتب عليك إذا كنتَ ستكف عن إسماعي المزيد . على أي حال أنا أعتذر إليك لعدم تمكني بالأمس من التحدث معك، وأنا اليوم في انتظار اتصالك كي أتابع ما بدأتُه معك .
٢٠٠٤ / ٥ / ٤

دكتوره ريم ..
في أثناء زيارتي لأمي البارحة، جلست إليها أحدّثها عن الفكرة التي تناولناها عبر الهاتف أول أمس، وكيف أنك أضفت يوماً عزيزاً آخر إلى يوم نيلك درجة الدكتوراه.. وقبل أن أكمل لها ما دار بيننا من حديث ازدادت إكباراً لك.. واخضلت عيناها بفيض من الدموع لإحساس فيك رأته نادراً برهافته ونبله وسموه.. وتمنّت لحظتها - من أعماق أعماق قلبها - وجودك بيننا.. لتضمك إلى صدرها وتلثم عينيك. هكذا هي أمي يا ريم.. أقصد دكتوره ريم .
تحياتي القلبية لك ..

- حوريتي ..
تعالي معي .
- وبحاري .. أهجرها ؟!
- تقررين بعدها .
حملها على ساعديه
وسرى بها ..
- هذي حقولي ..
تلك مروجي ..
- يا لروعتها .. !
حالت الحورية
صار لها ساقان جميلتان
هامت بالسهول والهضاب والوديان
وقررتْ
هجر كهوف اللؤلؤ والمرجان

٢٠٠٤ / ٥/ ٧

أستاذ صادق
قرأت بالأمس رسالتك الرائعة – رسالتك التي ستدخل تاريخي، فصمّمت على أن أضعها دائماً في حقيبتي كي أُطْلع عليها كل من أصادف من المحبين، فيسموا بها كما سموتُ، إلى هناك، إلى أعلى النجوم المضيئة . سلامي الحار، الحار جداً إلى ماما إيدا .
اليوم ذهبت إلى الجامعة، وحين وصلتُ إلى بابها تبين لي أنني نسيت مفتاح مكتبي، مما أبقاني أتمشى في الممرات حتى موعد المحاضرة، وحين حان وقت المحاضرة، وسألتني من ترافقني عن رقم القاعة التي سألقي اليوم فيها، تبين لي أنني نسيت الرقم، واحتجت إلى بعض الوقت كي أتذكره . وبعدما انتهيت من إلقاء المحاضرة ، تبين لي أنني وقعت في خطأ ليس بصغير لدى إملائي على مرافِقتي الإعلان الذي سأضعه بشأن مقابلات حلقات البحث، فأضحكتُ طلابي .
لماذا حدث هذا كله في رأيك ؟ هل لديك تفسير ؟
٢٠٠٤ / ٥ / ٩

دكتوره ريم ..
لا أدري كيف سيكون وقع رسالتك، الأروع من رسالتي، اليوم على أمّي.. إذ ربما يكون وقعاً يفوق تصوري . أرجو من الله أن أكون أهلاً لذاك الذي كان سبباً فيما حدث لك اليوم في الجامعة.
لك خالص محبتي .. وجمّ تقديري ..
٩ / ٥ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم .. الغالية جداً ..
نداؤك لي بالعزيز اليوم ، لأول مرة، أفرحني أيّما فرح ..
هل ترين وجوب تخلّي صديقين عن صداقتهما في حال استقر أحدهما في حياة زوجية مع آخر ؟!
لا أعتقد أن صداقة كالتي بيننا يحول دونها زواج أحدنا إلا إذا كان شريكه لا ينظر إليها بعين الرضا .
وأعتقد أن كلينا، سنتقبل حينها بروح عالية، صون صداقتنا في نفسينا مراعاة لمشاعر الشريك .
وأحب أن تعلمي أني لا أبحث عن زوجة أخرى سواك، ولن أبحث، فإن قسا القدر وكانت سواك، يكون القدر هو الذي ساقها إليّ .
رغم تقديري الكبير لقرارك الثاني، إلا أنني لا أرى له ضرورة البتة فيما لو حال القدر دون زواجنا. بل قرارك هذا يتعسني ويجعلني شاعراً بالذنب.. هل يرضيك ذلك؟ فرجائي أن تتراجعي عن التشدد أو الحسم فيه، وأن تنيبي أمرك إلى اللطيف بعباده ليختار لنا ما يراه.. واسمحي لي أن أضع بكل محبة واحترام قبلة على رأسك الجميل ..
٢٣ / ٥ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..
أما وقد عانقت الروح الروح .. هلمّي بنا نسمو ونسمو ضاحكين من جُدُر أربعة في أرض مكبلة بالأعراف.. ونعود إلى عالم الأدب الرحيب :
".... وأخذ قلبه* الصغير ينبض بالشعر ويهزَج به، وقد احتفظت ذاكرته، حين تقدم به العمر، هذا البيت " : (وينساقُ ، في الجوِّ ، همسُ المطر * ليرعَش بالحُب غصنُ الشجر)
* قلب الشاعر طاغور .

يقول طاغور : " حين أفكر في الغبطة التي تبعثها هذه الكلمات في عطفيّ، أدرك قيمة الدور الذي يؤديه الجرس اللفظي والقافية في القصيدة، إن الكلمات تفيء إلى الصمت، ولكن موسيقاها تظل ممتدة، ويبقى صداها موصولاً بالسمع، وهكذا.. فإن المطر ما يزال يهمس، وأوراق الأغصان ما تني ترتعش حباً، حتى الآن في ذاكرتي " .

في الأسطر التالية، كأني بلسان حال طاغور، يا ريم، يحدّث عن حالك، وهو يقول :
" أولئك الذين يحبونني في هذا العالم، يحاولون بجميع الوسائل، أن يجعلوني بمأمن، وليس الأمر كذلك مع حبكَ الذي هو أكبر من حبهم، فإنك تتركني حرّاً. إنهم لا يجرؤون أبداً على تركي وحيداً لئلا أنساهم، ولكن الأيام تتعاقب، وأنت لا تبدو البتة، وعلى أنني لا أذكرك في صلواتي، وعلى أنني لا أجذبك للبقاء في قلبي، فإن حبك لي ما يزال ينتظر حبي " .
٢٣ / ٥ / ٢٠٠٤

ما إن أودّعها
وأغلقُ السمّاعة
أشتهي
فنجان قهوة
أحضّره
وأشعل سيجارة !

صادق
٢٤ / ٥ / ٢٠٠٤

بذورنا التي خبأنا في تربة الزمان
إذا لم تتفتح غداً
عن ورودنا التي ننتظر
فلنا حينئذٍ
أن نحضِر كل ألواننا
لنستنبت هذه الورود
لوحةً بهيّة
لنا حينئذٍ
أن نحضِر كل أوتارنا
لنستنبت هذه الورود
سمفونيةً شذيّة ...

ريم
٢٥ / ٥ / ٢٠٠٤

تربة الزمان ..
بيدي سأحرثها
إنْ شَحّ الماء
بيدي سأرويها
لن أترك بذورنا فيها
نهباً للطيور
أو للرياح
تذروها

صادق
٢٥ / ٥ / ٢٠٠٤

صديقتي الحبيبة ..
وأنت تغالبين دموع الفرح يمازجه الحزن ..

مفضيةً إليّ أنك سجدت لله شاكرة ..
إذ شعرتِ بالغمامة السوداء تنزاح آفلة ..
فقمتِ تصلين صلاة الشكر إذ رأيت أن ليس في المدى
سوى نثار سحابة لا تحجب زرقة السماء الصافية ..
أيقنتُ آنها أنك أتقى الأتقياء ..
أيقنتُ حينها أني بك أثرى الأثرياء ..
تمنيتُ لحظتها ... !
٢٩ / ٥ / ٢٠٠٤

صديقتي العزيزة ريم ..

كان ثمة فتىً ..
فتىً غريباً جداً.. مفتوناً بحُبه ..
قيلَ إنه جالَ بعيداً.. بعيداً جداً
في البراري وعبْر البحار ..
فيه شيء من حياء، بعينين حزينتين
لكنه كان حكيماً جداً ..
وفي يوم ..
كالسحْر ..
مَرّ بي ذاك الفتى عابراً ..
وفيما كنا نتحدث عن أشياء وأشياء ..
عن البهاليل والملوك ..
قال لي :
إن أعظمَ شيءٍ تتعلمه
هو أن تحِبَ.. فتكون محبوباً .

تلك ترجمة لأغنية إنكليزية بعنوان (فتى الطبيعة Nature Boy) ربما لا تبدو - مترجمة، ومجرّدة من قافيتها، ولحنها الجميل المؤثر - ذات شأن، لكن لابد لكل من يسمعها أن يُسحَر بها ..
سأرسلها لك قريباً، في شريط، إن شاء الله .
١ / ٦ / ٢٠٠٤

صديقي العزيز صادق
فيما يتعلق بكلمات الأغنية الإنكليزية التي نقلتها إليّ مترجمة، لا أرى أنها فقدت أي قدر من قيمتها حين أتتني مستقلة عن لحنها، إيماناً مني بأن أي كلمة تهزني لابد أن تبتكر نفسي موسيقى جديدة لها، هي موسيقى مشاعري وأحاسيسي. والأمر ذاته ينطبق لديّ على القصيدة المترجمة التي لا أراها تفقد شيئاً حين تُنقل إلى لغتنا مستقلةً عن أوزانها وقوافيها وتفعيلاتها .
ستكون لي في يوم غد الجمعة مشاركة في برنامج (أكثر من صوت) حول موضوع بعنوان (أشياء صغيرة تفرحني) مع الأمل أن أتمكن من ابتكار موسيقاها الخاصة بها عبر الأثير .

٢٠٠٤ / ٦ / ٣

عزيزتي ريم ..
تحلقنا البارحة حول التلفاز في بيت أخي شادي - أنا وأمي وأبي، وزوجة شادي وابنته، لنستمع جميعاً إلى مداخلتك الأثيرية عن (الأشياء الصغيرة التي تفرحك)، ومن سوء الحظ أن أبنائي لم يكونوا متواجدين معنا .
بدا التأثر واضحاً على الوجوه .. ونحن نستمع إلى ما يفرحك من أشياء تخبرين عنها بصوتك الحالم الهادئ العذب.. إلا أن دموع أمي واكبت تأثرها وهي تسمع صوتك للمرة الأولى، وعبّرت عن ازدياد ما لك من حب وتقدير في نفسها. أما أنا فقد حاولت جاهداً أن أحبس عبراتي التي كادت تسيل .. فيما الآخرون قد أثنوا جميعاً على ما سمعوا، وأبدوا شديد إعجابهم بك .
لا تستغربي استماعنا إليك عبر التلفاز، فقد كان ذلك من خلال قناة TV5 الفرنسية بعد توليف تردد الصوت على إذاعة RMC لنسمعك بوضوح أكثر .
أما بعد، ولو أني سأتعبك بطباعة المداخلة آنفة الذكر وإحدى سابقاتها بعنوان (يوم في حياتي) إلا أني أرغب بالاحتفاظ بهما، وبما سيعقبهما لاحقاً. فأرجو منك أن تزوّديني بها جميعاً .
لك خالص شكري ومحبتي ..

يا مَن شوقي لرفيع أدبها لا يريم
يا من توقي لسحرِ عالمِها لا يغيم ..
يا من حنيني لعذب صوتها لا يستكين
صمتك ليوم أخاله هجرانُ سنين
أما يكفي البُعادُ جوراً ..
كي تأبهي لحالِ مسكين ..!

٢٠٠٤ / ٦ / ٥

صديقي
استمعتُ بالأمس إلى سمفونية (شوبرت) الثامنة، أو التي أطلِق عليها السمفونية الناقصة، لعدم انفساح المجال لمؤلفها كي يكملها .
لا أدري لماذا وجدتُ جمالها متحدّداً هنا، أي في عدم اكتمالها، أو في شَبَهِها بالهلال الذي اكتسب شفافيته من طفولته، وعدم نموه بعدُ إلى طور البدر الذي يملأ بضيائه الصارخ السماوات .
تُرى .. صداقتنا إذا لم يُتَح لها أن تحقق ما نصبو إليه، هل ستكتسب جمالها من هنا ؟ من تحوّلِها – هي الأخرى – عبر الأزمنة والأمكنة إلى سمفونية ناقصة؟ أو كما أفضّل، إلى سمفونية حييّة ؟
٢٠٠٤ / ٦ / ٩

صديقتي ..
ما إن أنهيتُ تلاوة مقطوعاتك الأدبية الأثيرية الثلاث على أمي وأبي ، إذا بأمي تقول لي :
صداقة كالتي بينك وبين ريم يا بُنَيّ، بما فيها من مشاعر وأحاسيس، تعبّران عنها بأدبكما العالي.. صداقة كهذه.. لهي أسمى وأجمل بكثير من رابطة الزواج.. بها خلودٌ لنشوتكما العلوية العارمة.. فلا

تؤول إلى انحسار بالحياة الزوجية بسفاسفها الدنيوية، فتفقد شعلتها القدسية ..
هل ترين ذلك يا ريم ؟ أنا أراه وأؤمن به ..
(في هذه اللحظة بل الثانية التي وصل فيها قلمي إلى هذا السطر تحديداً، وصلتني سطورك تتحدثين فيها عن سمفونية (شوبرت) التي لم تكتمل..!!) .
ومع إيماني ذاك ، سيظل فيّ شعور لن أتمكن من إخماده، وهو أن أحضن رأسك الجميل بين يديّ وأستنشي منه عبق روحك الشذيّة.. وذاك ما لن يتأتّى إلا برباط الزوجية ..
أعود إلى سطورك عن سمفونية (شوبرت) وسمفونيتنا.. لأسلّم بعظمتك إنسانة.. أديبة.. شاعرة.. على أبدع وأروع ما يكون .
هنيئاً لي بك .
٢٠٠٤ / ٦ / ٩

صادق الصديق العزيز
وأنا أنضم إليكم لأبدي شديد أسفي وتألمي على تلك الشجرة* التي كانت تظللكم كل صباح ، والتي لحق بها ما لحق من نار الأيدي الصوّانية الغادرة . لكن لا أدري ما إذا كانت شجرتك قد مثّلت لديك كما هي الحال لديّ رمزاً لقصتنا نحن الاثنين اللذين مر بنا ما يماثل هذا الحريق خلال الأيام القليلة الماضية ، وإن كان ما يعزينا نحن وإياها هو عدم شموله بجمره لنا بأكملنا ، إنما جزء منا فقط، غصن منا فقط لتظل بقايانا الباقية في خضرة وعافية .
إن شجرتك بما أصابها تمثل رمزاً لشجرة تين ضخمة كانت تشغل قسماً كبيراً من باحة مدرستي الابتدائية ، وكانت تشكل بظلالها سقفاً أخضر نلهوا تحته أنا ورفيقتاي زينة وسحر، ولا أدري الآن ماذا حل بها، أهي باقية إلى الآن ؟ أم أنها تعبُر - شأنها شأن سواها - بحارَ الرماد ؟ وأنا لا أحاول التساؤل عنها حذراً من أن تأتيني الإجابة الثانية . إن شجرتك تمثل رمزاً لغرسة الآروكاريا التي كانت في بيتنا، والتي كانت تحمل الزائرين، بجمالها وخضرتها وتنسيقها، على ظنها صناعية، وتحملنا جميعاً على التساؤل عن مصيرها حين ستصل إلى السقف الذي سيصدم أحلامها بالامتداد أكثر وأكثر نحو الفضاء اللامتناهي. لكنها قبل أن يحدث لها ذلك، ومنذ عام احترق القسم الأكبر منها بفعل تغيير ترابها بصورة خاطئة، فأبكتني أنا التي كنت أحتمي بظلالها من غيوم الحياة .
إن شجرتك تمثل رمزاً لبحرنا الغربي الذي رصفوه بالاسمنت بعدما كان يشكل ملاذاً لأحلامي وتأملاتي، بل لأحلام وتأملات كل أهل اللاذقية الذين كانوا ينقادون إليه كل يوم ملتمسين فيه الرئة الزرقاء التي يعبّون من خلالها أنقى الهواء. بالاسمنت رُصِف لِتَعبُره الآن العربات القاسية بعدما كانت تتهادى من فوقه أجمل الزوارق وأكثرها شفافية. إن شجرتك* تمثل رمزاً لشجرة بديع حقي التي غرستها أمه، والتي بات في نهايات حياته متلهفاً إليها وإلى مرارة ثمارها التي لن يعود يمجّها أبداً.
إن شجرتك تمثل رمزاً للكثير من الأشياء الجميلة في هذا الكون، وما يحلّ بها دائماً من نهايات غير سعيدة، إما بفعل الزمان الذي لا يُبقي بدورانه ولا يَذَر، وإما بفعل الأيدي الصوّانية.. القلوب الصوّانية.. العيون الصوّانية، التي تدعم هذا الزمان وتسانده بفعل بُغضها للّونين الأخضر والأزرق، وإيثارها عليهما الأحمر.. لون النار والدم. لماذا يحدث هذا دائماً معنا نحن الذين نحب الماء والشجر والطيور؟ هل لأننا من أبناء آدم وحواء وحُكم علينا أيضاً أن نُطرد دائماً من الجنان؟ أو أن تُطرَد الجنان من حولنا سواء في السماوات أو في الأرض ؟
ريم

١٣ / ٦ / ٢٠٠٤
تاريخ تعرّفك إليّ من خلال برنامج (ابن البلد) الذي يصادف اليوم ذكرى بثه الحلقة الخاصة بي .

* خاطرة بعنوان " الشجرة الظليلة " في (سوانح) هذا الكتاب.

ريم .. يا صديقتي الأثيرة ..
بما أنني لا أعدّ نفسي من السعداء في هذه الدنيا.. فإنني لا أعدّ يوم ميلادي يوماً جديراً بأن أحتفي به، فأدعه يمرّ كغيره من الأيام، حامداً الله على كل حال. بَيْد أن أمي وأبي لا ينسيانه، فيبادران إلى تهنئتي كلما عاد .
أما يوم تعرفي إليك من خلال (ابن البلد) فلن أنساه ما حييت، ولهو جدير بأن أحتفي به كل عام على النحو الذي يليق به، فأصلي لله ركعتَي شكر وعرفان، ثم أستمع إلى قطعة موسيقية أو أغنية تحبينها .
تبين لي من خلال سطورك اليوم عن شجرتي المنكوبة، أنني قد أثرتُ فيك بقصتها ذكريات ومواجع ما زالت آثارها في نفسك باقية. كما تبين لي أيضاً في نهاية سطورك أن شيئاً من تشاؤم بات يشوب نفسك النقية الصافية الموحية دائماً بالتفاؤل والرضى.. !
ألستِ أنت المؤمنة بأن الحياة كما تنطوي على ما هو محزن، فإنها تنطوي أيضاً على ما هو جميل ومفرح..؟! إنه يوم عيدنا ..
فكل عام وكلانا بخير ..
١٣ / ٦ / ٢٠٠٤

الصديق العزيز
لقد عشت اليومين الماضيين أزمة حقيقية لا تتعلق بي إنما بسواي، فقد كنت أخبرتك أن خال قارئتي هند، أو خال صديقتي تغريد، قد توفي، لكن سرعان ما تبين أنه وُجد مقتولاً في مكتبه الذي يقيم فيه وحيداً لكونه عازباً، وأنه ظل كذلك لمدة ثلاثة أيام تقريباً دون أن يشعر به أحد. ومما زاد في تأزمي أنني أعرفه شخصياً، وأعرف الكثير عن خصاله الحميدة التي جعلت منه شجرة باسقة يستظل بها كل أقربائه. نعم.. قتلوه فقط من أجل أن يستلوا منه نقوداً ظنوا أنه يملكها. فقضوا على البقية الباقية من حياته التي كنا نظن أنها ستنتهي قريباً من داء السكر والعلة القلبية المستفحلين لديه .
إلى أي جنس ينتمي القتلة؟! من أيّ طينة جُبلوا؟! إنهم حتماً لا يمتّون إلينا بصلة قرابة بشرية، كيف ينامون؟! كيف يستيقظون؟! كيف يأكلون؟! كيف يشربون؟! بماذا يحلمون؟! بماذا يفكرون ؟! ماذا يشترون بالمال الذي يحظون به من جيوب ضحاياهم؟! هل هم متأخرون عنا إلى هذا الحد؟! أم أنهم متطورون بالاستدارة إلى نقطة الصفر البدائية؟!
١٦ / ٦ / ٢٠٠٤

صديقتي العزيزة ..
في الآونة الأخيرة بتنا نسمع عن أحداث كثيرة مماثلة للتي جرت لخال صديقتيك. رحمه الله وأعان أهله جميعاً على مصابهم .

أرى مكرها، رغماً عني، أن لا حل يتأتى إلا بإقامة المقاصل لمثل أولئك القتلة ليكونوا عبرة لأمثالهم، فيرعووا.. فإن جاز أن يُغفر للسارق فعلته من أجل رغيف خبز.. إلا أن إقدامه على قتل نفس بريئة من أجل بقائه حياً، لن يغتفر له البتة، فما بالنا إن كان يقتل ليرتع في ملذاته ..

يؤسفني أن أشرطة الموسيقى ستصلك في وقت مأزوم، يخيّم عليك فيه الحزن، لكن لعلها أن تنتشلك من الأحزان ..
١٦ / ٦ / ٢٠٠٤

الصديق العزيز
أشكرك جزيل الشكر على الأشرطة الجميلة التي وصلتني هذا الصباح، ولاسيما شريط الغناء الأوپيرالي الذي لا أدري أي حال يبتكر في داخلي، ولا إلى أي زورق يحملني، ولا إلى أي عالم يوصلني. ومن قبيل التفكه، تفحصتْ الطرد من ترافقني اليوم إلى الجامعة، فتساءلتْ مستغربة : إنه لا يبدو منطوياً على كتب ولا على دفاتر، فهل أرسل إليك فيه لعبة؟!
١٧ / ٦ / ٢٠٠٤

صادق
لقد بدأت بكتابة قصة بعنوان مبدئي هو (مهزلة مثقفة شرقية) . بدأت بكتابتها لا من أجل نشرها الآن، فهذا أمر لم يأت أوانه بعد، إنما من أجل أن أفرغ الشحنات التي تم إيقادها في داخلي، وأخلق في نفسي التوازن الذي افتقدته بفعل هذه التجربة القاسية التي لم تقلّ إيلاماً لي عن تجاربي السابقة. إنني بسطوري التي أخطها، بسطوري وحدها، سأشعر بأنني أنا المنتصرة، إذ كم سيلتف حولي من المحامين والقضاة الذين سيتأهبون للدفاع عني : قرائي .
٢٠ / ٦ / ٢٠٠٤

أي ريم ..
كثيراً ما يمنعنا كبرياؤنا، أو كرامتنا الإنسانية، من أن نعاتب الآخرين إذا ما أخطأوا بحقنا، أو ظننا أنهم أخطأوا، وبذا نكون قد صادرنا حقهم في إبداء عذرهم، إذ من الجائز جداً أن يكونوا أخطأوا دون قصد منهم إطلاقاً .
وحين يكون الأمر بين صديقين، ويمتنع أحدهم عن المعاتبة، فإن ذلك يعني أنه لا يشعر بالحميمية نحو صديقه. فالصداقة الحميمة تحضّ صاحبيها على المعاتبة الفورية المباشرة .
ألستُ بعد صديقك الحميم؟
تطرقتُ إلى ذلك لاحتمال أن أكون قد آذيت شعورك، منذ أيام، دونما أدنى قصد مني، أو عدم اكتراث .
أنت لي بمثابة ..... فكيف لا أكترث !!
٢٢ / ٦ / ٢٠٠٤

مرحباً صديقتي ..
سهرة البارحة التلفزيونية مع سعيد عقل كانت ماتعة، ولا شك في أنه شاعر كبير، بيد أن ما يبدو من غطرسة وخيلاء في شخصه، يبخس من قدر إنسانيته .
ما يدعو إلى الأسف، أنه رغم معرفته الواسعة، ورغم تجاوزه التسعين، مازال لا يدرك أن تواضع الكبير يزيد من تقدير واحترام وحب الآخرين له، في حين أن خيلاءه يحول دون ذلك .
وجليّ أن سعيد عقل لا يعجبه إلا ما يوحي بالعظمة والقوة والأنفة، ولا يؤخذ إلا بالجمال الكلاسيكي الذي ينشد الكمال، متعالياً على البساطة والعفوية رغم ما فيهما من جمال أيضاً .
والغريب في شخص يمجّد العلم ويدّعيه منهجاً لحياته، أن يبني حبه وتعلقه واهتمامه بالبلدان المعاصرة، على أسس تاريخية موغلة في القدم، لمجرد أن أناسها البائدين قد قاموا في زمانهم بعمل ما، مجيد، أو اعتنقوا فكراً أو مقولة ما، أو أن تلك البلدان مازالت تضم تمثالاً ما .
له أن يرى ما يرى، إلا أنه بما تقدم ذكره، أراه يدعو إلى الشفقة .

كم استخف عقل بعقول الناس وهو ينتقد جبران في مطلع قصيدة (أعطنِ الناي وغنِ) يبغي تضليلهم قائلاً إن جبران قد ساوى الله بالغناء، في قوله "فالغنا سر الوجود"، فعقل يعدّ الله سرّ الوجود . بيد أن جبران – كما أرى – لم يقصد سوى أن الغناء يحاكي أرواحنا، ويروّح عنّا .
وكأني بعقل المتديّن يريد لَيَّ ذراع جبران الذي كثيراً ما تطرّق إلى سلوك المنتفعين- باسم الدين - من الرهبان. وكأني بعقل يحسّ بالغيرة من جبران !

وكأني بطاغور يصف حال (عقل) إذ يقول :
" إن اسمي هو سجن يبكي فيه من أحبسه بين جدرانه، إنني أُعنى دوماً برفع صرح حول نفسي، وحين يسمُق هذا الصرح متطاولاً، يوماً فيوماً، فإنني أضيّع عن ناظريّ في ظله المظلم، وجوديَ الحقيقي. وإنني لأتيه فخراً بهذا الصرح الكبير، وأرمّم أطرافه بالتراب والرمل، خشية حدوث ثغرة مهما تكن صغيرة ولكنني، في كل هذه العناية التي أحيط بها اسمي فإنني أضيّع عن ناظريّ وجودي الحقيقي ".
٢٣ / ٦ / ٢٠٠٤

ريم ..
(مهزلةُ مثقّفةٍ شرقية) عنوان لافت لقصة، ما خطر لي أنك ستختارين عنواناً على هذه الشاكلة ! كنت أتوقع أن تختاري عنواناً رومانسياً.. (سمفونية لم تكتمل) على سبيل المثال. وإذا بي أفاجأ وأنت تأتين بعنوان جذّاب ينطوي على التمرّد والاستنكار، فيغري بقراءة ما يندرج تحته، فأحسنتِ الاختيار كعادتك .
لقد أثرتِ فيّ تساؤلاً وأنت ترين أنه لم يأت بعد أوان نشر القصة ! لماذا ترين ذلك يا ترى ؟
٢٦ / ٦ / ٢٠٠٤

ذات مساء صيفيّ
هطلت أمطارٌ غزيرة على بلدتي
فأخذت بذراع طيفكَ

وبِنا
نحو جنائن الأزل
حيث تفتّحَ اسمانا
تعطّر حلمانا
فلعل السماءَ الدانيةَ هناك
تندى بصباح غدنا
لعلها تهمي
بهلالِ شُرفتنا .

ريم
٢٠٠٤ / ٦ / ٣٠

ريم ..
رغبتُ في أن أرسل لك شريطاً بصوتي، أقول في مقدمته :
" حلوٌ أن (تثمر أزهار الكرز في كنفي)*، لكن الأحلى أن تثمر زهرة الزهرات في دوحتي .
إليك صوتي لعله يبقى لديك ذكرى وأنا أقرأ ما حققه (وفيق غريزي) في كتابه (نساء في حياة جبران) وأثرهن في أدبه " .
بيد أني، بعد أن سجلتُ إهداء وتمهيد الكتاب، وجدت صوتي لم يعد نقياً كسابق عهده، فضلاً عن أن مسجلتي لم تعد تنتج تسجيلاً صافياً، لذا فقد عدلت، آسفاً، عن تحقيق رغبتي .
كيف حالك.. وما هي أخبارك ؟
ربما تحبذين أن أعيد إليك كتاب (آه .. يا نفحة الأبدية)** إذ إنه يحمل إهداء إحدى صديقاتك، أم ترين أن أحتفظ به؟
٢٠٠٤ / ٧ / ١
* مستوحاة من عبارة لريم في إهدائها لي كتاب (أزهار الكرز) شعر ياباني مترجم .
** كتاب شعر ياباني لـ (تويوتاما تسونو)، ترجمة: د. عبدو زغبور .

أستاذ صادق
إليك مداخلة حول العادات السيئة في مجتمعنا .
كثيرة هي العادات التي تحكم مجتمعنا، وهذه العادات أحياناً تكون إيجابية مستحبة لابد من وجودها، وأحياناً تكون سلبية مستهجنة ينبغي أن يتم تجاوزها، إما لكونها سلبية بحد ذاتها، أو لأن الزمن الذي تطور لم يعد يسمح بوجودها. ومن ضمن هذه العادات السلبية أريد أن أقف عند ما يتعلق منها بمجال واحد، وذلك لكي أفسح الفرصة للمشاركين الآخرين كي يقفوا عند ما يتعلق منها بالمجالات الأخرى. إنه مجال الزيارات التي نقوم بها للأهل والأقرباء والأصدقاء. فمن المعروف عنا، نحن العرب، كم نحب الضيوف ! وكم نحسن استقبالهم ! ليس الآن فحسب، إنما منذ الجاهلية حين كنا نوقد النار أمام بيوتنا كي نرشدهم إلينا. ومن المعروف كم تحمل كلمة زيارة في الأصل من دلالة على حميمية العلاقات الإنسانية واستمرارها وفق الصورة الصحية السليمة .
لكن للأسف هناك بعض العادات السلبية التي تشوب هذا المجال، ويفترض بنا أن نتجاوزها كي نجعل زياراتنا متخذة أجمل صورة وأنقاها وأكملها. من هذه العادات السلبية، عدم الدقة في المواعيد، فأحيانا أحد ما يضرب معنا موعداً في يوم معين، ساعة معينة، ننتظره ، فنرى أنه أخلف

في موعده الدقيق، إذ قد يتأخر نصف ساعة، ساعة، أكثر، وأحيانا يخلف بصورة كاملة، فلا يأتي على الإطلاق، علماً أنه كان ينبغي أن يتذكر أن وقت الآخرين ليس في الأساس ملكاً له، إنما هو ملك لهم، وكان من حقهم أن يصرفوا وقتهم هذا فيما ينفعهم ويجدي بدلاً من أن يصرفوه في انتظاره .
عادة أخرى سلبية تتعلق بالزيارات، هي الزيارات المفاجئة. فنحن أحياناً نباغت الآخرين بزيارتنا لهم من دون موعد مسبق، من دون أن نخبرهم، من دون أن نعلمهم، برغم كثرة وسائل الاتصالات ويسرها في هذه الأيام. علماً أنه كان ينبغي أن نتذكر أن هؤلاء الآخرين قد لا يكونون على استعداد لاستقبالنا، قد تكون لهم ظروفهم، خصوصياتهم، أسرارهم، قد تكون لهم مواعيدهم التي يريدون أن يلتزموا بها .
عادة أخيرة أريد الوقوف عندها، وهي تتعلق بصورة خاصة بالنساء، فأحياناً ما إن تخرج الزائرة من بيت مضيفتها حتى تبدأ أمام من تلقاه بانتقادها والتجريح فيها لمجرد أنها التقطت عليها نقطة سلبية في أثناء استضافتها، علماً أن هذه النقطة قد تكون صغيرة جداً، وقد لا تساوي أي شيء مقابل ما يمكن أن تكون مضيفتها قد بذلت من الجهود والطاقات والأوقات في سبيل إسعاد زائرتها!
كم أتمنى أن تشكل هذه الحلقة منطلقاً لتجاوز عاداتنا السلبية السيئة التي تشمل هذا المجال وكل المجالات، وذلك لكي ننهض بمجتمعنا نحو الأرقى والأرقى .
٢٠٠٤ / ٧ / ٧

دكتوره ريم ..
فيما يتعلق بالزيارات المفاجئة المستهجنة عموماً، التي تحدثتِ عنها في مداخلتك عن بعض العادات السسيئة في مجتمعنا. من ناحية، أرى أنه في بعض الصداقات أو العلاقات، تكون الزيارة المفاجئة ذات وقع أجمل على المستقبِل والمستقبَل معاً. ومن ناحية أخرى، أن الزائر من دون إعلام مسبق، قد يعفي المُزار من عبء الترتيبات التي ربما يراها لازمة لواجب الضيافة .
ولا شك أن الإعلام عن الزيارة مسبقاً، لهو أليق وأكثر حضارية في العلاقات العامة كما تفضّلتِ .
٢٠٠٤ / ٧ / ٧

أستاذ صادق
مداخلة حول (الشعر والشباب) قدمتها منذ أشهر :
الشعر ديوان العرب. بهذه العبارة أستطيع أن أكثّف المكانة الرئيسية التي اكتسبها الشعر العربي القديم في تراثنا، وأن أعبر عن مدى قدرة هذا الشعر على استقطاب المتلقين الكثيرين . لكن هذا ما كان في العصور الماضية، أما في العصر الحديث، فأرى أن الأمر اختلف إلى حد بعيد، فالشعر للأسف لم يعد يشكل ديواننا ! السبب في رأيي لا يعود إلى المتلقين أنفسهم، فالمتلقون لايزالون يحبون هذا الجنس الأدبي، ويتعلقون به، إنه إذاً بالشعراء أنفسهم الذين لم يعودوا يكتبون نصوصاً قادرة على الوصول إلى الآخرين، بل نصوصاً ملغّزة معقّدة غامضة، والسبب ربما هو أنهم حين دخلوا ما يسمى بتجربة الحداثة، لم يخرجوا منها إلى الآن، وبعد ستة عقود، بتجربة ناضجة متبلورة ! وبناء على هذا الغموض، بناء على هذا الإلغاز، حدثت فجوة ما بين الشاعر والمتلقي، حدث حاجز كثيف.. الشاعر الذي لم يعد يقول ما يُفهم لعدم امتلاكه بعد الوسائل التقنية

التعبيرية المرنة، والمتلقي الذي لم يعد يفهم ما يقال برغم رغبته في استمرار تواصله مع الشعر والشعراء !
١٥ / ٧ / ٢٠٠٤

صادق
هذه مداخلة حول الهاتف الجوال، قدمتها بالأمس لإذاعة منونتي كارلو :
كل شيء يتطور في هذه الدنيا لابد من أن ينطوي على جانبيه الإيجابي والسلبي، والأمر ذاته ينطبق على الهاتف الجوال. فمن الناحية الإيجابية، الهاتف الجوال ليس كذاك الهاتف الثابت في مكانه، بل أصبح بالإمكان أن ننقله معنا إلى حيث نتنقل، وما يعني هذا من إمكان استخدامنا له كوسيلة اتصال في أي مكان نشاء، وفي أي لحظة نشاء. كما أنه لم يعد يشكل ملكاً جماعياً، لم يعد ملكاً لمجموع أفراد العائلة، بل أصبح ملكاً فردياً، وما يعني هذا من إمكان وصولنا إلى من نريد الاتصال به والتحدث إليه بصورة مباشرة ودون الحاجة إلى الاستعانة بالوسيط الذي قد يجيب عن اتصالنا من خلال الهاتف الثابت .
أما من الناحية السلبية، فللأسف، الكثيرون.. ولاسيما الفتيان والفتيات، استغلوا إيجابيات الجوال هذه، استغلوا يسر انتقاله واستغلوا تحوله إلى ملك فردي من أجل أن يتفرغوا من خلاله للأحاديث الفارغة المطولة، وكذلك من أجل ابتداع الرسائل الفكاهية المسجَّعة التي لم تعد تنطوي على مشاعر صادقة، ولاسيما حين يتم تناقلها من شخص لآخر .
وخلاصة ذلك كله، إننا إذا ما نظرنا إلى الهاتف الجوال من ناحيته الإيجابية، فإنه سيغدو وسيلة ضرورية لابد منها، نظراً لما يؤدي من خدمات اتصال يسيرة وتلقائية، أما إذا نظرنا إليه من ناحيته السلبية، فإنه لن يشكل وسيلة رفاهية، فوسائل الرفاهية قد تعود بالنفع على أصحابها، كامتلاك سيارة أو بيت جميل أو بيت في مصيف، إنما سيغدو مجرد وسيلة لتبديد الطاقات والأوقات والأموال، ونحن نعلم كم يحتاج الفتيان والفتيات في مجتمعنا إلى توظيف طاقاتهم وأوقاتهم وأموالهم فيما يعود بالنفع عليهم وعلى مستقبلهم .
٢٥ / ٧ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
لأيام عديدة، ينتابني قلق جمّ عليك، بسبب هذا الغياب المفاجئ لصوتك وسطورك !
أرجو أن يكون خيراً .. كي أستعيد طمأنينتي .
٢٨ / ٧ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
لم يكن غيابي الوجيز عنك إلا لأسمع صوتك وأحظى بسطورك ..
فأنت جد ضنينة بهما عليّ ! وربما لتلك الكآبة التي تأبى إلا أن تطفو بين آن وآن على سطح نفسي، دور في خلودي إلى الصمت ..
فلا ينشغلنّ بالك، واطمئني .
٢٨ / ٧ / ٢٠٠٤

منذ أهديتَني الوردتين
وأنا أحميهما في الغلاف الذي
يضم أوراقك إليّ
حذَراً عليهما من الغبار
من كل شيء
وإن غدتا في هذا اليوم ذابلتين
فإنهما لاتزالان
مفتحتين في أعماقي
كما نحن عبر الزمان
كما نحن بعون السماء

ريم
٢٩ / ٧ / ٢٠٠٤

أيتها العزيزة ..
قبيل تلقيَّ أسطرك الشعرية الرفيعة الرائعة، كنت انتهيت من ترجمة أسطر، لأرسلها إليك. هي كلمات أغنية بعنوان (ابتسم) .
وهاهي كلماتك عن الوردتين الذابلتين المفتحتين قد جعلتا قلبي يبتسم ..
منذ أيام حضرت على قناة (2) الفضائية، حلقة من برنامج (أوبرا) ذي الشعبية الواسعة بفضل مضيفته الزنجية خفيفة الظل. وكانت الضيفة يومها الممثلة والمغنية الأمريكية الشهيرة (باربرا سترايساند) التي لها فيلم قديم مع النجم عمر الشريف بعنوان فتاة مرحة. وفي آخر اللقاء، غنّت هذه الفنانة المحبوبة – وقد تقدمت بها السن دون أن تنال من شكلها وروحها المرحة – أغنية قديمة عنوانها (ابتسم) كنت قد سمعتها منذ سنوات بعيدة، بأداء مغنية غيرها، فكان لأداء (باربرا) وللحن المتواشج مع معاني الكلمات أيّما تواشج، تأثير بالغ في نفسي كما في نفوس الحاضرين في الاستوديو، الذين ما استطاعوا كتمان عبرات انحدرت على وجناتهم. فرأيتني في اليوم التالي أقصد محلاً لَمّا يزل يحوي أشرطة للأغاني القديمة، لعلي أن أعثر على الأغنية. عثرت عليها لكن ليس بصوت باربرا، بل بصوت المغني الشهير (نات كينغ كول) الذي احتواه أحد الأشرطة التي أرسلتها لك. كنت أوثر أن أعثر على الأغنية بصوت باربرا، فقد أحببت الأغنية بأدائها أكثر، وإليك الكلمات :

ابتسم رغم ما يعتصر قلبك من ألم
ابتسم ولو كان قلبك يتفطّر..
حين تملأ الغيوم السماء
ستُلفي نفسك ماراً بها إن أنت
ابتسمت رغم مخاوفك ومآسيك ..
ابتسم.. فربما غداً سترى الشمس تشرق لك ..
أضئ محيّاك بالفرح
واخفِ أي أثر فيك من كدر
حتى لو كانت الدمعة توشك أن تنهمر

لقد آن لك أن لا تني تحاول
ابتسم.. ما جدوى البكاء؟!
ستجد الحياة لمّاتزل جميلة
جديرة بأن تحياها
إن أنت ابتسمت .

فلنبتسم إذاً .. يا ريم
٢٩ / ٧ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
انتهيتُ منذ أيام من قراءة مجموعتَيّ الأديب فاضل السباعي القصصيتين (حزن حتى الموت) و (رحلة حنان)، ومما لفتني في المجموعة الثانية احتواؤها على قصة قد تطابقت إلى حد بعيد مع قصة عشتها حين كنت طالبة في المرحلة الثانوية، فالبطلة في قصة السباعي طالبة استطاعت بتفوقها أن تستحوذ على تقدير كل من في المدرسة من مدرسات وإداريات باستثناء واحدة فقط هي الموجّهة التي كانت تكيل لها الإهانات التي لا تستحقها، إلى أن اضطرت الطالبة في النهاية إلى رفع أمرها للمديرة التي ما لبثت أن راجعت المدرسة بشيء من القسوة. أما بالنسبة إلى قصتي، فقد استطعت – أنا الأخرى – بتفوقي أن أستحوذ على التقدير المتميز والمحبة الكبيرة من المدرسات والإداريات في المدرسة باستثناء واحدة فقط هي المُدَرّبة التي درّستني مادة التربية العسكرية حين كنت في الأول الثانوي، إذ استطعت بإحساسي المرهف أن أتبين ما تضمر لي من ذلك الشعور المماثل لدى الموجهة تجاه طالبتها، وأن أدرك تماماً كم كانت تحاول، كلما سنحت لها الفرصة، أن تلحق بي من المضايقات التي كانت كل واحدة منها كافية لإيلامي ريثما يأتي حين الأخرى، بل كم كانت تتوجه إليّ بضمير المخاطب – أنتِ – بدلاً من اسمي المعروف، كما هي الحال تماما لدى الموجهة في القصة تجاه الطالبة. وهكذا إلى أن أنهت مُدَرّستي معي ذلك العام بعدم منحي، في امتحان مادتها، سوى ثماني درجات فقط من أصل ثلاثين، وحين توجهَتْ إليها موجّهتي لائمة معاتبة لما سببتْ من تأخير مرتبتي، تذرعتْ لها المدربة بأنني لم أشترك في المسيرة التي أُعفيتُ منها ومن سابقاتها بحكم وضعي الخاص. ثم استكملتْ سيرتها ذاتها معي في الثاني الثانوي والثالث الثانوي إلى أن تفرقنا بتخرجي من المدرسة إلى الجامعة. وأكثر ما كان يبعث على دهشتي وتساؤلي هو أن هذه المدربة كانت تلاطف الطالبات جميعا باستثنائي أنا على نقيض المدربات الأخريات اللائي كنّ بحكم المادة المسؤولات عنها يتشددن مع الطالبات جميعاً باستثنائي أنا التي كنت ألقى ما يكفي من لطفهن ودماثتهن. وهكذا مرت الأيام والشهور والأعوام ليتاح لي لأن ألتقي زوج مدربتي الذي كان مُعِدّاً لأحد البرامج، ولألقى منه ومن برنامجه ما يكفي من التقدير والاهتمام اللذين عوضاني عمّا لاقيت من تلك المدربة، إذ كم كان يكرّس الدقائق الكثيرة من برنامجه لتتبّع نشاطاتي الثقافية منذ صدور عملي الأول (العرّافة)، وكم كان يقدّم من قراءات لمقاطع من كتاب سيرتي (البصر والبصيرة) الذي كان لايزال حينئذ مخطوطاً ريثما تتم طباعته، بل كم كان يهتف إليّ مسائلاً بإلحاح عن اليوم الذي سيصدر فيه هذا الكتاب عن دار الآداب. لكن للأسف، لم تُتَح له الحظوة بنسخة منه إلا بعد فترة طويلة، لظروف قسريّة.
ورداً على فضله الكبير عليّ لم أجد من سبيل سوى أن أقضي العامين اللذين قضاهما في الخارج وأنا أكثر من الاتصالات الهاتفية ببيته لتفقد أحواله وأحوال أسرته، ولأبعث إليه أخبره بكل المواد

الإذاعية والتلفزيونية التي ستقدَّم حولي، إلى أن عاد منذ شهرين بحمد الله. أما زوجته فلم تجد من سبيل لاستكمال تعبيرها عن انقلاب موقفها حيالي، موقفها الذي تحوّل إلى الاحترام والمحبة الكبيرين لي، وإضمار الندم العميق على ما سبق أن فعلَتْ إلا بتوديعي، لدى زيارتي لهم مهنئة، بهبوطها معي ومع صديقتي الدرجات الكثيرة من باب بيتها إلى باب المدخل الخارجي المؤدّي إلى الشارع، غير آبهة بإلحاحاتي الكثيرة عليها بالرجوع، ولا بضيوفها الآخرين الذين كانوا حينئذ يزورونها.

كم كان ينبغي أن تدخل مُدَرّستي هذه (البصر والبصيرة)، لا للثأر منها، إنما لاستكمال سيرتي، لكن حال دون ذلك، مؤكَّداً، زوجها الذي لم أسمح لنفسي بخدش إحساسه النبيل بالإيحاء إليه بأي أمر يتعلق بزوجته لا بصورة مباشرة ولا غير مباشرة .

٢٠٠٤ / ٨ / ١

دكتوره ريم ..

ارتأيت اليوم أن أتحدث في السياسة والمجتمع، من منظور واسع، إذ كلما سمعتُ جدَلاً حول أساليب الحكم، أو شهدت منافسة في تفضيل فرد على فرد، أو حزب على آخر في تولي زمام الحكم، أراني بذلك أمام تمثيلية مضحكة مبكية، تدعوني إلى الإشفاق على أولئك الذين يستبشرون خيراً لمجرد تغيير أو إبقاء رئيس دولة أو حكومة بناء على برنامجه الذي ينتوي تطبيقه نحو الإصلاح والتقدم! إذ تنقسم الآراء بين مؤيّد ومعارض، وتشتد المعمعة ولا تنتهي إلا بعد انتهاء التمثيلية . وكأن الطريق نحو الخلاص لن يتأتى إلا بقيادة فرد بعينه أو بأسلوب حكم دون سواه، في حين أن تلك الجلبة الانتخابية، إن لم تكن مهزلة، لن تؤدي في نهاية المطاف إلا إلى استفادة فرد ومن يلوذون به من امتيازات يحققون من خلالها مصالحهم الخاصة، أو على أقل تقدير، توفر لذاك الفرد سنين من التمتع بالنفوذ ورفعة المنصب، ويبقى الشعب رازحاً تحت وطأة المصاعب المعيشية على اختلاف أوجهها !

حتى لو طبّقت الديمقراطية بنزاهة على أحسن وجه، وهذا أقل ما يمكن، أتكون حلّاً ناجعاً نحو العيش المنشود لكافة الشعب، أو على الأقل، نحو العدل والمساواة، وعدم هدر أموال الدولة ، والتيقن من صرفها في مكانها الصحيح بكل نزاهة من قبل القيّمين عليها ؟! ما معنى أن ينتخب المواطن فرداً لا يدري عنه سوى شكله، وربما أقواله وما يدّعيه من نوايا، غير متأكد من صدقه وإخلاصه؟! إذ حتى لو كان المرشح صادقاً خالص النية فيما يبديه من برامج نهضوية براقة .. أيمكن له أن يقود السفينة منفرداً؟! ألا يجدر بنا أن نتساءل عن نزاهة واستقامة باقي القادة مساعديه على اختلاف مراكزهم الرقابية والتنفيذية؟! إذن علامَ ذاك الهياج والصخب، أو التعويل على اختيار قائد لن يكون بمقدوره منفرداً إصلاح أخطاء متراكمة على مدى سنين، أو تحقيقَ ما هو ضروري للنهضة بالوطن والمواطن ؟! هذا إن سلّمنا جدَلاً بنزاهة هذا القائد وإخلاصه الحقيقيين مقرونين بنكرانه المنفعة الشخصية .

ولنأتِ إلى نظريات أنظمة الحكم من ديمقراطية، ملكيّة، رأسمالية، اشتراكية، شيوعية، دينية، أو علمانية .. أي ضير في تطبيق إحداها أو سواها، إن كان يؤدي إلى تحقيق كرامة المواطن، وتهيئة العيش الكريم له إلى أقصى حد ممكن.. وكما يقول المثل : (هل نبغي العنب أم الناطور؟!)، فإن كنا ننشد الوصول إلى (العنب)، فإنا لن نجنيه إلا بأجيال أناسها أفاضل أقوياء النفوس، بدءاً من القاعدة حتى الرأس .

ويبقى السؤال : من ينشئ تلك الأجيال، وكيف..؟ في خضمّ حياة جُلّ أناسها يلهثون راكضين وراء منافعهم الشخصية للتمتع بمفرزات الحضارة المادية.
٢٠٠٤ / ٨ / ١

صديقي
رداً على رسالتك المتعلقة بالمجتمع والسياسة، أقدم هذا التعليق المكثف :
بعد انتهاء السيدة (تاتشر) من مهمتها السياسية، أخذت بيد حفيدها، وعادت إلى حديقتها. وبعد انتهاء الرئيس العراقي السابق وزجّه في السجن، انصرف – هو الآخر – إلى الاهتمام بالحديقة الملحقة بزنزانته، وبقراءة الكتب الكثيرة وكتابة الشعر. وبعد انتهاء السجان في إحدى قصص زكريا تامر من قتل سجينه، أخبر أحد مرؤوسيه بأنه سيعود الآن إلى البيت من أجل الاستراحة وقراءة بعض الشعر. ماذا يعني هذا كله؟ ألا يعني أن الأجواء التي كانوا يعيشونها هي غبار في غبار؟ وأنهم يحتاجون بعد تجاوزها إلى الاغتسال منها من خلال العودة إلى النقاء؟ إلى الطفولة والأزهار والشعر؟
٢٠٠٤ / ٨ / ٣

صديقتي ..
رسالتك الجميلة عن اغتسال السياسيين من الغبار العالق بهم من خلال العودة إلى النقاء ..
جعلتني أتساءل : ألا يمكن للإنسان أن يكون نقيّا ويسعى إلى تنقية الأجواء حين يرتبط الأمر بمصائر الآخرين؟ ألا يمكن له أن يفيء إلى الطفولة والأزهار والشعر وهو في غمرة المسؤولية؟ ذاك غاندي العظيم وآخرون في أمريكا الجنوبية، مثلاً .
فأجبت نفسي : يمكن ذلك للقلّة القليلة، أما الغالبية الغالبة، البعيدة عن الله، المبهورة بعقولها وحنكتها، فلا يمكنها ذلك، إذ غالباً ما تغلّف أفعالَها بالخير لتصل إلى مآربها الخاصة. وهاهي النتيجة اليوم نراها جليّة في تردّي السياسة والأحوال العالمية عموماً، عقاباً إلهياً دنيوياً ، يستحقه سكان الأرض .
٢٠٠٤ / ٨ / ٣

صديقي
استمعت في هذا اليوم إلى برنامج علمي إذاعي تم التطرق في فقرة منه للثقوب السوداء القادرة على ابتلاع كل ما يدانيها . وما إن تمّت الإشارة إلى بُعدها كل البعد عن كوكبنا، وما عنى هذا من استعادتي شيئاً من الطمأنينة بعدما ساد نفسي شيء من الرهبة كما هي عادتي كلما تذكرتها، حتى استدركت قائلة : بل إن ثقباً أسود ههنا، إنه بيننا، ينتقل عبر كل زمان ومكان، إذ أليس الموت – هو الآخر – لا ينفك يبتلع الكائنات والأشياء؟! ليته يبقى بعيداً عنا، بعيداً عنا على الأرض، فلا يبتلع سوى آلامنا وأحزاننا .
٢٠٠٤ / ٨ / ٤

صديقتي ..
يبدو أن التفكير في الموت يقلقك كما الناس جميعاً، أما أنا فقد خفّ ذاك الهاجس لدي بعد قراءتي

لكتاب (حياة بعد حياة) الذي ترجمه عن الفرنسية الدكتور طه اسحق كيالي، رحمه الله. يتحدث الكتاب عما رواه – من مشاهدات وحالات – أشخاصٌ فارقوا الحياة لثوانٍ أو دقائق، بحسب تشخيص الطب السريري، ثم عادوا إليها .
إن كنتِ تودّين الاطلاع عليه، يسرّني إرساله إليك، لعلك لا تتهيبين الموت بعد قراءته، مادمت لا تغضبين الله .
٢٠٠٤ / ٨ / ٥

صديقي العزيز
قِصّتا الفيلمَين* اللتين رويتهما لي، ذكّرتني أولاها، إلى حد ما، بقصة واقعية حدثت في بيت جدي، وقد انتهيت من خلالها كما انتهيت أنت إلى أن المتآلفَين مهما قست عليهما الظروف أحياناً، وحالت بينهما، فقد تأتي ظروف إيجابية تمارس هي قسوتها على السلبية لتعيد المتباعدَين إلى التداني، والقصة هي على النحو التالي :
كان في بيت جدي كلبة تدعى (فلّة)، ونظراً لما حظيَتْ به من مكانة واهتمام ودلال، فقد كنت – أنا الطفلة – أطلق على جدتي التي ترعاها : الجدة فلّة، تمييزاً لها عن جدتي الثانية التي كنت أطلق عليها : الجدة سلّم، لعلو بيتها عن الأولى التي تسكن الطابق الأرضي. وبينما كان جدّي وأسرته عائدين من المصيف إلى المدينة، توقفت بهم الحافلة لغرض ما، ثم استأنفت سيرها. وبعد وصولهم إلى البيت تفقدوا (فلّة) فإذا هم يدركون تلقائياً، حين لم يعثروا عليها، أنهم ربما غفلوا عنها حين تسللت مؤكداً من الحافلة في أثناء الاستراحة، فغفلوا – من ثمّ – عن عدم صعودها قبل استئناف الانطلاق، فحزنوا عليها حزناً شديداً، وبدوا كما لو أنهم فقدوا فرداً منهم. وبعد حين، لا أعرف كم طال، فوجئوا بفلّة تقف ببابهم عائدة إليهم متعبة مترية، مجتازة إلى من أحبتهم وأحبوها عشرات الكيلومترات، وتحديداً من قرية (كفرية) إلى اللاذقية، ففرحوا بها فرحاً شديداً كما لو أنها بُعثت من موتها . أما قصة الفيلم الثانية التي انطوت على الصراع مابين العاطفة والواجب فقد ذكرتني بمسرحية (السيد) لـ (بيير كورناي)، هذه التي تحار فيها الحبيبة ما بين حبيبها وأبيها .
كما أنها ذكّرَتني ..... .
٢٠٠٤ / ٨ / ١٠
* فيلمان سينامائيّان مذكوران في (سوانح) هذا الكتاب، تحت عنوان - من الأفلام -

---

ينعكس النور
من الأشياء إلى العين
فتتبدّا الصّور
لكن شعاعاً
من عينيّ
نفذَ إلى عينيها
عاكساً
جمالاً في خَفَر*

صادق
٢٠٠٤ / ٨ / ١١
* من وحي زيارتي لريم وأسرتها .

ونحن نلزم الصمت ... ما بين حين وحين ... ما بين حين وحين ... على دربنا الظليل ... أحس بأننا نقول ... ما لم نقله ونحن نتحدث .
ريم
١١ / ٨ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
لكثرة سماعي أخباراً عن زيجات غير موفقة – سواء بقي الزوجان متعايشين تحت سقف واحد غير متفاهمين ولا منسجمين، أو انفصلا – أضحيت لا أرى من داع للابتهاج والهرج والمرج الذي يواكب عقد القران من حفلات الأعراس الباذخة الطنّانة الرنّانة.. إذ إنه لا ضامن لاستمرار حياة العروسين على حال الوئام.. إن بالمشاحنات التي لا تهدأ، أو بالانفصال أو الطلاق. ولدى لمسي فرحة خطيبين أو عروسين ببعضهما، أو رؤيتي لابتساماتهما العريضة المتفائلة، أتساءل : ترى.. أيدوم فرحهما وابتسامهما مدى الحياة ؟ ألا يمكن أن يكون عرسهما بداية حياة شقاء لأحدهما أو كليهما ؟
لذا، بِتُّ أرى أن على الزوجين الاحتفال بالعرس بعد مضي فترة طويلة من عيشهما سوياً على وفاق وتآلف.. ولتكن هذه الفترة مقسّمة، بحسب ما يعتمده البعض في إحياء ذكرى الزواج، على ثلاث مراحل (يوبيلات) فضية ، ذهبية ، وماسية ، على أن يكون الوئام بينهما سابغاً كل مرحلة حينها يكون عرساً حقيقياً.. جديراً بالاحتفاء .
١٥ / ٨ / ٢٠٠٤

صديقي
كتبت منذ أيام خاطرتين قصيرتين بوحي من صداقتنا، لكن سأأجّل إرسالهما إلى الغد، رغبة مني في مقاصصتك .
١٨ / ٨ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
اليوم والبارحة ، كان قلبي يحدثني بأنك ربما تتساءلين عن سبب صمتي القصير، وكنت أنوي محادثتك اليوم قبيل استلامي رسالتك الأخيرة بلحظات، لأعلمك أن ليس من سبب لسكوتي سوى كثافة العمل في هذه الأيام .
ولثقتي بأنك تصدّقين هذا التعليل، فإنني أستعجلك إرسال الخاطرتين دون تأجيل .
لك سلامي .....
١٨ / ٨ / ٢٠٠٤

صادق ...
حين أعلمتك يوماً ... أنني ما بين حين وحين ... أسامر شاطئنا ... سألتني أن أتذكرك ... وأسلم لك عليه ... وبالأمس سامرته ... فاستجبت ... وكان ذلك ... وسع الزرقة اللانهائية ... وعمقها ...
صادق ...

إننا لا ندري ... ما إذا كان الله يوماً ... سيسعدنا تحت سقف واحد ... إنما ... ألا ترى معي ... كم نحن الآن سعيدان .... بتواصلنا النوراني ... تحت سقف السماء ؟ ...
٢١ / ٨ / ٢٠٠٤

عند السَّحرْ
رسمتُ لوحةْ
من ربىً .. ويمام .. ومطرْ
جلستُ إليها
أرشف قهوةْ ..
إذا بطَيف ريمٍ سارحةْ
تختال رشيقةً مزهوّةْ
وثبةً في إثرِ طفرةْ
أيّ نشوة !!

صادق
٢٢/ ٨ / ٢٠٠٤

- أوّاهُ عصفورتَنا
حزنٌ لا يني يعتصرنا
عُشَّك لا تبرحين !
حُلُمٌ لا يني يُراودُنا
تَرُفّينَ .. تحلّقينْ
الأجواءَ تجوبينْ
ليتك حلُمَنا تُحقّقينْ
- أوّاهُ عليكم..!
من عُشّي هذا
أرى ما لا تَرَون ..
ببصيرتي ..
أجوبُ الآفاقَ البعيدةْ
أزور الكواكبَ والنجومْ
أرى نفوسكم أكثر مما ترَونْ
يا ليتكم لا تحزنون

صادق
٢٢ / ٨ / ٢٠٠٤

صديقي
تعقيباً على الموضوع الذي طرحتَه سابقاً حول الاحتفال بالزفاف، إنني أرى أولاً أن الزواج أمر

شخصي جداً.. شخصي جداً، لا علاقة له إلا باثنين هما اللذان يبغيان الارتباط، ومن ثم، فإن الاحتفال به، وبتكرار الاحتفال بذكراه، لا ينبغي أن يضمّ سوى هذين الاثنين .
أمر مبكر حتماً على مجتمعنا الذي لايزال يقدس العلاقات الاجتماعية السائدة، لكنه لابد يوماً من أن يصل إلى تصوري هذا حين سيرى في هذه العلاقات جانبها السلبي المثبط للحرية، وحين سيرى في الناس الذين يشاركون في الاحتفال، مهما ابتهجوا، مَن لا صلة لهم بالفرح الحقيقي الذي يسكن الزوجين .
٢٣ / ٨ / ٢٠٠٤

عزيزتي ..

إن أنا كما قلتِ
أضحيتُ أديباً
إني لك أكون مديناً
كنتِ لي إلهاماً
ولمّا تزالي لقريحتي إيحاءً
فأنا لم أكن يوماً كما اليومَ
كَتّاباً

٢٤ / ٨ / ٢٠٠٤

إليك عزيزي قُصيدة (سُمُوّ) لـ بودلير :

أنت يا نفسي تندفعين بخفة فوق المستنقعات
والأودية والجبال والغابات
فوق الغيوم والبحار، وراء الشموس والأثير
وتشقّين – كالمحراث، وكسبّاح ماهر تُطْربه الأمواج –
الفضاء الواسع العميق بنشوة عارمة لا توصف
طيري يا نفسي بعيداً عن هذه الروائح الكريهة
واذهبي وتطهري في الفضاء الواسع العالي
وليكن شرابَك الإلهيّ النقيّ هذا الضياءُ اللامع
الذي يملأ أجواز الفضاء الصافية ..
ما أسعد من يستطيع بجناح جبار
أن ينطلق إلى الحقول المضيئة الصافية
تاركاً وراءه السأم والأحزان الكبيرة
التي تهيمن بثقلها على هذا الوجود الغامض
ما أسعد من كانت أفكاره كطيور القبر
تنطلق في الصباح لتتابع طيرانها حرة في السموات
وما أسعد من يحلق فوق الوجود
ويفهم دون كبير عناء

لغة الزهور والأشياء الصامتة

٢٥ / ٨ / ٢٠٠٤

عزيزتي ريم ..
لو لم تذكري أن قصيدة (سُمُوّ) هي لبودلير، لقلت وأنا أقرأها، إنها لريم ..
لكن لي مأخذ صغير على بودلير لذكره (المستنقعات) بدلاً من البحيرات .. مثلاً .
لابد أنه ذكرها ليبرر رغبته في الطيران بعيداً عن الروائح الكريهة.
لكنه أراد لنفسه الطيران بعيداً عن الروائح الكريهة بعد أن ذكر كثيراً من معالم الطبيعة الجميلة، وكأنه شملها مع المستنقعات، اللهم إلا إن كانت الترجمة قد تسببت بذلك الإيحاء .
أما عدا ذلك ، فإنني أحييكما وأشدّ على يديكما ..
٢٥ / ٨ / ٢٠٠٤

كلما أمتعتني قراءة
كلما داعبتني نسمات رطيبة
كلما رَعَشَ قلبي لأغنيّة
كلما انسابت فيّ ألحان شجيّة
تمنيتُ لو كنّا معاً
سويّة

صادق
٢٦ / ٨ / ٢٠٠٤

ريم العزيزة ..
لتوّي أنهيت قراءة المقطوعة النثرية التي نظمها د. بديع حقي عن (ملارميه) راهب الفكر وصائغ الحرف.. لأنحني مرة أخرى أمام (بديعنا) ذاك الناثر الفذ، وأستعير كلمات المثّال (رودان) التي قالها في صديقه (ملارميه) بصوت مسموع ساعة الجنازة، وأقول : ترى كم ذا يقضي هذا الكون من زمن، ليُخلَق فيه مرة أخرى (بديعٌ) مثلُ هذا .
فإن كان (ملارميه) صائغ الحرف الفرنسي.. فإن (بديعاً) لهو صائغ الحرف العربي الحديث بلا منازع .
وأنتهز هذه المناسبة لأحكي لك أنه حين علمت أن (بديعاً) كان قد أمضى مدة من عمله الدبلوماسي في استانبول، كنت قد تساءلت عمّا إذا كانت تلك المدة قد تزامنت في الخمسينيات مع مدة تواجد عمّي (عادل) قنصلاً لسورية في استانبول، لاسيما أن الرجلين متماثلين في العمر. وبما أن والديّ كانا قد أمضيا شهرهما العسلي في استانبول بضيافة عمّي، كنت قد سألتهما عمّا إذا كانا قد سمعا من عمّي اسم بديع حقي، فنفيا. لكني في قرارة نفسي كنت أرى أن لابد ثمة من معرفة بين الشابين آنذاك لتواجدهما في زمن واحد، في مجال عمل واحد، في بلد واحد، إلى أن تأكدت من أن العزيزين عليّ قد عرف أحدهما الآخر، بعد استبياني الأمر من ابنة عمّتي هيام المقيمة في دمشق، وهي في عمر أمّي، فقد كانت يوماً في زيارة لأخيها الذي كان يدرس في استانبول، واحتاجت تمديد جواز سفرها، فقابلت الدكتور بديع لذاك الغرض فساعدها. وأكدت لي أن عمّي والدكتور بديع كانا

صديقين في دمشق قبل تواجدهما معاً في تركيا، وأخذت تسرد عليّ الحوار الذي جرى بينها وبين البديع . كم تمنيت لو كان عمّي مازال حياً ليحدثني عنه .
وفي زيارة لاحقة لابنة عمّتي لنا في حلب، تكرمت عليّ بأن جلبت لي معها نسخة من ديوان بديع الشعري (سِحْر) يحمل إهداءً بخط يده لشقيقها فوزي كيالي يوم كان يتابع دراسته في تركيا . ولشدّ ما كانت فرحتي بالديوان الوحيد لبديع .
٢٨ / ٨ / ٢٠٠٤

أيتها العزيزة ..
ولو ليس بالضرورة أن نتبادل الكُرة قذفة بقذفة، لكنها منذ أيام ساكنة في ملعبك !
وأنا منشغل البال .. فلمَ لا تبالين ؟!
٣١ / ٨ / ٢٠٠٤

صديقي
قبل زيارتك لنا بيوم واحد، أصابتني آلام في فكي الأسفل، لاتزال قائمة إلى اليوم، وإنْ بدرجة أقل . ومنذ ذلك الحين بدأ والدي بمساءلة الأطباء من حوله ليقدم كل منهم إجابة مختلفة، إلى أن عاد منذ أيام من السفر الطبيب الثقة الذي قدم الإجابة القاطعة والنهائية المدركة أنا إياها في داخلي سلفاً، فما حالتي هذه سوى انعكاس لحالة نفسية. وحين أخذ والدي يطالبني حزيناً متأثراً بالإفصاح عمّا بي، أو بما يعلمه هو تماماً بحسب يقيني، لم أرد عليه إلا بدموعي التي خانتني، ثم بالانسحاب من مجلسه، إيماناً منّي بأن الصمت هو الذي يشكل اللغة الأكثر قدرة على التعبير حين لم تنفع لغة الكلام، هذا بالإضافة إلى ما أحسست به من أن شيئا من حقي قد استعدته .
٢٨ / ٨ / ٢٠٠٤
أرسلتْ في ٦ / ٩ / ٢٠٠٤

أيتها العزيزة ..
ما أخبرتني به في رسالتك الأخيرة، تركني للحظات مابين ساهم أمامها، ومستعيد قراءة سطورها - لحظاتٍ لفّني الحزن خلالها.. وتمنيت أن تدهم الآلام فكيّ السفلي والعلوي معاً، لعلّي أن أكفّر عمّا كنتُ سببا له من ألم بدنيّ، ألمّ بك، ونفسيّ ألمّ بكليكما أنت والوالد الطيّب. ويسوءني جداً أنك ماتزالين تعانين، وإنْ على نحو أخفّ، من تلك الآلام حتى اليوم .
ليتني أتمكن من أن أكون سبباً في إزالة تلك الآلام.. هل ترين ذلك في مِكنتي بطريقة أو بأخرى؟
٧ / ٩ / ٢٠٠٤

صديقتي الغالية ..
لابد وأن الكثيرين قد أثنوا على ما في صوتك ونطقك من خصوصية محببة لدى السامع، وأنا منهم طبعاً، بيد أني أخصّ حرف النفي (لا) في أثناء حديثك، ولاسيما حين تسوقينه مكرّراً (لا.. لا..) فيا لحلاوة نغمته تترسل منك.. أذوب لها طرباً، وكأنها نغمة (لا) المعهودة في الصولفيج الموسيقي، بل أجمل !
وأنا حائر.. أأطلب إليك الإكثار من ترديد هذا الحرف فأطرب.. أم التقليل، فلا أرَدّ !

٢٠٠٤ / ٩ / ٨

مقطع من قصيدة (محمد عمران) : وجه ريم

من رأى ريم
آتية في البياض ؟
يطوفُ بها أفقٌ
من سوادٍ هتون ..
من رآها ترفّ
بخطْوِ الهواء ؟
فيرعَشُ قلبُ السكون ..
من رأى اسمَ ريم
يتنزه بين الكلام
على كوكب الكائنات القديم ؟
ولأنّ ريم
كالضوءِ في المصباح
كالعطرِ في الجوارير
ولأنّ عنصرَ قلبِها
لا يقبلُ التقسيم
سمّيتُها
ياقوتة النور .

ريم
٢٠٠٤ / ٩ / ٨

هل ما ورد في رسالتكَ الأخيرة هو دليل على قدرتكَ المتميزة في الترصّد؟! لا.. لا.. بل على رهافتكَ ورقة إحساسك وشاعريتك، وقبل كل شيء على محبتك واهتمامك .

ريم
٢٠٠٤ / ٩ / ٩

لصديقتي .. ممّا ورد في كتاب طاغور بصياغة (البديع) :
" أمّا كيف يتردد الغناء في لهاتك، أيها المعلّم، فذلك ما لا أعلمه البتة، وما عليّ إلا أن أصغي دوماً في طرب صامت. إنّ نور موسيقاك يضيء الدنيا... ولهاثَ موسيقاك المفعم بالحياة ينسربُ من سماء إلى سماء. إن الموجة المقدسة المنثالةَ من موسيقاك تعبر الحواجز الحجرية ثم تهدر ماضية مسرعة. إن قلبي يتشوف إلى الاتصال بغنائك، ولكنه يجهد عبثاً في الوصول إلى الصوت، وأود أن أتكلم، بيد أنه لا يتّسق من كلامي أيّ أغنية، وأنتحب باكياً مرتبكاً. آهِ أيها المعلّم، لقد جعلت قلبي أسيراً في شباك موسيقاك التي لا نهاية لها " .

" يا قلبي.. كن متحفزاً للانطلاق وذرْ أولئك الذين عليهم أن يتخلفوا . لقد تعالى نداءٌ باسمك من سماء الفجر. لا تنتظر أحداً. إنّ البرعم يتوق إلى الليل والندى، غير أن الزهرة المتفتحة تنادي النور ليخلّصها . حطّم قيودك، أيها القلب، وانطلق " .
٢٠٠٤ / ٩ / ٩

في مثل هذا اليوم ... قطف الأبوان من حدائق السماء ... شمساً بألوان الكون جميعاً ... بعطور الكون جميعاً ... ومنذ ذلك الحين ... وهي تطوف وتطوف ... باحثة عن نوافذي ... إلى أن سطعت عليها ... صباحاً نديّاً ...
(ريم)

من صَرخ فرحاً ..
عند ولادة اللون الأزرق ؟
(نيرودا)
عيد سعيد ..
ريم
٢٠٠٤ / ٩ / ١٢

تلك الشمس .. كم ستحزن .. كم ستحزن .. إن أنتِ يوماً أوصدت نوافذك دونها .. لابد ستعود إلى حدائق السماء .. بلا لون .. ولا عطر ..
أناشدكَ يا ذاك اللون الأزرق .. أتوسل إليك .. ألا تنْصل أو تتبدل .. كي لا تموت فرحة الذين فرحوا بولادتك ..
صادق
٢٠٠٤ / ٩ / ١٢

ريم ..
كانت حفلتي البارحة بعيد ميلادي جميلة على أنغام (الضفائر) التي قدّمها الأستاذ قنديل من أوبرا (كارمن) ولم يكن يحتفي معي سوى طيفك متوسداً كتفي.. وقد تشابكت أصابع يدينا، مستمتعين معاً ..
ترى هل تراءى لك طيفي .. في تلك اللحظات ؟
٢٠٠٤ / ٩ / ١٣

نعم .. لقد كنت معك .. ألا تتذكر؟! لكن حبذا لو كنتُ حينئذ متأكدة من سماعك للمقطوعة، ليكون سماعي أكثر جديّة، وأبعد عن الفوضوية التي اضطررت إليها اضطراراً، فحرمتني من سماع جزء من البداية، وآخر من النهاية. لكن لا بأس، سأعاود الاستماع إلى الحلقة التي ستعاد الآن، الساعة الواحدة والنصف .

لقد حاولت بالأمس الاتصال بك كي أضيف إلى معايدتي الكتابية أخرى صوتية، لكن أخبروني، للأسف، أنك قد خرجت لكون الساعة قد قاربت الثالثة وعشرين دقيقة. على أي حال، أرجو أن تكون قد قضيت يوماً جميلاً قبل الحفلة الموسيقية وبعدها، وأن يكون في الأعوام القادمة أجمل .
ريم
١٣ / ٩ / ٢٠٠٤

*** أجمَل ما في كتاب (تساؤلات) لـ بابلو نيرودا :**

- لماذا لا تتنزه الطائرات الهائلة مع أولادها، مع العصفور الأصفر الذي يملأ بالليمون العش؟
- إذا متُّ ولم أنتبه ، فمن أسأل عن الساعة ؟
- قل لي : هل الوردة عارية .. أم ليس عندها غير هذا الثوب ؟
- لماذا تخفي الأشجار بهاء جذورها ؟
- هل يتحدث الدخان مع الغيوم ؟
- لماذا تنتحر الأوراق عندما تشعر باصفرارها ؟
- هل الدموع التي لا تنذرف تنتظر في بحيرات صغيرة ؟
- ماذا قال الياقوت أمام عصير الرمان ؟
- من صرخ فرحاً عند ولادة اللون الأزرق ؟
- هل يشتغل الملح والسكر في بناء برج أبيض ؟
- هل أقدر أن أسأل كتابي إن كنتُ حقاً أنا كتبته ؟
- أين يترك النسر خنجره وقت يستلقي على غيمة ؟
- هل خبأ الأغنياء أحلامهم في صندوق معدني ؟
- هل سينصهر خرابك في صوت آخر .. في نور آخر ؟
- ماذا سيولد من رمادك ؟
- ألا ترى حريراً في شقيقة النعمان الدامية ؟
- ما الذي تحكيه من جديد أوراق الربيع الحديثة ؟
- ترى هل تعيش الأوراق سراً في الشتاء مع الجذور ؟
- ما الذي تعلمته الشجرة من الأرض كي تتحادث مع السماء ؟
- أين ينتهي قوس قزح .. في روحك أم في الأفق ؟
- الأب الذي يحيا في الأحلام .. هل يعود ليموت عندما تستيقظ ؟
- عندما أرى البحر من جديد .. هل يراني هو أيضاً .. أم لا يراني ؟
- كيف يمكن الإزهار في صحراء الملح ؟
- ماذا أقول للقرنفل شاكراً له شذاه ؟
- بأي لغة يسقط المطر فوق المدن المتوجعة ؟
- ما المقاطع الناعمة التي يرددها هواء الصباح البحري ؟
- ما اسم الأعاصير وقت سكونها ؟
- إذا كانت الأنهار كلها عذبة، فمن أين يأتي الملح ؟
- كيف تعرف الفصول أن عليها أن تغير قميصها ؟

- والجذور كيف تعرف أن عليها أن تصعد إلى النور ومن ثم أن تحيّي الهواء بكل هذه الأزهار والألوان ؟
- من يعمل أكثر في الأرض .. الإنسان أم شمس الغلال ؟
- من تحب الأرضَ أكثر.. الشريينة أم شقيقة النعمان ؟
- هل يدخل الخريف بشكل قانوني أم أنه فصل سرّي ؟
- وأين يترك بنطاله الأصفر معلقاً ؟
- ومتى يصدر تحت الأرض قرار تعيين الوردة ؟

صادق .. كم تذكّرني هذه التساؤلات ببعض تساؤلاتي التي انطوت عليها أشعاري، والتي كانت تستوقف الأديب حنّا مينه إلى حد بعيد ! ويبدو أنني بعد قراءة هذا الكتاب الذي انتقيت لك حقاً أجمل ما فيه، تحفّزتُ لكي أنجز ما يماثله عنواناً ومضموناً، نظراً لما تحسست من تلاق بيني وبين الشاعر ضمن هذا المجال، مجال التعمق في أسرار الإنسان والحياة والكون، والدهشة حيال غرائبها .

ريم
١٦ / ٩ / ٢٠٠٤

ريم ..
أشكرك لك جداً ما انتقيت لي من تساؤلات نيرودا، وعلى الوقت والجهد اللذين بذلتهما من أجلي .
وقد شوّقتني لقراءة تساؤلاتك وأنت تُبدين تحفّزك لإنجازها .
أنا غداً في كَسَب لقضاء يومين مع الأهل ومجموعة من المرافقين. ليتك وأهلك تكونون بيننا .
١٦ / ٩ / ٢٠٠٤

---

* تساؤلاتي :
- متى هطل أول فجر على كوكبنا ؟
- ماذا يقول الوليد في يومه الأول ؟
- أين بيت آدم وحواء ؟
- إلامَ ستبقى الصخور صامتة ؟
- هل البراكين والخمائل في الأرض ظلال للجحيم والنعيم في السماوات ؟
- كيف لا ينسى الله أبداً أن يسكب البياض والشذى ولو في فلّة واحدة ؟
- ما عدد شرفات السماء ؟
- هل هناك من أحصى بذور الأرض ؟
- هل يشكر الورد أصابعي حين تلامسه برفق ؟
- لماذا يبقى الياسمين صامتاً حين أحدثه ؟
- لماذا كلما سكنت بيتا تفرّ أنهاره إلى البعيد البعيد ؟
- هل تبتسم البحار للمطر أم تقول له كفاني ثراء ؟
- ماذا يفعل الله الآن ؟
- كيف لي صغيرتي أن أشهدك عجوزاً على عكازك ؟

- هل نحن ننمو يوماً بعد يوم أم نذبل يوماً بعد يوم ؟
- لماذا لا يتشابه يومان في حياتي كما تتشابه عيناي ؟
- هل من وردة تعرف اسمي ؟
- لماذا لا أعلو قليلا كي أصير فوق الضجيج والغبار ؟
- في أي بحر تغوص أفراحي الغائبة كي أفرّ إليه حاملة شِباكي ؟
- لماذا لم يرافقني يوماً القمر إلى المدرسة ؟
- كم شمعة يوقد الله كل يوم حتى ينتشر النهار ؟
- من زار بيت الشمس الذي تعود إليه كل مساء ؟
- لماذا لا يأخذني العصفور مرة في نزهته السماوية ؟
- من أي بحر كل هذه الأزهار .. من يكتب لي عنوانه ؟
- من يترجم لي حرفاً واحداً من لغات الطيور ؟
- هل بيتي القائم أبداً في مكانه يصلّي ؟
- في أي زاوية من فضاء الفرح تختبئ أحزاني ؟
- لماذا لم يكن البحر بيتي ، هل رفض المرجان دخولي ؟
- هل البحر مرآة الكون ؟
- أما جذبت السماء طفلاً كي يرسم شيئاً على صفحتها اللانهائية ؟
- هل للزنابق أيضاً آدم وحواء ؟
- لماذا لم تتعلم بلابل مدرستي القراءة والكتابة ؟
- هل نسائم شرفتنا رسائل شفافة زرقاء من أعماق البحر ؟
- في أي نجم بنى جدّي بيته العلوي ؟
- ماذا تكتب العصافير بأرياشها على لوحة الفجر ؟
- هل أطلّ الحمام يوماً على جنينة جدتي السماوية ؟
- كيف إلى الآن أسمع أصوات رفاقي الراحلين ؟
- ألا تزال تذكرني جدتي السابحة في القمر ؟
- أإلى هذا الحد تحبني الشمس حتى تتبعني إلى أي مكان ؟
- هل الكتاب الصامت بين يدي يقرأني مثلما أقرأه ؟
- لماذا لا أعدّ قهوة لعصفور يحط على نافذتي ؟
- هل الأعياد تنتهي في زرقة الهناك ؟
- ماذا يُسطَّر من حكايات في الأعماق ؟
- ماذا يقول الصمت على شرفات الغيوم ؟
- كم يلزمني من الوقت لأتلو كتاب الأرض ؟
- هل جدران بيتي ثوبي الحجري ؟
- هل المغنّي الراحل صامت في بيته الآخر ؟
- حين أنام في ليلي لماذا لا أحمل قلمي ؟
- كم نفْساً على هذه الأرض أعرفها ؟
- كم صباحاً أطلّ على نوافذ الكون ؟
- ما عدد حبات المطر التي انهمرت على بيتي ؟

- ما عمركِ أنت أيتها السماء الفتية ؟
- هل عرفتْ الآفاق حكايتي ؟
- من أي سلّم سأنزل بيت سكينتي ؟
- لماذا يلتفّ الملوك بكل هذه السلاسل ؟
- ما أول كلمة قالوها لي ؟
- أين يومي الأخير .. في أي زاوية سرّية يختبئ ؟
- وأنا أبكي وحيدة ، ألا ترمقني النجوم ؟
- هل النجوم سُبحة مضيئة فرطتها السماء ؟
- أهي براكين بشرية نفوس الجبابرة ؟
- هل السيد في الأغلال عبد آخر ؟
- لماذا ما عاد أحد يشتري لي دمية ؟
- ألا تسأل عني مدرستي كل عام جديد ؟
- هل الوردة البيضاء وهي تتفتح أنا في طفولتي ؟
- لماذا لا تدور أرضنا المسنة على عكازين ؟
- هل الثلاثاء اليوم هو ذاته الثلاثاء يوم ميلادي ؟
- كيف في ذلك اليوم عقدوا حروف اسمي ؟
- لماذا لن أعثر على عكازي إلا بعد سنوات وسنوات ؟
- ألا تشعر ساعة الجدار بالدوار ؟
- كيف لا تفوح سطوري بدخان حرائقي ؟
- بماذا تحلم العصافير في رقادها هذا المساء ؟
- ماذا تظنني الحمامة البيضاء كي تفر مني إلى المدى ؟
- لماذا يحزننا الخصام .. أهو واحد من أشكال الموت ؟
- هل صوت القيثارة مرآة لغناء الينابيع للقمر ؟
- متى يحتفل الضوء بذكرى ميلاده ؟

ريم
٢٦ / ٩ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
إليك تساؤلاتي المنبثقة عن بعض تساؤلاتك :
- إن لم تعثري بعد على عكازك، إذن أنا من ؟
- في حضرة البجعة، كيف لا تفر الحمامة البيضاء إلى المدى ؟
- لماذا رسومك دائماً هي الأجمل على صفحة السماء اللامتناهية ؟
- هل من وردة لا تعرف اسمك ؟
- أتشعر أصابعك بقبلات الورد حين تلامسه برفق ؟
- ألا ينثر الياسمين أريجاً خاصاً حين تحدّثينه ؟
- لماذا كلما سكنتِ بيتا تحيط به أنهار ؟
- كيف تعلين دائماً فوق الضجيج والغبار ؟

- لماذا لا تحملين شِباكك وتفرين إلى بحري حيث تختبئ أفراحك ؟
- لماذا كان القمر يرافقك إلى المدرسة كل يوم دون أن يشعرك بوجوده ؟
- هل نزهات العصفور السماوية أجمل أم نزهاتك الروحية ؟
- ألا يكترث أحد ببحر أزهاري ؟
- كيف لي أن أتعلم لغة الطيور لأترجمها ؟
- أكانت لنا أفراح لو لم تكن لنا أحزان ؟
- هل من صباح آخر أطل على هذا الكون غير صباح ميلادكِ ؟
- هل من أفق لم يعرف حكايتكِ ؟
- لماذا لم يجعل الله سلّما لبيتي كي ينزل عليه من يبغي السكينة ؟
- كم نجماً يرامقكِ وأنت تبكين وحيدة ؟
- لماذا ينسى الأطفال دُماهم حين يرونكِ ؟
- لماذا تسأل عنكِ مدرستك كل عام جديد ؟
- هل الوردة البيضاء وقد تفتحت على أبهى صورها، أنتِ دائماً ؟
- لماذا أحبكَ يا يوم الثلاثاء ؟
- لماذا أتخيل الأسرة والعائلة جميعاً اجتمعوا ليعقدوا حروف اسمكِ ؟
- كيف لسطور الملائكة أن تفوح بدخان حرائقها ؟
- هل تحلم بكِ مساءً العصافير التي حطّت على نافذتك ؟
- لماذا يحتفل الضوء في اليوم التاسع عشر من نيسان ؟
- كم ريماً مثل ريمتي خلق الله على الأرض ؟

صادق

٢٧ / ٩ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق

لقد كنت أظن كل الظن أنك لن تتمكن من الإجابة عن أي من تساؤلاتي، فإذا أنت تجيب عنها من خلال تساؤلاتك الأجمل التي هزّتني، وجعلتني أنا التي أحصل على علامة الصفر .

يمكنك أن تقرأ حواراً أجرته رفيف مع السيدة ليلى المقدسي في جريدة تشرين – عدد اليوم . ولك الشكر .

٢٨ / ٩ / ٢٠٠٤

دكتوره ريم ..

لابد من أن أضيف إلى تساؤلاتي بالأمس تساؤلاً آخر :

- أيّ شهادة تقدير وامتياز يمكن لها أن تفي قدر أستاذ يعطي نفسه علامة الصفر أمام تلميذ مَتَحَ واستقى منه ؟

٢٨ / ٩ / ٢٠٠٤

أستاذ صادق
في مثل هذا اليوم ، وربما في مثل هذا الوقت، تناهت إلى سمعي أنغام كمانٍ صباحيّ، قد بددت عني ظلمة كانت تكتنفني ...
صوتك الأول ... سطورك الأولى ...
٢٠٠٤ / ٩ / ٢٩

أيتها الصديقة ..
منذ لحظات، في غمرة العمل، غازلتْ سمعي أنغامُ پيانو صباحية ساحرة ...
انتشلتني بكل رفق، وحلّقتْ بي نحو البحر ...
٢٠٠٤ / ٩ / ٢٩

.....
مازلتُ مشغول البال بفكّيَ الجميل .. كيف حاله ؟
ما حلّ يا ترى بالقصة التي تتحدث عن فتاة شرقية ؟
صادق
٢٠٠٤ / ٩ / ٣٠

صديقي
فيما يتعلق بفكّي، أرجو ألا تنشغل به بعد، ذلك لأن كلماتك الجميلة هي التي ستأخذني في طريق الشفاء. أما فيما يتعلق بالقصة، فقد انتهيت مبدئياً من كتابتها منذ فترة وجيزة، لكن كم أتردد في إطلاعك عليها حفاظاً على مشاعرك من أي خدش .
صديقتي لينة التي لا تملّ من مساءلتي عنك، تهدي إليك السلام .
٢٠٠٤ / ١٠ / ٢

أعدك يا ريم ألا تُخدش مشاعري .. فهلّا أطلعتني على القصة .
لا تترددي يا ريم..أنا في أشد الشوق للاطلاع على القصة.
أشكر لصديقتك لينة اهتمامها وهديتها .. فبلغيها عني السلام .
صادق
٢٠٠٤ / ١٠ / ٢

نجم :
ألا أقبل إليّ يا قمر
القمر :
يتلاشى عنك ضيائي إن أنا أتيت
ألا أقبل أنت إليّ
النجم :
يأفل عنك بريقي إن أنا فعلت .

آثرا البقاء كل في مكانه
قمر ينير .. ونجم يلمع
رغم توق موّار في كليهما
للانصهار الأبدي في الآخر

أغنية (يا رَيْت) الفيروزية يا ريم، تدغدغ مشاعري كلما ناسمت سمعي عبر المذياع، أهديها إليك كلما استمعتِ إليها .
صادق
٤ / ١٠ / ٢٠٠٤

صديقي
لقد فاتني أن أشكرك على الأوراق التي وصلتني منذ أيام، لكنه دماغي المزدحم دائماً بالأشياء والأحداث. كما فاتني أن أشير إلى ما يستوقفني من الأناقة والترتيب اللافتين فيما ترسل. وقد تسنّى لي أن أقرأ فقط واحدة من القصص، وسأكمل ما بدأته في الغد بإذن الله. صباح الخير .
لقد فاتك يا صادق أن تخبرني من هو صاحب القصيدة التي بعثت بها إليّ بالأمس حول النجم والقمر . إنها تمثل حالنا تماماً مثلما تمثل أغنية (يا ريت) التي كانت تهزّني منذ ظهرتْ على ساحة الغناء وقبل أن أدرك أنها ستعني لنا شيئاً في يوم ما .
٥ / ١٠ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
كيف لا أكون أنيقاً ومرتباً في كل ما يتصل بك !
لم يفتني يا ريم إخبارك من هو صاحب القصيدة حول النجم والقمر، إذ إنني افترضت أنك ستعرفين أنني صاحبها لأنها، أولاً، تمثل حالنا تماماً، ولأني، ثانياً، لم أعتد أن أرسل لك قصيدة لغيري دون ذكر اسم كاتبها .
لقد فوجئتُ وسررت إذ علمتُ أن أغنية (يا ريت) كانت تهزّك مذ وعيتِ الحياة، إذ إنها كما أعتقد، قد ظهرت على ساحة الغناء قبل أن تستقبلك الحياة . طابت حياتك ..
٥ / ١٠ / ٢٠٠٤

صديقي
وأنا أستعيد في هذا الصباح .. قراءة بعض من رسائلك السابقة .. انسكب المطر الأول على مدينتنا لهذا العام .. فحار سمعي ما بين هطولين : الهطول من سماء خريفنا .. والهطول من سماء الأدب النوراني السميّ . صباح الخير .
٧ / ١٠ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
سطورك الصباحية اليوم أغرتني .. فتمنيت لو كنت إلى جانبك أشاركك الاستماع والاستمتاع كما ولا أحلى . صباح الفل ..
٧ / ١٠ / ٢٠٠٤

لقد استدركتُ بالأمس قائلة لنفسي : هناك أغنيتان لفيروز تحملان العنوان ذاته (يا ريت)، الأولى قديمة، بدايتها (يا ريت انت وأنا في البيت بشي بيت أبعد بيت)، والثانية أحدث، بدايتها (يا ريت من مديتن إيديّ وسرقتك)، وبرغم أن الاثنتين تمُتّان إلينا بصلة قربى، وأن خيالي ذهب إلى أنك تقصد الثانية، فلا أنكر أنني أميل إلى الأولى أكثر وأكثر بفعل ما تنطوي عليه من رومانسية. كما أشير إلى أنني في الفترة الأخيرة أخذت أسائل نفسي : ماذا يفضل صادق من أغنيات ؟ فإذا رسالتك تأتيني تلقائياً لتجيب عن تساؤلي الذي ربما وصلك بالحدس. لقد سُرّت صديقتي لينة بتحياتك التي نقلتُها إليها على الهاتف حرفياً، إذ أشبعتُ شيئاً من فضولها الكبير حيال قصتنا .

هناك أغنية رومانسية أخرى لفيروز أحبها كثيراً ، ولا أدري ما إذا كنت تعرفها، وبدايتها (درج الورد مدخل بيتنا.. ورق الورد يغمر هوانا) .
ريم
٧ / ١٠ / ٢٠٠٤

قضت مشيئة الله أن تحجب عني بعض أسباب الهناءة في هذه الحياة، بيد أنها أكرمتني بأسمى هدية يمكن أن تُمنح في الوجود ، فكانت ريم ..
هل أحلى وهل أجمل .. هل أغلى وهل أثمن .. !
صادق
٧ / ١٠ / ٢٠٠٤

اليوم انتهيت من إعادة النظر في القصة، أي ممّا اعتدت فعله دائماً مع أعمالي الأخرى، وسأبدأ منذ اليوم بالطباعة، جادة فيها وفقاً لما يسمح به ظرفي. رمضان كريم .. عمّو صادق .
المشاغبة ريم
١٦ / ١٠ / ٢٠٠٤

مرحبا عمّو .. أتمنى أن تكون أيامكِ الرمضانية يسيرة، تتذوقين خلالها حلاوة العبادة .. على عكس حالي في هذا العام !
رمضان أكرم يا عين عمّو .. ولا تشاغبي على الماما والبابا ..
عمّو صادق
٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٤

صديقي
الآن عدت من الجامعة منهكة من التعب، لكن مع ذلك لقد قضيت اليوم الساعات التي ألقيت

خلالها محاضراتي وأنا أبتسم ما بين الفينة والفينة بعدما غرقنا في الضحك أنا ومن قرأت لي ردك على رسالتي التي أعتقد أنها أبهجتك، أو حققت لي ما كنت أطمح إليه .
كيف أنت يا صادق؟ أريد أن تطمئنني عنك بشيء من التوضيح بعدما استجد عليك ما استجد .
٢٥ / ١٠ / ٢٠٠٤

الصديقة العزيزة ..
إن كان لأحد أن تُخدش مشاعره من (السمفونية الناقصة) – قصتِنا، فهو كلُّ مَن حالَ أو سعى إلى الحيلولة دون اكتمالها . وبالقدْر الذي عبّرتِ به من خلالها عن منزلتي الحميدة في نفسك الطيبة، فقد أحزنَتْني وأشعرتني بالإحباط الذي لابد أنه يماثل شعورك حيال سمفونيتنا التي ربّما يوماً تكتمل بإذن الله، فنعزفها على الملأ ..
٣ / ١١ / ٢٠٠٤

ريم ..
في سهرة الأمس، طلبت إليّ أمي أن أقرأ لها القصة التي تتشوق لسماعها مذ وصلتني، وتصادف أن كنا وحيدين في المنزل، وكان شيء من اكتئاب يعتريني، لم أر نفسي معه مهيّئاً للقراءة لحظتها، رغم حبي الشديد للقراءة لمن يستمع إليّ . لكن ما إن شرعت بالقراءة حتى زال اكتئابي، سيّما وأن أمي كانت تستمع إلي باهتمام بالغ، وأني كنت بين فينة وفينة أنشغل بتوضيح فكرة هنا وأخرى هناك مما يستعصي عليها استيعابه سريعاً في سياق السرد . ومما كان له الدور الأكبر في انتشالي من اكتئابي. إعجاب أمي اللامتناهي إلى حد الطرَب بما كانت تسمعه صادراً عنك في القصة، وممّا كان يستوقفها بين الأسطر يدعوها لتقول " يا الله.. أيّ إنسانة أنتِ يا ريم.. كم أتوق إلى معايشة إنسانة مثلك .. أحسنت يا ريم .. حسناً قلتِ .. سلم فوك " ذاكَ.. والدموع تواكب تأثرَها الذي بلغ أوجه حين أيقَنَتْ أنك تعين جوهر ابنها حقاً، كما تعيه هي تماماً .
وفي لحظة بلغ فيها جيشان عاطفتها نحوك الذروة، وبعفوية.. مسحت براحة يدها على الصفحة التي كنت أقرأ منها، وكأنها تمسح على خدّك الأسيل البعيد عن متناول يدها. وما إن أنهيت قراءة القصة، حتى قالت : أرى أن السمفونية الناقصة قد اكتملت بعزف ريم لها على الورق.. لقد أطربتني بلغتها الأنيقة تنثر أريج نبلها وإنسانيتها الفائقة.. هنيئاً لكما صداقتكما بُنيّ.. وعلينا أن نتفهم موقف أهلها ونعذرهم .
٤ / ١١ / ٢٠٠٤

صديقي ...
تعقيباً على السهرة الجميلة التي نقلتني إلى أجوائها، وجعلتني أسرح عبر آفاقها، أختصر قائلة : لقد ساءلتني ذات يوم : من أين تأتين بكلماتك الجميلة ؟! وأنا الآن أسائلك : ومن أين أتيت أنت بأمك الأجمل؟! أمك التي لا أشعر بضآلتي إلا أمامها، والتي كم وكم تشعرني بالحاجة إلى القرون، بل الحقب، من أجل أن أرتقي إلى ملائكيتها. أرجو أن تقرأ لها أيضاً (تساؤلاتي) التي سبق أن أرسلتها إليك . سلامي لها ولك .
٦ / ١١ / ٢٠٠٤

صديقي
لقد كنت أظن كل الظن
أنه منذ صباح الأمس
قد انتهى العيد
لكن ما إن أتاني المساء
وهطل على سمعي وروحي صوتها
صوت الأم الحبيبة
حتى أدركت
أنه أضيف إلى عيدي
عيدي أنا دون سواي
يوم رابع وخامس ...
١٨ / ١١ / ٢٠٠٤

صادق
إجابة عن السؤال الذي طرحته علي بالأمس، أعتذر عن إرسال الفاكس الذي وعدتك به، حذراً من أن يحملك مضمونه على المزيد من الانتظار الذي قد لا يكون مجدياً بفعل ما يقوم بيننا من عوائق، ولاسيما العائق المادي الكبير الذي يحول دون مساعدتي على تجاوز كل ما سواه مهما كان ، واتخاذ القرار الحاسم .
وتكفيراً عن ذنبي الذي أحس به حيالك منذ أشهر، فإنني أرجوك كل الرجاء أن تستعيد حقك في البحث عن طريق حياتك ومستقبلك، وهذا ما أعتقد أنني دعوتك إليه منذ فقدان الأمل في اجتماعنا .
كل السعادة أتمناها لك، أنت الذي ستبقى بيني وبين نفسي الصديق الأغلى .
لا تحزن يا صادق، فكل أمر في هذه الحياة له نهايته لا محالة، ونحن نهايتنا المحبة كما البداية .
وداعاً ..
٢٤ / ١١ / ٢٠٠٤

ريم العزيزة ..
كم ساءني ما حملته رسالتك اليوم، كم ساءني ما أدى إليه سؤال لم أطرحه إلا على سبيل الدردشة ليس أكثر، رغم تأكيدي على ذلك لحظة طرحه، وأنا الواثق تماماً من أن تأكيدي لديك لا يحتمل غير الأكيد !
جميل أن نكون رومانسيين، لكن ليس إلا حد لا يرضاه الله .
فهمت من رسالتك ما لم تدلي به صراحة، ولا حتى إلماحاً، وهو وجوب أن يشعر كلانا أن الآخر ينتظره مهما طال الزمن، فإن كان سؤالي بالأمس أفقدك هذا الشعور فبئس الأمر، وفضّ فوي .
أمّا ما تشعرين به من ذنب حيالي منذ أشهر، فأعتقد أننا طوينا الأمر بتفهّم متبادل.. لم يكن من داعٍ لأن تتطرّقي إليه ثانية .
وأنّا حين طرحت سؤالي المشؤوم، لم أكن أرى أنك تقفين عائقاً أمام حقي في البحث عن طريق

حياتي ومستقبلي، وكنت قد بينت لك سابقاً أنني لا أبحث ولن أبحث عن رفيقة حياة، تاركاً الأمر لله ليختار لي ما فيه خيري .
وممّا أثار استغرابي، أنك رغم ما تتحلين به من رومانسية فائقة، تعتبرين أن العائق المادي الكبير، كما تصفينه، يحول دون مساعدتك على تجاوز كل ما سواه مهما كان، وأنت، كما علمت منك فيما سبق، المستخفّة به جداً إن كان يشكل عائقاً !
الغالية دائما وأبداً ..
إن كنتِ لسبب ما، يتعلق بك أو بمن حولك، رأيتِ أنّ (سمفونيتنا الناقصة) لن تكتمل، وعلينا إنهاءها على المحبة، ورأيت سؤالي ذاك، على فراغ مغزاه، قد هيأ لك المدخل لتقولي وداعاً.. فلك ما تشائين بكل محبة ورضا. أمّا أنا، فلا أرى من داع للوداع .
فإن أرسلت لي الفاكس الذي وعدتني به على الهاتف، فسأوقن، مسروراً ، أنك عدلت عن الوداع .
٢٤ / ١١ / ٢٠٠٤

صديقي
ليس ضرورياً أن تكون قد قصدت من خلال سؤالك الإيحاء إليّ بالعثور على سيدة بديلة، بل ربما التمهيد أمامي لمرحلة جديدة تريد الانتقال إليها، ومن يدري، ربما فقط مجرد اختبار لعواطفي .
لكن ما بعث على تشككي هو ما لاحظت لديك في المرحلة الأخيرة من التخفيف من تواصلك الذي لم يعد شبه يومي، واقتصاره على المناسبات .
ثق يا صادق بأنني لست متذمرة منك، ولا غاضبة عليك، ولا مخاصمة لك، لكن كل ما في الأمر هو شعوري بأنه قد آن الأوان لابتعادي عن طريقك بغية تحريرك من قيودي التي بتّ أنا شخصياً أراها ثقيلة عليك، مادامت تحملك على مداراة مشاعري، وعدم تفكيرك في زوجة أخرى، تسعدك .
ثق يا صادق بأنني لاأزال أستخف بالأمور المادية، وأهزأ بها، بل أزدريها، لكنني لا أستطيع أن أصل في ذلك، مثلما لا تستطيع أنت ولا أي أحد آخر، إلى حدّ إنكارها كوسيلة للعيش، فمنذ شهور، وأنا أدوّر ذهني وأصابعي في حسابات وحسابات، فلا أنتهي من خلالها إلى أي نتيجة معقولة .
صادق.. لا شك أن مبادرتي الأخيرة آلمتنا نحن الاثنين، لكنها في الحين ذاته أشعرتني بشيء من راحة الضمير حيالك، فإذا ما شئت المزيد من الانتظار ريثما يأتي فرج ما قريب من عند الله، فلن أشعر بعد بأن عليّ ذنباً ينبغي أن أكفّر عنه .
٢٥ / ١١ / ٢٠٠٤

ريم ..
لو افترضنا جدلاً أنني أمهّد لمرحلة جديدة أريد الانتقال إليها أو حتى عثرت على بديلة، أو كنتِ أنت كذلك بدلاً عني، أليست الأسباب المؤدية إلى ذلك واضحة لكلينا، وبناء عليها لم يطلب أحدنا الانتظار من الآخر، بل إن كلينا ينتظر المقدَّر بوعي وتفهّم !
لذلك لا أرى مبرراً لإخفاء الأمر أو التمهيد أو التلميح إليه في حال وجد البديل لأحد منا .
وإن يكُ تواصلي، كما تقولين، لم يعد شبه يومي أو اقتصر على المناسبات، فذاك أمر طبيعي، غير مقصود، بعد أن عرف كل منا الآخر وخبر أحواله ووعى منزلته في نفس وليفه جيداً .
أتوسل إليك ألا ترَي نفسك عثرة في طريقي، أو أنك تأسرينني بقيد بات ثقيلاً عليّ، في الوقت الذي

أرى فيه أننا بالظروف التي تحكم صداقتنا، بل حبنا، لا يتوجب أن يكون أحد منا عثرة في طريق الآخر أو قيداً له. كم أتوق إلى أن تتفهمي هذه الفكرة .
وكلانا ننتظر الفرج.. إن هيّأ لي الله رفيقة حياة، فكوني على ثقة بأنني سأبث إليك الخبر سريعاً كي تفرحي لي حقيقة.. كما أرجو أن تبُثي إليّ خبراً مماثلاً، في حال وجوده، كي أفرح لك من قلبي .
إليك قصيدتي التي كانت ستصلك قبل يومين لو لم يحل دونها سؤالي ذاك وما أسفر عنه :

عصفورتي ..
أسمَعُك تغرّدين لي منادية
وأعي أنك سئمت أيامك الباردة
وأنك تلتمسينَ دفءَ جناحيَ
ورفقتيَ الدائمة ..
وكلانا يلوبُ نزقاً من أسلاكٍ شائكة
باحثاً عن فرجةٍ سانحة ..
أسألُ الله قوةً خارقة
لألويَ تلك الأسلاك الجائرة
وأحملَك معي إلى عُشٍّ لنا
في البراري الشاسعة

٢٥ / ١١ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
أتكون عاطفتك نحوي متأثرة بالمناخ الشتائي الذي يغمّ النفس هذه الأيام، لألفيَها ثلجية، رغم الصفاء من بعد كدر طفيف لم يدم أكثر من يوم .. أم ماذا ؟
٣٠ / ١١ / ٢٠٠٤

صديقي
صباح الخير ... كما تعلم مسبقاً .. أنا أستنفد نهارَي الأحد والاثنين في دوامي الجامعي المديد، إضافة إلى أنني بالأمس انشغلت في زيارة طبيب. سأرسل إليك قريباً خواطر أعِدها لموقع الانترنيت، وأعتقد أن بكمّها الذي لا بأس به، سيكتمل بعون الله كتابي (سطور) الذي أبتغي نشره . أشكر حرصك واهتمامك .
١ / ١٢ / ٢٠٠٤

صديقي
انتهيت في هذه اللحظة من إعادة النظر في خواطري المتبقية قبل طباعتها على آلتي .. ونظراً لحجمها الذي لا بأس به، ارتأيت أن أرسلها إليك عن طريق شركة النقل، مرفقة إياها بكتاب (مِرداد) لميخائيل نعيمة، إذا لم يسبق إطلاعك عليه، إذ قرأته مؤخراً ، وأعجبت به من حيث شبهه إلى حد ما بكتاب (النبي) لجبران .
إليك تحياتي الدافئة ... وأنموذجاً من خواطري :

وأنا طفلة على الشاطئ ... ضيّعت حقيبتي الجميلة ... هل رأيتَها؟ أم أن حورية سرقتها .. إلى بيتها الأزرق ؟!
٤ / ١٢ / ٢٠٠٤

صديقتي ..
سأنتظر متلهّفاً لقراءة ما تنوين إرساله إلي ..
لابد أن حورية لطيفة قد رأفت بحالي فاكتفت بسرقة الحقيبة دونك من أجل ألّا أحزن .. كم أشكرها ..
٤ / ١٢ / ٢٠٠٤

صادق
النهار اليوم في مدينتي .. رائع الجمال .. كم أتمنى أن أمسك بخيوطه المضيئة، فلا أدعه يغوص في أمواج مسائنا الآتي .
٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٤

ريم ..
خيوط نهارك المضيئة.. قد مسّتني بعذوبة مشاعرك الراقية.. ثم غاصت تنير أعماقي ..
٣٠ / ١٢ / ٢٠٠٤

صديقي
اتصلت بكم أمس، قبيل الساعة الخامسة، لكي أهنئ الأم الفاضلة بعيدها الذي أعتقد أنها تحتفل به منذ ليلة البارحة، فأخبرني الوالد الكريم أنها نائمة، وأنك لم تعد بعد إلى المنزل .
تهانيّ للأم بعيدها .
٦ / ١ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
كنت وأمي ننوي الاتصال بك مساء البارحة لنشكر لك تهنئتك لها بعيدها، إلا أن زواراً شغلونا عن ذلك، ولم نشأ الاتصال بك في وقت متأخر. فأوصتني أن أنقل لك اليوم بالغ تقديرها لبادرتك اللطيفة، متمنية لك وأهلك كل السعادة .
تحياتي القلبية لك ..
٦ / ١ / ٢٠٠٥

صديقتي ..

الورد الليليُّ اللونِ
في الحيّ الوادعِ
والزنبق
شلالٌ من دمعٍ يطفو

مصلوبَ الجفن وما يغرق
وعلى الأنهارِ ترانيمٌ
وحكايا شوق يتدفق
يا طِيبَ العيشِ إذا
تصفوا الأحلام
ويحملنا الزورق ..
غصن الزيتونةِ
قد أورق

تلك أبيات كان يطيب لي سماعها من عمّي يترنّم بها بين وقت وآخر، يوم كان حيّاً بيننا أيام شبابه، وكنت يافعاً. هي على ما أعتقد، للشاعر فيض الله الغادري إن لم أكن مخطئاً، وأظن أن أحدهم قد غنّاها .
إن كانت قد مرّت بك، هل أوردتُها على النحو الصحيح؟ هل لها تتمة؟
١٠ / ١ / ٢٠٠٥

صديقي
لم أمرّ قبلاً بهذه القصيدة الجميلة، لا ملقاة بصوت أحد، ولا مغناة، كما لم أمرّ آسفة باسم شاعرها، لكن ما يهم هو أنني تلقيتها منك في يوم أمس واستمتعت بسطورها وصورها .
سأبعث إليك بنسخة من مجموعتي الأولى (العرّافة)، وبأخرى من مجموعتي الثانية (كل آفاقي لأغنياتك) لتكتمل بهما بحوزتك أعمالي كلها، إذ أتحفني الأستاذ فاضل مشكوراً ، ودون أن أطلب منه، مؤكَّداً، بثماني نسخ من كل من المجموعتين، محضراً إياها من وزارة الثقافة، بفعل وجود صداقة بينه وبين مدير مستودعها. وإذا كان قد أفرحني بما فعل، لأنه لم يكن قد تبقى لي سوى نسخة شخصية من كل منهما، فقد أحرجني كثيراً لتكليفه نفسه – وفق اعتقادي – ما يقارب ألف ليرة سورية .
أخيراً، أعلمك أن السيدة ليلى عاتبة عليك لا أدري قليلاً أم كثيراً لعدم مبادرتك بمعايدتها. أبلغك هذا، ولك ما تشاء أن تفعل .
الثلاثاء ١١ / ١ / ٢٠٠٥

صديقي
بعد تفحصي للنسخ التي بحوزتي من مؤلفي (العرّافة) ، تبين لي أنها جميعاً صحيحة وتامة، ولم تفرغ فيها أي صفحة. لذا سأرسل إليك غداً بإذن الله نسخة أخرى لا نقصان فيها .
اتصل بي منذ سويعة الأستاذ فاضل السباعي لكي يعقّب على سيرتي (البصر والبصيرة) التي انتهى من قراءتها، ولكي يخبرني أن المذيعة التي أجرت معه تلك المقابلة التلفزيونية تريد أن تجري مقابلة معي. وقد سمحت لنفسي بأن أنبئه بعاطفتك الخاصة التي تكونت لديك حياله بعد علمك بالتواصل فيما بيني وبينه، فوجد في ذلك طرافة أيّ طرافة .
١٥ / ١ / ٢٠٠٥

صديقي
لماذا فرغت الصفحات تحديداً
في النسخة التي بعثت بها إليك ؟
هل من أجل أن نخطّ عليها معاً
ما لم نخطّه بعد ؟
هل من أجل أن نعود طفلين
يعدوان في بياضها المضيء ؟
هل من أجل أن نتمشى على شرفاتها
وردتين ناصعتين ؟
من يدري ؟!
١٦ / ١ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
إنها العرّافة ..
أرادت أن تقول لكلينا بأن ثمة فراغاً ما .. بيننا ،
وها أنت بتساؤلاتك تحاولين ملأه ما أمكن من ينبوع مشاعرك الثري ..
١٩ / ١ / ٢٠٠٥

صديقي ..
وأنت تقرأ علي هذا اليوم رسالتك، لامست في صوتك حزناً.. أيّ حزن ! فأحزنتني، علماً أنني لم أكن أشاء هذا لكلينا، ونحن نتهيأ لولوج العيد.. العيد الذي جعله الله يوماً مضيئاً بعد عناء العبادات والطقوس، العيد الذي جعله رمزاً دائماً للفرح بعد كل ألم .
من يدري يا صادق؟! فربما هناك عيد ينتظرنا، قد أجّله الله لنا إلى حين سوى الحين الذي اخترناه .
كل عام وأنت بخير .
١٩ / ١ / ٢٠٠٥

ريمتي ..
أنت عيدي الدائم .. فكيف أكون حزيناً !
لا تأبهي لصوتي المشاغب .
أضحى مبارك.. وكل عام وأنت بألف خير .
١٩ / ١ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
أغاني (جمانة طه) لولدها الذي رحل باكراً جداً عن الدنيا، لن تكون مؤثرة، على السواء في نفس خبرت الأمومة أو الأبوة، ونفس لم تَخبَرها. ولابد من أنك واثقة من انهمار دمعي طيلة سماع قلبي لتلك الأغاني. واللافت أنه رغم دورانها في فلك واحد، إلا أن كل أغنية منها لا تشبه الأخرى .
وما لفتني أيضاً، وصف المجموعة بـ (صور وجدانية)، ومقدمة صاحبتها تقول " لست شاعرةً أنا، ولِقِصَر حظي لن أكون ". وهي بحسب العرف السائد شاعرة بلا ريب، إلا أنها كما يبدو، لا تحبذ

تسمية (قصائد نثرية)، ولابد من أنها ترى، كما أرى، أن ما يفرّق الشعر عن النثر، من الناحية التقنية، هو الموسيقا المتمثلة في بحور الشعر أو إيقاع التفعيلة .
وأما إن كان الأمر تواضعاً منها، فأقول : إن الأدباء عموماً هم شعراء، وكم من نثر أرقى وأجمل من ألف شعر .
١٩ / ١ / ٢٠٠٥

وصوتكِ يُمطِرُ الحنان
تسألين عني
في كلِ آن
ويحي ..
كيف أبالي إذن
بما بي
من كدَر وأحزان
ويحي..
كيف أبالي
وبكِ أكرمني
إلهيَ الرحمن !

صادق
٢٠ / ١ / ٢٠٠٥

وقت اللي خلص الحكي
ودّعتني وهمستْ :
(باي)
ياي عهاك الباي
ولا بحّة ناي ..!!
لو تعرفو شو عملت فيّي
كركبتني .. شلّتني ..
خَلّت بإيدي السمّاعة معلّقه
وروحي بين ضلاعي البردانه
ملوّعه .. مطوّحه
مو لاقيي حدا يْدِلّا
عا مطرحا !!

صادق
٢٤ / ١ / ٢٠٠٥

أيتها الشاعرة ..
طلبت إليّ أن أتقبل باكورة أعمالك على ما فيها من شوائب !

هلّا دللتني على شائبة..! فقد تعبت وأنا أفتش عن واحدة !
وليس حتماً أن تأتي متأخرات الأعمال بما هو أجمل أو أنضج من البواكير. وأتساءل :
أيِّ مدىً بعدُ لم تحلّقي إليه ؟!
أيَّ حدود بعدُ، قاصيةٍ أو دانية، لم تجاوزيها بـ (زهراتك الثلاث)* روحاً ، وفكراً ، وإنسانية ؟!
٢٩ / ١ / ٢٠٠٥
* ثلاثة مؤلفات لريم .

في ليلة شتائيةٍ
باردةٍ .. حالكةْ
والناس يلوذون ببيوتهم
مسمّرين أمام شاشاتهم الصغيرةْ
أطلّ عليهم قمرٌ إنسِيّ
نوّر ليلهم بهالةٍ أخاذةٍ ساحرةْ
ثم راح بكلماته المنثالةِ
مِن فِيهِ الجميلْ
يدْفِئُ نفوسهم
يؤنسُ أرواحهم ..
تعلقتْ به العيون كما القلوب
أحَبّه الصغار كما الكبار، لكن
سرعان ما ودّعهم ..
قالوا :
ليتكَ بقيتَ معنا
ليتك تعودْ
كل ليلةٍ
يا قمر

صادق
ليلة ١١ / ٢ / ٢٠٠٥
بمناسبة حوار متلفز أجري مع ريم

صديقي
كثيرة هي الاتصالات التي أتتني منذ انتهاء الحوار المتلفز معي إلى الآن، لكن ما يبدو لي شخصياً هو أنه لم يأتني سوى اتصال وحيد لا غير. وعلى الرغم من غلاء تلك الاتصالات الكثيرة لديّ، وتشكيل كل منها لؤلؤة ثمينة أضيفها إلى سُبحة حياتي، فقد أتتني في علوها وصخبها أشبه بإيقاع (الجاز) مقابل ما أتاني في الاتصال الوحيد من تلك (السيمفونية الهادئة العذبة)*.. السيمفونية الريفية التي وجدتُها تغتسل بأنوار القمر، وتغرّد بهمسات الساهرين، و تتأرجح بعبير الورود الملونة التي تنتظر الآن، وهي في بذورها، (أعياد التفتح الآتي) .
الخميس ١٧ / ٢ / ٢٠٠٥
* القصيدة المذكورة قبل هذه الرسالة .

صديقي
تلك الأمسية الجميلة .. كم ذكّرتني، وأنا أسبَح في فضائها الساكن، بصوت (خوليو) الذي كم وكم حملني إلى ما بين النجوم. وما إن عقدتُ حينئذ هذا الشبه، حتى بثّت إحدى المحطات الإذاعية أغنيات لخوليو لِما لا يقل عن ساعة، فتابعت سباحتي في تلك الأمسية العذبة الجميلة وأنا مستلقية على سريري .
كنت أودّ أن أكتب إليك هذا مباشرة في اليوم التالي، لكن ظرفاً صحياً حال للأسف دون فعلي .
١ / ٣ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
شيء شبيه بالذي جرى معك، جرى معي ليلة البارحة! بُعيْد لحظات وجيزة من جلوسي أمام التلفاز وهو يعرض فيلماً عربياً، حدثتني نفسي بأنّ أغنيتي المفضلة هذه الأيام، ربما تكون لحظتها تُبَث على قناة (روتانا) . ما إن أبدلت القناة، إذا بالأغنية إياها تُعرض فعلاً لتحملني نحو أمسيتنا الجميلة تلك !
١ / ٣ / ٢٠٠٥

صديقي
في هذا اليوم، الساعة الواحدة والنصف ظهراً ، أعتقد أن الأستاذ عبد الرحمن الحلبي سيتطرق للحديث عني كما وعدني، وذلك من خلال برنامجه الإذاعي (كاتب وموقف) عبر إذاعة دمشق .
أرجو أن يكون قد وصلك كتاب (ذاكرة الجسد) . ولك التحيات والشكر .
١٢ / ٣ / ٢٠٠٥

ريمتي ..
استمعت أمس إلى أغنية درج الورد تواكبها على الشاشة لوحات رسم مائيّ لباقات وباقات من ورود وزهور شتّى، ومن كل باقة.. كان ينبثق وجهك لعينيّ في وردة منها هي الأحلى، أو زهرة فيها هي الأجمل !
هديتك لناظم التي لابد أنه سيفرح بها جداً، وصلتني ولم تصله بعد. عند قراءتي لحوالي عشرين صفحة من الرواية، بدا أني لن أنسجم مع أسلوب المونولوج إن لم يكن مواكباً لتطور منطقي في الأحداث. ومن يدري، لعلي أغير رأيي بما سيلي من صفحات ..
من سوء حظي، وحظ (ي . ج) اليوم، أن (كاتب وموقف) قد أرجأ إذاعة ندوته السابقة معك .
١٢ / ٣ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
واصلت اليوم قراءة بضع صفحات من (ذاكرة الجسد) وإذ بها بدأت تشدّني، وشعرت بأني سأكملها. دائماً أقول يجب ألا أتسرع في أحكامي.. وأتسرع ! تباً لي .
حين أتأخر بالكتابة أو التحدث إليك، أكون غائم المزاج، مكتئباً .. دونما سبب طارئ ! يبدو لي أنها تراكمات منغّصة تطفوا لبعض الوقت، ثم تعود لتغوص، لتطفوا من جديد.. وهكذا، على فترات تطول أو تقصر . ولعلها، على الأرجح، الرتابة التي تكتنف أيامي ..

حلّى الله أيامك ..
١٧ / ٣ / ٢٠٠٥

ماما دعد .. *
ليتني في هذا اليوم كنت معك.. لأقبّل يديك الطاهرتين، عرفانا وإجلالاً لبذلك وعطائك وتفانيك على مدى السنين .. فهل لريم أن تنوب عني..؟
٢١ آذار ٢٠٠٥
* والدة د. ريم

مُذ شاهدها
دون أن تراه
واستمعَ إليها تتحدث
دون أن تدري به
أحسّ أنها بعضٌ منه .
مذ قرأته
ثم تحدثت إليه
أحسّت أنه بعضٌ منها .
سرعان ما رأى كلٌ منهما
الآخَر توأمه .
راحا يتناديان .. يتناديان
يتناديان ..
وإذا ببرزخ بينهما
لا يبغيان !!

صادق
٣١ / ٣ / ٢٠٠٥

صديقي ،
جميلة جداً قصيدتك، بل أكثر من جداً، بل إنني لم أقرأ أجمل منها منذ فترة مديدة، ولاسيما حين مثّلْتَ المسافة التي تفصل بيننا في البرزخ الذي يفصل بين مياهين، إنها صورة جدّ مبتكرة، ولم تخطر ببال أديب كما أعتقد، وإن كان الحاجز المائي يختلف من حيث إنه سيبقى أبدياً على نقيض حاجزنا الذي ربما سيقلّصه الزمان يوماً بعد يوم إذا شاء الله ذلك .
جميلة جداً قصيدتك، وقد أثبتَّ من خلالها ما سبق أن أوردتُه في قصيدة لي، وذلك من أن الجراح كلما تعمّقت في نفوسنا تفتّقتْ عن عريشة ياسمين كي تفوح بشذاها عبر الدروب والسنين وبين البشر، هؤلاء الذين إن قرأونا يوماً، وتألموا لآلامنا، فلابد بالمقابل من أن يستمتعوا بسطورنا التي ربما سيجدون فيها أطيافاً مضيئة دافئة تواسيهم في ظلماتهم الشتائية .
فلنكتب دائماً صديقي، ولنُفرغ كل ما في نفوسنا حروفاً وحروفاً، لأن فيها وحدها التصعيد الأسمى لأحزاننا، والملاذ الأوسع لانعتاقنا من أغوار كآبتنا .

هل تسمح لي بإرسال بعض قصائدك إلى الأستاذ عبد الرحمن الحلبي في برنامجه الإذاعي كاتب وموقف؟ إن وافقتَ سأكون سعيدة، وإن لم توافق فسأشاغب وأفعل، لأنك حقاً يا صادق أديب وأديب، يستحق اسمك أن يضاف إلى(الثلة الأدبية السِباعية) .
٢ / ٤ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
ما أتحفتِني به في نثريّتك الانطباعية عن قصيدتي.. لهو حقيقة، الأروع والأجمل ! إن كانت مشيئته تعالى ألّا يقلّص البرزخ الدنيوي بيننا، فأنا لست في ريب من أنه سيجمعنا في برزخه العلوي ريثما نتكئ جنباً إلى جنب على ما هيّأه لنا من أرائك ..
كيف لا أوافق على أمر يسعدك..! لكن خشيتي.. أن تكون منزلتي في نفسك هي ما يصوّرني لك أديباً.. لولاك ولولا كلماتك.. لما كان ثمة ما يحفِزني على خط ولو كلمة .
٢ / ٤ / ٢٠٠٥

صديقي
بعد أن قرأت رسالتك الأخيرة، خلدت إلى تأمل عميق أضاء غرفتي بالفرح والتفاؤل بأطياف الجنان التي تنتظرنا . حقاً.. إن كل ما هو خارج الدنيا، وكل ما يعلو على ضجيجها وغبارها أجمل وأسمى .
إليك بعضاً من تساؤلاتي :

- أين هما أبواك أيتها الشمس ؟
- من يلقّنني ثانية لغة طفولتي ؟
- من أي جنينة نبتت جذور شجرة الكون ؟
- من يفتح نافذة أطِل منها على أسرار غدي ؟
- ما عاصمة القمر ؟
- ما حدود الشذا ؟
- ما صلة القربى بين طفل يحبو وحَمَلٍ أبيض ؟
- من يعيرني للحظات قيثارة الفجر ؟
- إلى أي نجم يبحر زورقي في رقادي ؟
- كم وتراً يغنّي في كمان الحقول ؟
- لماذا لا أبقى نورساً أزرق كما في بحار أشعاري ؟
- ماذا يقول البحر في صلواته ؟
- بماذا تحدث نفسها غرستي الصامتة ؟
- هل من حوار يدور بين فلتين ؟
- ماذا يقول الجبل حين نصعده ؟
- أي خيوط مضيئة ما بين الغزالة البيضاء والسماء ؟
- ما لون روحي.. أما من ثلج وياسمين ؟
- ألا تدرك الجوهرة بريقها ؟
- متى يصل زورقي إلى ذهب الشفق ؟

- هل تدرك بماذا أحس وأنا أرى يمامة بيضاء على نافذتي تتشمس ؟
- هل هناك ضيف أجمل من عصفور يحط على نافذتي ؟
- كيف لنا أن نصمت ونحن عصفوران ؟

ريم
٤ / ٤ / ٢٠٠٥

غزالتي البيضاء ..
أمام تساؤلاتك .. أتساءل :
- هل من خيوط مضيئة ما بين السماء وكلّ غزالة بيضاء ؟
- هل يُهدي الله ملائكته لبعض عباده ؟

ساعة هجعتي
تنسابُ عصارةُ كلماتكِ في ذاكرتي
جدولاً صافياً .. فِضّيّا
على رقرقته أكاد أغفو
حالماً .. هنيّا ..
وإذ به فيّ
تيّارٌ يسري
داهِماً .. هائماً .. عَتيّاً
يروم مصبّه البحريّ
يفنيه .. أو
يفنيني
مسْهَداً أسِيّا

٥ / ٤ / ٢٠٠٥

صديقي
صباح الخير .. أرسلت هذا اليوم بعضاً من نصوصك إلى الأستاذ عبد الرحمن الحلبي، أرجو أن تصله في الوقت المناسب كي يتمكن من التعقيب عليها في حلقة السبت القادم الخاصة ببريد المستمعين، وإلا فسيتم الاضطرار إلى الانتظار قرابة الشهر بغية انتهائه من بث حلقات الندوة الجديدة التي أقامها. وقد قدمت لنصوصك بسطور مقتضبة ملائمة باسمك أنت .
حين تريد إرسال فاكس إليّ، أرجو أن يكون ذلك قبل الثانية أو بعد الثالثة لكي أضمن وجودي في غرفتي، وأتمكن من الاستقبال الذي يتعثر أحياناً .
١٠ / ٤ / ٢٠٠٥

صديقي
شغلني غيابك، أرجو أن يكون فيه كل الخير لك .
١٣ / ٤ / ٢٠٠٥

*** حوار ***

- كلما تأخرتُ عن الهتف إليها، تملكها التوجس من أن أكون قد عدلت، لسبب من الأسباب، عن التواصل معها .. ولا تبادر بالهتف إليّ لتقطع الشك باليقين !
- كبرياء الأنثى ..
- بل رهافة ما بعدها رهافة ..
- كيف ؟
- تشعرني بأن لي حقاً مطلقاً في أن أعدل عن التواصل معها متى أشاء، فلا تسبب لي حرجاً بسؤالها عن سبب تأخري عليها .
- محض تهيؤات ..
- ربما.. بل لا.. هي حقيقة تزيدني تعلقاً وهياماً.. بتلك الغزالة البيضاء .

قالت : يدَكَ هاتِها
قال : خذيها
وران صمت ..
قال : يدَكِ هاتيها
قالت : خذها .
أنامت يدَه في يدها
أنام يدَها على قلبه
هدأ وجيب القلب المعنّى
وراح في حلم ولا أحلى ..
انتهت المكالمة .
تُراها شاركته حلمه
لحظتها
أم فاءت إلى دنياها ؟

صادق
١٦ / ٤ / ٢٠٠٥

صديقتي ..
تُرى .. كيف يحتفل الملائكة اليوم بعيد مولدك ؟
١٩ / ٤ / ٢٠٠٥

صادقي
أبعث إليك بهذه النصوص القصيرة التي بدأتُ بكتابتها واضعة لها عنوان (مئة ورقة وأكثر).
ويمكنك متابعة المزيد والمزيد منها بصورة متتابعة بعد حين قصير من الزمن من خلال صفحتي الخاصة على موقع الإنترنت الذي عنوانه بالحروف الإنكليزية طبعاً (سيريا ميرور دوت نيت)، وذلك ريثما أنشئ موقعاً خاصاً بي. وأليك بعضاً منها :

قالت :
لن أتزين بعد رحيلك
قال :
ألا تتزينين لطيفي ؟!
*
أعطني يدك
أريد أن أمتلك من خلالها العالم
*
من يزرع أكاليل الشوك
حول كل وردة حمراء
تتفتح في جُنَيْنتنا ؟!
*
مذ باعدَتْ ما بيننا الأيدي العاتية
وأنا يتيمة .. يتيمة
فهل أنت ؟!
فهل أنت أبي ؟!
*
في الصباح
انتزعوك من أيامي
في المساء
مدّوا أيديهم إلى أحلامي
*
ابتعدي عنه
فابتعدتُ عنهم
*
كيف لا يطردون اسمك من بين جدراني
وهم يطردون من شرفاتهم
الورود والعصافير ؟!
*
أمَا في ذات شروق
ستحُطّ على نافذتي ؟
*
وأنا أبكي وحيدة
ألا يبكي معي الله
الذي وحده يرمقني ؟
*
قبل أن يفترقا

ملأا سلالهما بالكلمات الدافئة
لتكون لهما زوّادة
في شتاء ينتظر على الباب
*
ألن ترتجف مثلي
كلما التقيت ياسمينة تذوي ؟

الأحد ٢٤ / ٤ / ٢٠٠٥

مهما كان .. مهما يكن .. لن أكون
إلا شمساً تفلُّ ضفائر شعاعاتها
عند نافذتكِ كل صباح
تنثال لطيفة رفيقة رقيقة
على جسدكِ الطاهر الناعم الطري
كل صباح .. كل صباح ..
مهما كان .. مهما يكن .. لن أكون
إلا نسيماً رخيّاً نديّاً ..
ينسُم فضاءَ غرفتكِ كل مساء
ليداعب خُصلات شعرك الشذي
على همسات لحن شجي ..
كل مساء .. كل مساء ..

لكِ من ابني ناظم كل الشكر والمحبة.. ولكلينا منه تعاطفه اللامحدود .
أمّا أمِّي.. فقد ضمّت كتاب (أحلام) إلى صدرها لأن يديك كانتا قد لمستاه .
صادقك
٢٧ / ٤ / ٢٠٠٥

كيف أنسى
وأنا أتعثّر في كل لحظة
بواحد من تفاصيل
عالمنا الأبيض ؟!
*
ما أوسع الدروب
ما بين همسنا وضجيجهم !
*
ماذا قالت العصافير
وهي تغرّد في لحظاتنا الأخيرة ؟!
*

ليتكَ خدشتني مرة واحدة
كي أستعيد لروحي، وأنت بعيد
قطرة من سكينة
*
ألا ترى ونحن متباعدان
أننا سجينان في كنف الشمس ؟!
*
ونحن الآخرَين
متى ستصحو عصافير سمائنا ؟!
*
أدرك أنك صاحٍ
تدرك أني صاحيةٌ
فلماذا لا نتبادل همساً
تحية السحَر ؟!
*
القمر أبعدُ عن بيتي من محيّاك
فلماذا يطل على شرفتي
دونك ؟!
*
سنبقى لأنه ما من أحد يستطيع
أن يمنع زنبقة من التفتح
*
كيف لي أن أتصور العالم
من دون صوتك ؟!
*
لماذا يحلو غنائي
وأنا جريحة ؟!
هل أنتمي إلى عصافير الشوك ؟!
*
إلى الآن
لم تنفد زجاجة العطر التي أهديتني
هل هي نهر سخي عليّ
مثل روحك ؟!
*
هل هذه حقاً
نهاية حكايتنا ؟!
أم هناك نهاية أخرى ؟!

*

ريم
٢٧ / ٤ / ٢٠٠٥

. أضغاث حلم .

- رحيقكِ قد صارَ غذاءَ جسدي
ونسغَ روحي
- ارتشفْ منه ما شئتْ
- سأرتشفه حتى الثمالة
- رحيقي لا ينضب
- دعيني أسكر
ثم أصحو .. ثم أسكر
ثم أصحو .. ثم أسكر
رغم عيونِ العَسَسِ والعسكر

صادق
الجمعة ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٥
الرابعة والربع بعد الظهر

خلف التلالِ
في مدينة البحرِ
زنبقة ..
تأبى الذبول
متفتحةً عبقة ..
تغالبُ متفانية
رياحاً وأعاصيرَ عاتية ..
عبر المدى تبثّني
نفحاتٍ من شذاها
صباحيَ ومسائيَ ..
تخبِّئ رحيقها
تنتظر قدوميَ
لِتسقيَنيهِ معتّقاً
وتملأَني عافية ..
من قال إنّ وحدتي قاتلة !
خلف التلال
في مدينة البحرِ
زنبقة ..

تأبى الذبولَ
لَمّا تزل
تنتظرني راسية

صادق
٣ / ٥ / ٢٠٠٥

كلما سامرتُ طيفكِ
عاتبني القمر ..
كلما ناديتُ اسمك
تأوّد الورد
وماسَ الشجر ..
كم من نجمٍ ينبثق
إذا ما ضمّتك ذراعاي
وقتَ السحَر ؟!

صادق
٥ / ٥ / ٢٠٠٥

قمري ..
كنت أتابع ساهراً وإياكِ ليلة البارحة، فيلم الأسبوع (الجنّة)، على القناة الأولى، لمعدّه ومقدمه اللبيب الشاعر بنقده السينمائي – الأستاذ محمد الأحمد .
حبيبان تطاردهما عدالة جائرة.. تضيق بهما السبل على الأرض.. فما كان لهما ملاذاً آمناً، في آخر المطاف سوى الجنّة !
أجل، كنتِ إلى جانبي في غرفتي التي أضاءتها، تلك الليلة، شاشتي الصغيرة .. أصف لك مشاهد الطبيعة الآسرة في الفيلم وأقرأ لك ترجمة الحوار.. وأنت تصغين وادعة آمنة ..
كان فيلماً شاعرياً شكلاً ومضموناً، استمتعت به بصحبتك .
فإلى أن تضمّنا الجنّة كما ضمّت الحبيبين البطلين :
اذكريني ..كلما ذوت زهرة ..كلما سقطت ورقة ..كلما سكتَ بلبل ..
اذكريني ..كل غروب .
١٥ / ٥ / ٢٠٠٥

[ورَقات]

ما أبعد المسافات بيننا
ما أكثر الحواجز التي توقفنا
إنما روحكَ جارتي
وكل صباح

تشرب في بيتي قهوتها
*
ألا ترى أن حياتنا نَحلة
تارة تسكب الرحيق لنا
وتارة تلسعنا
*
أما من سحابة تعرفنا
تدعونا إلى فنجان قهوة
على شرفتها
*
اذكرني كلما تفتحتْ وردة
*
أنتَ لست لي الحبيب فحسب ..
إنما كذلك أبي الصغير
أهفو إليه، ويحنو عليّ
وحين تتخلى طفلة عن أبيها
أستطيع أن أتخلى عنك
*
ما أضيق دروبنا على الأرض
تعال إلى القمر
*
هل هذه الزنبقة شذيّة
لأن أصابعك مرّت عليها ؟!
*

ريم
١٨ / ٥ / ٢٠٠٥

ورَقات ظليلة
ألوذ بها ساعات الحَرّ العصيبة
لحفيفها هدهدة تفعمني سكينة
لرعشاتها نسيمٌ نديٌّ ذو عذوبة
إنها ورَقات واحتي
تلك الفريدة

صادق
٢٠ / ٥ / ٢٠٠٥

من أين يختلس القمر
أنواره ..
أمن همساتنا المسائية ؟

ريم
٢١ / ٥ / ٢٠٠٥

صادقي
وأنا في الثامنة من عمري، ذهب والداي في رحلة سياحية إلى تدمر، وعقب عودتهما إليّ، أخبراني بأنهما صادفا هناك سائحة غربية كفيفة بصحبة زوجها الحنون الذي أخذ يطوف بها على المعالم الأثرية، ويمرر يدها برفق عليها كي تتحسسها وتدرك أبعادها. ومنذ ذلك الحين، وبرغم كوني لا أزال في مرحلة الطفولة، وأنا أحلم بشريك كذاك.. أعيش وإياه مثل تلك اللحظات الشعرية التي هي فوق الزمان والمكان والأرض بأكملها .
وهكذا إلى أن التقيتك يا صادق، وتحديداً، إلى أن قرأت بالأمس رسالتك التي حدثتني من خلالها عن حضورك أحد الأفلام العاطفية، ولوّنت لي من خلالها تصورك بأننا نشهد الفيلم بجانب بعضنا بعضاً، وبأنك تنقل إليّ ما يعرض من مناظر رائعة، وتقرأ عليّ ما يجري من حوارات بين الحبيبين .
صادق.. هل لي بأن أمرر يدي برفق على عينيك كي أنقل إليهما ما أشعر به تجاههما، وما بين هلالين مضيئين : (التقديس) .

ذهبت بالأمس إلى البحر
ورويت له حكايتنا
ولكثرة ما أصغى إليّ
ولكثرة ما حنا عليّ
خشيت أن يغمرني بزرقته

٢٢ / ٥ / ٢٠٠٥

يا مَن ما حوى قاموسٌ وصفاً يفيها ..
إملاؤك عليّ اللحظة ما سطّرتِه لي منذ يومين، من وحي عاطفة نورانية.. كيف أعبّر عن سعادتي به..؟! كيف أصفك..؟!
بات قلمي مُطرِقاً خجلان..!
حتى اللحظة كنت أحسب أن مكنون عاطفتي إزاءك نيّفٌ على ما تكنّين لي من عاطفة ! لا أدري لمَ الآن، أيقنت أن كلتيهما متماثلتان ..!
أرجو الله ضارعاً أن أكون من اصطفى ليكون لك ذاك الشريك حلم طفولتك وصباك ..
فإن كنت حقاً أنا، فأيَّ كرم أرتجي بعدُ من ربّي !!
صادق
٢٤ / ٥ / ٢٠٠٥

حين فتحتُ ستارتي
وانسكب على غرفتي ضوء الأصيل
متورّداً مغرّداً
أدركت أن وراء عتمتنا
نهراً من نجوم
*
إذا لم يأخذنا الزمان بعد
إلى بيتنا الوردي
فلماذا لا نشكره
لأنه لملمنا
من دربين متباعدين !

ريم
٢٥ / ٥ / ٢٠٠٥

يا أمّ الزهرات
كيف تسمينهن ورقات
تلك الشقيقات الزاهيات ..!
واحدة فرحى
ثانية حزنى
ثالثة ساهمة
رابعة واجمة
وهذي.. وهاتيك.. وتلك
زهرات .. زهرات
يتلفّتن متسائلات
معاتبات .. راضيات
هنّ بناتُ أمّهنّ ..
زهرةُ الزهرات
من قال إنهنّ ورَقات ..!

صادق
٢٥ / ٥ / ٢٠٠٥

لولا سلاسلنا
كيف لغرستنا الوردية
أن تعرّش على باب أحلامنا
نحو آفاق الأبديّة ؟!

ريم
٢٦/ ٥ / ٢٠٠٥

وإذ نادمتُ شاطئي
أبثّه الأحزان
أبحرَ نحو ميناء الأصيل
لوّن لي شرفة ذهبية
وطَيفين يغنِّيان ..
*
أهديت للبحر سلامين
منّي ومنكَ
فدسّ في حقيبتي لؤلؤتين
لي ولك
*
في وحدتي المسائية
يا لزحام أصدائك !
*
ونحن اليوم بعيدان
يا لهْفَنا إلى التلاقي
وحين سنلتقي في غدٍ
يا خوفنا من الفراق الأبدي
*
مذ كنت أحبو
وأنا أبحث عن مفتاحنا الخفي
هو صغير صغير
وما وراء بابنا
أيّ روض ذهبي !

ريم
٢٠٠٥ / ٦ / ١

رنّتانْ
هنّ لي من جوّالها
كل صباحٍ
همستانْ ..
كل مساءٍ
لمستانْ ..
يهفو الفؤادُ لهنّ
يدقُّ .. يدق
ذائباً راعشاً
لَهِفا

صادق
٢٠٠٥ / ٦ / ١

رسمت لعينيكَ فراشةً بيضاء
كي تستعيدا طيفي
حين كنتُ في السماوات
*
منذ ثمانية وعشرين عاماً
أين كنتَ غائباً ..
في أيّ شمس تختبئ ؟

ريم
٢٠٠٥ / ٦ / ٤

أعطني يديك
فمنذ زمن بعيد بعيد
وأنا أبحث عن مهد
طفولتي
*
هل من عصفور
يهفو إليّ
كي أخطّ اسمينا
على جناحيه ؟

ريم
٢٠٠٥ / ٦ / ٩

بُعَيد كلِّ وداعْ
أتشتت
ألوبُ
أهيمْ
في دنىً لازورديّةٍ
من سديمْ ..
ثم أحطّ آيباً
على الواقع المرّ الأليمْ ..
لكنّ يوماً لابدّ قريب
بُعَيد كل وداعْ
لن أتشتت
لن ألوب

لن أهيم
سأعود لحضن
العُشِّ الحميم

صادق
٢٠٠٥ / ٦ / ٩

أرسلتُ اليوم إلى غرفتكَ
شجيرة مثمرة من بساتين الشروق
ألمحتها ؟

ريم
٢٠٠٥ / ٦ / ١١

من بساتين الشروق
غرستُ في غرفتي شجيرة
ثمارها لا تني تغريني
وتناجيني منها ثمرة ..!
واقلباه .. تجلّد
إنْ هي إلا آهة يسيرة

صادق
٢٠٠٥ / ٦ / ١١

صادقي
بينما كنت أستعد البارحة لكي أسجل بصوتي الورقة الأخيرة التي أمليتها عليك، دنا عصفور من نافذتي وبدأ يطلق ألحانه متقطعة ما بين واحد وآخر من سطوري ! وما كدت أنتهي من عملي، حتى أقفل قيثارته، وودّعني إلى ملاعبه الفضائية ..
إلامَ قصد عصفورنا ؟! أليس إلى أن يعْلِمنا بأنه سيكون صديقاً حميماً لبساتين شروقنا .. وللشجيرة المثمرة التي أهديتك إياها ؟
٢٠٠٥ / ٦ / ١٢

بذورنا التي خبّأنا
في تربة الزمان
إن هي تفتحت يوماً
ورود طالما انتظرناها
ستضحي ورود شذيّة
نُسرُّ بمرآها
تبهجنا مع كلِّ شروق
بولادةِ برعمٍ واعد

بطيبِ مَحْيانا

صادق
٢٠٠٥ / ٦ / ٣٠

ذاك العطر يعبق به
غلاف قصائدكِ
كم أحببته !
إنّما وأنا بين القصائد
في ذاك المدى
بين "شرفتِكِ والبحر" *
لفحني أريـج أطيبُ وأعبق
مليونَ مَرة !

صادق
٢٠٠٥ / ٧ / ١٩
* مجموعة شعرية لريم .

أعطني يديك
فمنذ زمن بعيدٍ بعيد
وأنا أبحث عن مهد طفولتي
*
ماذا إذا غرس كلّ منّا
شتلةَ ياسمين
ألن تنطفئ حينئذ
نيران الأرض ؟

ريم
٢٠٠٥ / ٧ / ٢٠

ما كنتُ أوثر بالأمس
أن أمتلك عربة
أما اليوم وقد التقيتك
وعرفت مدى حبكَ للعربات
فإنني غدوت مثلك
أحلم بواحدة منها
إذ لا أتصورها
إلا بجناحين أبيضين
يعبران ويعبران
حدود الأرض والجنان

ريم
٢٣ / ٧ / ٢٠٠٥

ذات أصيل
على شرفة الضجر
حسدتُ شقيقتي وصديقتها الطفلتين
وهما تلهوان بحَجَرة
إليها ومنها تعلوان وتهبطان
إذ ما هذه الطفولة التي
تسعد الصغار بحَجَرة !
وحين تلاقينا أنا وأنت
على شرفة القمر
وعثرنا هناك على طفولتنا
عدنا ونحن معاً
نحلّق سعيدين سعيدين
ولو بعشبة !

ريم
٢٨ / ٧ / ٢٠٠٥

ما إن ودّعني صوتكِ
بعد أن صبّحتِ عليّ
تساءلت :
متى سأحضن يديك بين يديّ ؟
متى سأضمّ رأسك إلى صدري ؟
متى سأُسمِعك وجيب قلبي ؟

صادق
٢٨ / ٧ / ٢٠٠٥

أتدري ما كتبتُ إليكَ اليوم
على لوحة الشروق ؟
ألا تدري ؟
أَفقْ غداً منذ الفجر
وانتظر على شرفتك

ريم
٣٠ / ٧ / ٢٠٠٥

أفقتُ اليوم عند الفجر
ومن شرفتي على مدّ البصر
قرأت على لوحة الشروق
ما كتبتِه لي ليلكتي
فكيف لسحر الغروب بعدُ
أن يأسرني !

صادق
٢٠٠٥ / ٧ / ٣١

قصّت عليّ حلقة من برنامج إذاعي، بعضاً من أحداث عام سبعة وخمسين وتسعمئة وألف، فعرجتُ من هذا الزمان الذي أعيشه إلى ذلك الزمان الذي لم أكن فيه قد استيقظتُ بعد .. إذا بي ألتقي هناك طفلاً كان حينئذ في الخامسة من عمره، فرحت أناغيه تارة، لكثرة ما بدا لي جميلاً، وأزجره تارة، لكثرة ما أخذ يعبث بأوراقي .

ريم
٢٠٠٥ / ٨ / ٥

كما خِلتِني يوماً طفلاً في الخامسة تزجرينه إذ يعبث بأوراقك .. هل خلتِني رجلاً لا يسعه إلا أن يلملم تلك الأوراق، ورقة ورقة، تائهاً بها، مشرّبةً برحيق أنوثتك ؟

صادق
٢٠٠٥ / ٨ / ٦

أما سافر إليك عطري
الذي استحممتُ به صباح اليوم
لأجلك ؟

ريم
٢٠٠٥ / ٨ / ١١

بذاك الشذا أستنشيه من روحك
أخال أن عبير ورود الدنى
لابد يتبدد مضمحلاً
إمّا ناسم ذاك الذي يتضوّع منك
طِيباً وعطرا

صادق
٢٠٠٥ / ٨ / ١١

همَس البحر إليّ :
سلّمي عليكِ وعليه

على حواركما الأزرق
الذي يصدح بالدرر
الذي ودّع يوماً شاطئه
ولا يلمح الآن
من مرسى

ريم
٢٣ / ٨ / ٢٠٠٥

ريمتي ..
لن نكون أبداً في خسر
أتدرين لماذا ؟
لأنا دائماً
نتواصى بالصبر

صادق
٢٨ / ٨ / ٢٠٠٥

أتدري من أنتَ لي ؟
إنك الصوت الذي
تسلل إلى عتمتي
بلبلاً غرِداً
يبشّرني
بسفينة السَّحر

ريم
٢٩ / ٨ / ٢٠٠٥

ما بين ليلتنا الأولى
وضحاها
سنرى النور
من جديد

صادق
٣٠ / ٨ / ٢٠٠٥

ألن تمرّ اليوم بمسائي
فنحتسي فنجانين
من ضوء القمر؟

ريم
٤ / ٩ / ٢٠٠٥

لحظة أضحت حياتي
كقطرة ندى
على حافة ورقة
إذا براحة يدك الرئيفة
تنبسط لها حائلة
دون تلاشيها في الثرى
مُعيدةً إياها إلى
جدول الحياة

صادق
٢٠٠٥ / ٩ / ٥

اليوم ذكرى ميلادك
ماذا ؟
ألا تهنِّئني بعيدي ؟!
*
في ذلك اليوم أخبِرْني
هل حلّ على الأرض ليل ؟
أم الشمس ظلت على نافذتك
تتفرّس في مهدك النقي ؟
*
في ذلك اليوم
لماذا غادرتَ حدائقنا السماوية ؟!
لماذا لم تأخذ بيدي
لنسلّم على الأرض سوياً ؟!

ريم
٢٠٠٥ / ٩ / ١٢

لا زمُرّدَ
لا يا قوتَ
لا مرجان
يساوي
ما ساوتْه فيّ
وريقاتٌ ثلاث
صِيغت لعيدِ مولدي
من الوجدان

صادق
٢٠٠٥ / ٩ / ١٣

كم نكون عابثَينِ
جاحدَينِ
بحقِ حلُم رعيناه زمناً ..
إن نحن تخلّينا عنه
غير آبهَين ..
ألن نكون حينها
قاتلَين ؟

صادق
٢ / ١٠ / ٢٠٠٥

كلما توفّانيَ الله ليلاً
تحوْرُ روحي فراشةً بهيّةْ
تعبُر الأمداءَ القصيّةْ
لتتوسّدَ ثمّة
شعركِ الشذيَّ
وتؤوبَ فجراً
إليَّ

صادق
١٠ / ١٠ / ٢٠٠٥

حين يأوي كل منّا
إلى مرقده المسائي
ماذا يبقى من غنائنا
سوى أصداءٍ بهيّة
تختلسها بلابل الفجر

ريم
١٥ / ١٠ / ٢٠٠٥

لأجل فراشتكَ البيضاء
أفتح نافذتي كل مساء
فليتك تفتح لي
أبواب روحك المضيئة
لأرسل سحابة مطيرة
تستحمّ بها جنائنك
*
كلّهم أتوا
ولم تأت أنت

إذاً ما من أحد
*
لماذا كلما نأيت عنك
أتتني سماء المنافي ؟!
*
هذا المساء
ستزور أحلامَ عينيك
نجمتيَ الزرقاء
وتصيرُ لهما سفينة
إلى ميناء شرفتي

ريم
٢٣ / ١٠ / ٢٠٠٥

وصوتكِ يُمطر الحنان
تسألين عني في كل آن
ويحي ..
كيف أبالي
بما بي
من كدَرٍ وأحزان !
ويحي ..
كيف أبالي ..!
وبكِ أكرمني
إلهيَ الرحمن

صادق
٢٠ / ١١ / ٢٠٠٥

مهما نظرتُ لا أرتوي
من عينيكِ الحالمتين
اللتين يوماً
كم هِمتُ بهما
نزقتين ..
مهما نهلتُ لا أشبع
من الريّانتين الكرزيتين
يا لهما من مسكِرتين ..!
لا مُلهمتي
ليس الذي تصورتِ قصدتْ
فذاك لمّا يزل

حلميَ الجميل .. بعيدَ المنال
مهما نهلتُ لا أشبع
من حلو الكلام الناعم الطَلِي
ينساب من شفتيك
ترانيمَ عبر الأثير آتية ..
هذا ما عنيت

صادق
١٢ / ١٢ / ٢٠٠٥

أنا لا أتوق إلى ضياء عينيّ
إلا لأطلّ على نجوم شرفتي
وعينيك

ريم
١٤ / ١٢ / ٢٠٠٥

سجّانتي الحانية
إن فككتِ أسري
في أيام ليتها ليست قادمة
يا لي من تائهٍ
حينها

صادق
١٤ / ١٢ / ٢٠٠٥

أرى إلى أصابع يديكِ
تنقر مفاتيح الآلة الكاتبة
كما لو كنت أرى إلى
طائرين أبيضين
يتلقّفان الحَب بمنقاريهما
في خفّةٍ .. متجاورين
فأوَدُّ لو أضمّهما معاً
بين يديّ
رئيفاً .. حانياً ..
ترى لو هَمَمْتُ
هل يستكينان ؟
لو أدنيتُ شفتيّ
للمسةٍ كالهمسِ
أما يفزعان ؟

أما يفرّان ؟

صادق
١٤ / ١٢ / ٢٠٠٥

بعدما قصّ عليّ حكايته
حكايته المريرة التي يعيشها
اعتذر إليّ لما سبّب لي
من تعطل عن إحدى قراءاتي
فأخبرته أن ما أخبرني به
ليس سوى قراءةٍ
لكتاب كان موصداً أمامي

ريم
١٧ / ١٢ / ٢٠٠٥

مثلما أدركنا جميعاً
كم هي جنة الله جميلة
دون أن نراها
كذلك دون أن أراك
أدركت جمالكَ أنت
يا جنّتي على الأرض

ريم
١٨ / ١٢ / ٢٠٠٥

عبر المسافات ما بين صوتينا
كم قمراً أنار الله لخُطانا
حتى تلاقينا !
*
ونحن غداً على دربنا الشذي
دربنا الثري
هل ستبقى يدانا يدين
لا بل جناحين
نحو عاصمة الفرح ؟
*
أضاء له سِفري
وُرَيقة من بضع كُلَيْمات
فالتفتَ إليّ دهِشاً وقال :
ما أثمنها !

ما أفسحها !
من أين أحضرتها !
كيف سآتيك بمثلها ؟!

ريم
٢٢ / ١٢ / ٢٠٠٥

ها قد مضى
أكثر من ألفي عام
على ميلاد المسيح
ولا تزال أعياده البهيّة
تشرق على الأرضِ
ما بين حين وحين
فإلامَ ستبقى
تشرق علينا
أعياد لقائنا الذي
كان لنا فيه
ميلاد جديد ؟

ريم
٢٣ / ١٢ / ٢٠٠٥

كيف أصف ما تَركتْه، من أثر عميق، مباركتكِ الهاتفية التي خَصصْتِ بها أمي في عيدها !
أيّ منزلة لك في نفسها ! أيّ تقدير بات لك بين جوانحها.. منضافاً لما تكنّه لك قبلاً منذ أن عرفَتْك من خلال كلماتك لي ولها ! حقاً يا ريم، أعجز عن وصف ثنائها لما تلمسه فيك من كياسة ورفعة ونبل.. ولما لك عندها من حب جمّ .. جم .
صادق
٦ / ١ / ٢٠٠٦

أتدري كم من الأقمار
تتلألأ ..
في مساء عينَي !

ريم
١٧ / ١ / ٢٠٠٦

في أمسيّةٍ مقمرة صيفية
حول بركة
على صفحة مائها الشفيفة تطفو
صنوف الزهر والورد

بألوانها الزاهية
راقصةً على مويجات نافورة لاغيةْ
كم بهرتنا ببديع زخارفها
تلك الدارُ العربيةُ الحلبيةُ الأصيلة
تضمّنا إليها كأنا
أشقّاءُ ما في صحنها
من فلّ وريحان
وقرنفل وأقحوان ..
لكنّا
سرعان ما تحوّلنا عنها
إلى التي انبثقت
من إحدى زواياها
وراحت تحدثنا
فنسينا المكان والزمان
مصغين إليها .. مأخوذين بها
في حلّتها الليلكيةْ ..
بنفسجةً كانت ولا أحلى
تلك الريمُ الهلاليةْ

صادق
٢٠٠٦ / ٢ / ١٧

- تعالي ..
تعالي نستحمّ سوياً
- .....
- يا لحيائك ملهمتي
لا.. كلا ..!
ليس الذي تصورتِ عنيتْ
أن نغسلَ روحينا
من آلام ما فات من سنين
ذاك ما إليه رميت

صادق
٢٠٠٦ / ٢ / ٢٣

مهما سما بيَ الزمان
وبثّ أنواريَ عبر الأرض
فأنا إليك أبداً
طفلة وديعة

بين ذراعيّ حبك

ريم
٢٠٠٦ / ٢ / ٢٤

كم ألفِ أحبكِ قلتَ لي
لكني سمعتها أكثر
حين أصررتَ
على أن تمنحني
إحدى عينيك !
سلمتْ عيناك
يا مليونَ حبّ

ريم
٢٠٠٦ / ٣ / ١

حينما يسحَرني بهاء الطبيعة
حينما تأسِرني عظمة الفضيلة
حينما تغتبط نفسي بالذي
يرقى إلى الكمال
إليك يسمو
ملهمتي
بيَ الخيال

صادق
٢٠٠٦ / ٣ / ٣

سكون ليل
ونَوْسُ أنغام
بقعة ضوء على منضدة
أوراقٌ مبعثرة
كتابٌ صفحاته مشرعة
فنجانا شاي فارغان
إلا من ثمالة
نور ينساح واهناً
من كوّةِ مدفأة
وفي الركنِ الدفيء
روحان انزوتا
في عبادة

صادق
٢٠٠٦ / ٣ / ٨

أدرك أننا على درب صحراء
وأن هناك واحة نسعى إليها
لكن لا أحد يدرك سوى الله
مدى قربها أو بعدها
*
أتكسّر
أتلهّب
أتألم
لكن سأنسى هذا كله يوماً
حين سأقول التقينا
*
سأخبر العالم يوماً
بما حدث
ليقاسموني جبال أحزاني

ريم
٢٠٠٦ / ٣ / ١٠

قبيل إنهاء مكالمتنا
وكل منّا يطلب يد الآخر
لتبيت لديه
لو تدرين وقد ران الصمت
ما يسري بي
من خدَرٍ حلوٍ
وما يجتاحني
بعدئذٍ
من تيّارٍ
عاصف

صادق
٢٠٠٦ / ٣ / ١٧

أتدري ما رنينكَ في غرفتي
هو سِربُ بلابل الفجر
تبعثني من عتمتي

ريم
٢٠٠٦ / ٣ / ٢٣

حلمْتُ
بأن أشرقت شمس عينيّ
فأتيتَني ورجالَ الأرض
تسألني بصمت
أياً تكون أنت من بينهم
إنها حين ذلك بوصَلَة روحي
عتّمَتْ دروبي إليهم
نوّرتْ دربي إليك
فهفوتُ عصفورة بيضاء
نحو عينيك

ريم
٢٣ / ٣ / ٢٠٠٦

كم يلزمنا من المفاتيح
لنعبر الطريق إلى فردوسنا

ريم
٢٣ / ٣ / ٢٠٠٦

لبابِ فردوسنا
مفتاحٌ واحدٌ أخضر
مفتاح العزيمة
لا أكثر

صادق
٢٣ / ٣ / ٢٠٠٦

ريمي ..
حين روى لنا جبران في (سفينة في ضباب) حديث الرجل الذي أحب رفيقته الأثيرية حباً فوق الحب منذ فجر شبابه، فكان يراها في أحلام يقظته ونومه، امرأة جميلة الوجه، عذبة الصوت، ليِّنة الملامس، تقف قرب مضجعه في ليالي الوحدة، يسمع صوتها في السكينة، ويشعر بملامس أصابعها على جبهته وهو مغمض العينين فيفتحهما مصغياً بكل ما به من المسامع إلى همس اللاشيء.. إلى أن افتقدها في أحد الأيام وقد غادر لبنان إلى إيطاليا في مهمة علمية أوكِلت إليه، فلم يعد يراها كلما حدّق في الفضاء، أو يسمع صوتها كلما أصغى إلى السكينة، أو يلمس يدها كلما مدّها إلى الأمام.. فيجد نفسه وحيداً أمام الليل والبحر والفضاء .. حتى قَدَّر له إله الحب والحياة والموت أن يراها وهو راكع بجانب نعشها في مدينة البندقية – يرى إلى وجه رفيقة أحلامه وراء نقاب الموت، جثة هامدة بيضاء، بأثواب بيضاء بين أزهار بيضاء، تُخيّم عليها سكينة الدهور

ورهبة الأزل.. فظل راكعاً أمام نعش الصبية التي أحبها في أحلامه، محدّقاً إلى وجهها حتى وضع الفجر يده على بلّور النوافذ .
كم حمدتُ الله، كم حمدته.. أنه قد جسّد لي فتاة أحلامي الأثيرية، حين شاء لي أن أراها بعد أعوام طويلةٍ، أقحوانةً فوّاحة، زاخرةً بالحياة ..
٤ / ٤ / ٢٠٠٦

على عتبة بيتها يوماً
طاب ليَ الجلوس ..
ويوماً
كم بدا لها بيتها
مسربلاً بشعاعات الشموس ..
ويوماً
وقد تدلّت في بيتنا ثريّاتٌ بعناقيد بيضاء
كان عناق ..
جَلتْ بدأب ومسرّة
أوانيَ وقُدور
كَرّةً تلو الكرّة
حتى أشفقتْ عليها القلوب
لكن لا ملل اعتراها
لا إعياء .. لا فتور !
باقةُ أحلامٍ كانت
واعدة بحياة لنا
مباركة
ملأى بالحبور *

صادق
١٧ / ٤ / ٢٠٠٦
* من وحي أحلام ثلاثة لريم .

جميعاً سنلج يوماً الصمت
لتستفيق بعد ذاك سطوري
وإلى البشر جميعاً
تتحدث

ريم
٢١ / ٥ / ٢٠٠٦

وإذ نرنو معاً إلى القمر
وإن كنا بعيدَين

ألا نكون التقينا ..

ريم
٢٢ / ٥ / ٢٠٠٦

وإذ ترنو إلى السماء
بصفحتها الفسيحة الزرقاء
هاأنا ألوّح لك
من إحدى مراياها

ريم
٢٢ / ٥ / ٢٠٠٦

ما أقرب المسافة مابين كلمتَي
آه .. والله !
هل يجعلنا الله نطلقها كل حين
لتفرّ آلامنا غزالة بيضاء
نحو ضيائه ؟

ريم
٢٣ / ٥ / ٢٠٠٦

كم من الصباحات الشذية تمّحي
كم من المساءات الرطيبة تنقضي
كم من الليالي المقمرة تنطفي
آه .. لو كنتِ معي
الله .. ما دمتِ معي
*
ما أحلانا
ونحن ما نحن !

صادق
٢٣ / ٥ / ٢٠٠٦

فيما كنت محلقاً في أجواء مسرحية (دورة الربيع) لرابندرانات طاغور، يسأل الملكُ شاعرَه عن الشخوص الرئيسة في المسرحية التي يعدّ لها، فيشرع الشاعر يعدّدهم فرداً فرداً .
" يسأل الملك : أهناك آخرون ؟
يجيب الشاعر : أجل.. المنشد الضرير .
الملك مستغرباً : الضرير !
الشاعر : نعم، لأنه لا يرى بعينيه، بل بكيانه كله، بفكره كله، بروحه كلها " .

وإذا بك ملهمتي.. تنبثقين أمامي بكلّيتك، شامخةً تجاوزين السحاب .
صادق
٢٨ / ٥ / ٢٠٠٦

إن أنس
لن أنسى يوماً
المنزلة الأسمى التي بوّأتِنيها ..
فكما أنا لك الحبيب الأثير
ترينني لك الأب الحاني
وأنت لأبيك
البكر المدللة .
وأنت تؤكدين لي تلك المنزلة
لؤلؤتان لامعتان
نقيتان نقاء قلبك
لا أنساهما
منسابتين جدولين صافيين
على أسِيل خدّك

صادق
٤ / ٧ / ٢٠٠٦

ما أبهاكِ على المنبر
رزاناً رصينة
تحاضرين أمام ناظريّ ..
فإذا بك كائنٌ قدسيّ
تعشقه الأذن والعين
وتركُنُ الروح
خاشعة إليه .
ويسرح بيَ الخيال
يتمثلك
بشراً سويّاً
متماهية فيَّ
تذوبينَ نشوى
بين يديّ

صادق
٨ / ٧ / ٢٠٠٦

اليوم ذكرى ميلادِكَ
وبعد أيام
ذكرى ميلاديَ الثاني
ذكرى التقائي صوتكَ ..
ثلاث من السنوات ونحن معاً
ليتني أفرط عناقيد لحظاتها
وأنثرها على زمانٍ طال فيه غيابك
فتخضرّ قفاره
بظلالك
*
ليت ذهب الأرض يكفيني
لأبتاع من زماني
سوناتا صوتك الأولى
يا أجمل بشارة
نثرها الصباح
على نوافذي
*
كنت أنوي أن أخطّ ألف ورقة
من وحي من لمْلَم حقائبه وغادرني
وما إن وصلت إلى الورقة الأربعين
حتى غرّدتْ أجراسك الذهبية
فأغلقت دوني إلى الأبد
بوابة ألميَ الألفي
*
أي أوليسي
مهما طال غيابك
فأنا هنا ماكثة على شواطئي
أحيك خيوط ثوبيَ الأبيض
في انتظار سفينتك

ريم
١٢ / ٩ / ٢٠٠٦

ما أصابوا إذ قالوا
إنكِ رمز الجمال
ما أصابوا إذ قالوا
إنك ينبوع الفضيلة
أنت الجمال

أنت الفضيلة
فأيَّ ثراء بعدُ أرتجي
وقد اصطفيتني
لك موئلاً
دون البشر

صادق
١٥ / ٩ / ٢٠٠٦

في كل حين
أناديكْ
عبر المسافات
أناديكْ
يا ضياءَ دربيَ الصباحي
وأنوارَ سكينتي المسائية

ريم
١٧ / ٩ / ٢٠٠٦

ناديني .. نادي
من على الشرفة البعيدة
نادي
ما بوسع طيرٍ أقصوه عن وليفهِ
سوى أن ينادي
نادي .. وأنادي
لعل الزمان
بين صبحٍ ومساء
يحنو علينا
مغرّدينِ
ننادي

صادق
١٨ / ٩ / ٢٠٠٦

صادقي العزيز
وأنا أقرأ في هذه الأيام الرسائل التي تم تبادلها مابين الأديبة ميّ زيادة وبعض من أعلام عصرها، كم شعرت بالأسف على هذه المرحلة الأخيرة التي تضاءلت فيها مراسلاتنا بعد ما كنا مثابرين عليها منذ يوم تعارفنا. صحيح أننا استعضنا عنها بالتواصل الهاتفي الذي قد يبدو لنا نحن الاثنين أكثر حيوية، لكن ما كان ينبغي بالمقابل أن نتغافل عن ضرورة استمرارنا في التكاتب بغية احتفاظ الزمان بكلماتنا بدلاً من أن تتبدد في الهواء وكأنها لم تكن !

حكايتنا جميلة يا صادق بالرغم مما فيها من آلام، لذلك لا يفترض بنا أن نبقيها ملكاً شخصياً لنا فحسب، إنما للقراء جميعاً، للناس جميعاً، يحيطون بأبعادها، يغوصون في تفاصيلها، يتداولونها أصداء ثرية على شرفات مساءاتهم .
٢٠٠٦ / ٩ / ٣٠

صادقي
حقاً إن القضية هي كما ذكرَتْ والدتك الحبيبة ماما إيدا، فنحن لو كنا في بلد واحد لتبدلت أوضاعنا كلها وتيسر علينا كل اليسر أن نكون في بيت واحد ..
لكن ماذا نفعل إذا أراد الله أن تكون أموري منسّقة هنا، وأمورك منسّقة هناك ؟
إنه القدر يا صادق – القدر الذي بيده كل شيء، له أن يبقينا متباعدين هكذا، مكتفيين بالتواصل الصوتي أو الورقي، أو له أن يجمعنا يوماً مُلغِياً ما بيننا من مسافات وجدران.. جزاءً على صبرنا .
٢٠٠٦ / ٩ / ٣٠

صادقي
اليوم تم القبول بنشر بحثي في مجلة الجامعة بعد طول عناء بذلتُه في أثناء إعداده، وهذا يشكل كما تعلم الخطوة الأوسع والأهم على طريق ترفيعي إلى رتبة أستاذ جامعي مساعد .
هنيئاً لنا.. لنا وليس لي بمفردي، لأنه ما من سعادة تخص أحدنا دون الآخر، بل إنها دائماً مشتركة تشملنا نحن الاثنين كما تشمل روحُنا الواحدة جسدينا .
٢٠٠٦ / ١٠ / ١

ريمي الحبيبة ..
لئن كان ترفيعك إلى مرتبة علمية أعلى هو حقاً مدعاة سعادة لنا نحن الاثنين، وقد سبقتني بالتهنئة لي ولك به، فإن ترفيعي إلى المنزلة الأسمى في نفسك وأنت ترين روحينا روحاً واحدة، لهو مدعاةُ سعادة أكبر .
وإذ تناديني بصادقي.. أعلم أنك لا ترمين إلى نسبي إليك فحسب، بل لتشيري أيضاً إلى يقين فيك من صدق فيّ، تثنين عليه مراراً .. فيا لسعادتي بك وقد تجلّى لك صدقي عبر سنوات ما تعدّت الثلاث! نعم يا لسعادتي.. لأن هناك مَن بقي صِدقي غائماً لها على مدى عشرين عاماً !
٢٠٠٦ / ١٠ / ٢

صادقي
عُرض علي أمس الأول الاشتراك في مهرجان البحر الذي سيقام على شاطئ طرطوس أواخر هذا الشهر. سعدت كثيراً بهذا العرض، لما تنتابني من غبطة عالية لدى تواصلي أدبياً مع الجمهور، ولما سيحدث من تجاور مابيني وبين البحر خلال أيام ثلاثة ستكون مدة إقامتي. كما لابد بالمقابل من غصّة تنتابني في مثل هذه المناسبات، تتحدد كما تعلم في تمنيّ أن نكون معاً.. أن تكون معي كلاً لا ظلاً، مع كل زرقة صافية .

أدرك أن الألم مصاحب دائماً لكل إنسان في هذه الحياة، لكن لماذا تموضع ألمي في نقطة بعينها لديّ، بأن نكون دائماً متباعدين؟ لمَ لم يختر سواها في حياتي؟! وهنا أعود لأجيب نفسي بأنه القدر – القدر الذي ترسمه الإرادة الإلهية في خفاء بعيداً عنا بُعد السماء عن الأرض .
٤ / ١٠ / ٢٠٠٦

صادقي
فاتني أن أخبرك بالأمس أنني استعنت بالمصفف (فاتشه) بدلاً من (كريستين) لانشغالها بأمر في بيتها. فاتني أن أثير في نفسك سعير غيرتك المعهودة، إذ إن الشاب المذكور اضطرته مهنته إلى أن يلامس كل خصلة من شعري ويمسّدها ويجمّلها بتأن شديد.. هكذا دون أن يستثني منها أيّ واحدة، نعم هكذا ! فإن كان فاقداً لحاسة السمع، فلم يتمكن من سماع صوتي الذي يحلو لك، فإنه لم يفقد حاسة اللمس .
٢ / ١٠ / ٢٠٠٦

صادقي
ليتني كنت أمس بجانبك كي أهدهدك حتى تنام، وأرد عنك أمواج أرق لا أدري من أين تسللتْ إليك! كيف تتوهم أنك قسوت عليّ لمجرد رأي أبديته تجاه أسلوبي الأدبي وأنت تمتلك الحق في ذلك أبداً تجاه كل ما تقرأ؟! كيف لي أن أسمي ما صدر عنك قسوة، وأنت منذ يومنا الأول تغمرني ببحار حنان قد حملَتني على أن أزفك منها دائماً جداول ونهيرات؟!
وفي النهاية، إذا افترضتُ أنك مابين حين وحين تهفو حيالي، فهذه ليست منك سوى سحائب رقيقة بيضاء تضيء زرقتنا الصافية، زرقتنا البهية.. التي لرحابتها تكاد لا تبصّرنا بنهايات لها !
٦ / ١٠ / ٢٠٠٦

ما أحلاه .. شغبكَ ..
حبّي ..!

ريم
٢١ / ١١ / ٢٠٠٦

كلّهم هذا المساء غائبون
إلا أنتَ حاضر في روحي
حبيبي

ريم
٢٢ / ١١ / ٢٠٠٦

آهِ لو كنتُ معهم حاضراً بجسدي يا حبّي
كما أنا معكِ بروحي
فأرى هالة علوية لابد كانت
ستؤطّر رأسك الحبيب

وأنت تنثرين في أرجاء الصالة الرحبة
شذا كلماتك

صادق
٢٢ / ١١ / ٢٠٠٦

للناس قِبلة واحدة
أما أنا لي قِبلتان
أولاهما مكيّة
وثانيهما
هلالية

صادق
٢٧ / ١١ / ٢٠٠٦

أحلم بأننا معاً
نتأمل في مئذنة
من نور

ريم
١ / ١٢ / ٢٠٠٦

أحلم بأننا نتناول العشاء
على زورق مضاء
في نهر السين

ريم
٨ / ١٢ / ٢٠٠٦

سألتُ هذا العيد عن عيدنا
فأجابني
هاهو قريب
بإذن الله

ريم
٢٩ / ١٢ / ٢٠٠٦

لطالما كان الفارق الزمني بين عمرينا
مدعاةَ تفاؤل لنا
نحن الحبيبين :
سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام
فهنيئاً لنا ميلاد السنة السابعة بعد الألفين
ومازلنا وليفين .

أيكون اليوم السابع من شهرها السابع
يوماً
يكللنا الله فيه
أسعد زوجين ؟

صادق
١ / ١ / ٢٠٠٧ الثانية عشرة وسبع دقائق ليلاً

وأنا أنصت الآن إلى الدانوب الأزرق
أخذت بزورق حلمي الأبيض
ورحنا نتهادى معاً
في ڤالسنا الذي
رسمنا بالأمس
أطيافه

ريم
٣ / ١ / ٢٠٠٧

أويت الآن إلى سكينتي
واستعدت شيئاً من الكتابات بيننا
ما أجمل دربي معك
في كل حين !

ريم
٦ / ١ / ٢٠٠٧

كم أهفو إلى أن أتأمل
في عينيكِ
حالمة
في لحظات سكينتك

صادق
٦ / ١ / ٢٠٠٧

حبّي الكبير
لم يتح لي جوّالكَ المغلق
أن أزفّك
تغريدة المساء

ريم
١٣ / ١ / ٢٠٠٧

تباً له من مشاغب
جوّالي !
لقد حرمني متعة تغريدتكِ المسائية
يا بلبلي

صادق
١٣ / ١ / ٢٠٠٧

من أيّ ينبوع مضيء
تدفّقتَ عليّ
ذاك الصباح !

ريم
١٨ / ١ / ٢٠٠٧

أيّ نجم خبّأكِ لي تلك السنين
ليهلّ نورِكِ عليّ
ذاك المساء !

صادق
١٨ / ١ / ٢٠٠٧

كيف تسللتَ إليّ
من الأعماق
لؤلؤتي !

ريم
٢٣ / ١ / ٢٠٠٧

كيف لا أتسلل من الأعماق
وأنتِ تتربّعين القمم
ماستي !

صادق
٢٣ / ١ / ٢٠٠٧

بكِ ..
ومن أجلك ..
يجب أن أحب الحياة

صادق
٢٤ / ١ / ٢٠٠٧

بل إن حياتي لا تبدأ
إلا من ذلك الصباح
الذي فيه أشرقت أنوارك
على روحي

ريم
٢٤ / ١ / ٢٠٠٧

بالعناية الإلهيةِ الرؤوم
وُلد حبنا يا ريم
وبها عظيماً
قُدسيّاً
على الأرضِ
سيدوم
ليخلُدَ من ثمّ
هالةً مضيئة
بين النجوم

صادق
١٤ / ٢ / ٢٠٠٧

كل أولئك يتّكئون على عكازهم الأبيض
إلا أنا .. فعليك
حبيَ الكبير
يا عكازيَ الذي أضاءه الله لي
من جواهر الكون

ريم
١٤ / ٢ / ٢٠٠٧

أحلُمُ بنا
تحت سماءٍ ترصّعها
نجومٌ ساهرة
متعانقَين نقفُ على صخرة
في ليلةِ صيفٍ مقمرة
تحت شلالِ ماءٍ عذب
من شلالاتِ ڤيكتوريا
تلك التي ذات ليلة
سحرتْكِ
ترانيمُ انسكابها

صادق
١٧ / ٢ / ٢٠٠٧

وحينئذٍ
أيُّ شلالٍ
من الفرح المضيء
سينهمر على روحَينا
فيغسلنا
من عثْمٍ فسيح
حاولَ عبَثاً
أن يُبعثرنا

ريم
١٧ / ٢ / ٢٠٠٧

أمَن يُصدِّق
أنه في القرن الحادي والعشرين
قد رأى النورَ
حبٌّ رجل وامرأةْ
يكبر سنة إثر سنةْ
مترفّعاً عن كل غاية دنيويّةْ ؟
لا.. ليس بوَهمٍ ولا خرافةْ
إنه حُبٌّ رجلٍ في الخمسين
لامرأة في الأربعين
حُبٌّ ليس باعثَه جسدانِ جامحان
ولا عقلانِ يَحسُبان
بل روحانِ متوائمتان
حُبٌّ جاوز الحُبّ
إلى عالمٍ أرحب
عالمِ المحبة الأشمل
حُبٌّ أين منهُ
روميو وجولييت ..
إنه حُبّ صادق لريم
وريم لصادق
فإن كان الأوّلان
قد عانيا ما عانيا
فإن الآخَرَيْن

مازالا يكابدان ..
لعلهما يوماً
يلتقيان

صادق
٢٠٠٧ / ٤ / ٦

لئن كان نزار
قد قالت له السمراء
فأنا قد قالت ليَ البيضاء ..
وهل يستوي ما في الأرض
وما في السماوات ؟!

صادق
٢٠٠٧ / ٤ / ٨

في مثل هذا اليوم
ومثل هذه اللحظات
ألا تتذكر
ماذا كان ؟

ريم
٢٠٠٧ / ٤ / ١١

كان أولَ يوم تنام فيه
يدكِ في يدي
وتُبحر فيه عيناي
في عينيكِ ..

صادق
٢٠٠٧ / ٤ / ١١

- ذاك يوم ميلادِكِ
- بل يوم إيقادِ فتيلي
أنا الشمعةُ الراكضةُ في الذّوب *
* من كتاب ريم (بين شرفتي والبحر)

———

شمعتي الراكضة في الذوب
في أيّ سمْتٍ سماويّ
تُراه سيخلُد

نجم ضيائها ؟

صادق
٢٠٠٧ / ٥ / ٣١

إذا كنت سأصير نجمة حقاً
فمن أجل أن أطوف
في مدارك الذهبي
شقيقَ نفسي

ريم
٢٠٠٧ / ٥ / ٣١

منذ حين وأنا أعاتب نفسي
إذ كيف ألتقيك في ذلك اليوم بثوب الحداد
بدلاً من ثوب الياسمين
والضياء !

ريم
٢٠٠٧ / ٦ / ٤

في ذاك اليوم
ما لفتني منك سوى
شذاك الذي أحب
وضياءٌ أخّاذ ينبعث
من مُحَيّا قمر

صادق
٢٠٠٧ / ٦ / ٤

منذ طفولتي
وأنا أتسلّق عريشة خضراء
يوماً بعد يوم
أتسلقها حتى وصلتُ في لحظة
إلى شروق نافذتك
فتسللتُ إليك
فراشة
أو
عصفورة

ريم
٢٠٠٧ / ٦ / ١٦

للتي بين حين وحين
عبر شقيقة الروح
ألقَى طيب محبتها ..
لرفيف
من جنينة نفسي
أقطف زنبقة

صادق
٢٤ / ٧ / ٢٠٠٧

في مثل هذا اليوم
ومنذ سنوات أربع
ليتني رصدتُ اللحظة المضيئة
التي تصافحت فيها
كلماتنا الأولى
كي أنتشلها من دورة الزمان
وأؤطِّرَها
بالذهب

ريم
٢٩ / ٩ / ٢٠٠٧

ليس أجملَ
إطاراً
من ملاكي
حافظاً
هاتيك اللحظة النورانية
مشعّةً فيه

صادق
٢٩ / ٩ / ٢٠٠٧

صادقي
على الرغم من أننا نفرغ كلماتنا كل يوم عبر الهاتف، فقد أصرّت (هند) على أن أكتب إليك أيّ شيء، فإليك مني كلمتين : واحدة من حب، وواحدة من عطر، وهند ترسل إليك تحياتها وتهنئتها بالعيد . لاأستطيع أن أكتب أكثر من هذا لأنها بجانبي تراقبني .
ريمتك
السبت ١٥ / ١٢ / ٢٠٠٧
ملاحظة من هند : لا تصدّق هذا الكلام فهو حجّة، لأنها لا تملك الكلام وقد خانتها مخيلتها.
مع فائق احترامي وتقديري .

بنَبراتٍ واثقة
ترَينني للصِّدق إماماً
وللثقة صَرْحاً آمناً ..
لسنينَ ولازلتِ
تزجين لي حبَّك خالصاً ..
واليومَ
تُشيدين بي عظيماً ..!
إن طاوعتُ الأقدار
تنأى بي عنكِ يوماً
أيّ جاحدٍ أكون
أيّ أفّاكٍ أكون

صادق
٢٤ / ١ / ٢٠٠٨

وأنا كذلك ضيائي
كم سأكون جاحدةً
إذا ما غادرتُك ورحلت
حتى إلى العالم الآخر !
**
منذ سنوات
وأنا أبحث عن ينابيع الذهب
التي سكبتْ على نوافذنا
صباحنا الأول

ريم
الجمعة ٢٥ / ١ / ٢٠٠٨

رفيفُ تَرُفُّ
تحيّيني ..
فيرِفُّ قلبي
يحيّيها ..
هي لي أختٌ
وأنا لها أخٌ
يا لَأخوّتِنا.. ما أحلاها !

صادق
٣٠ / ١ / ٢٠٠٨

شقيقتان
من شقائقِ النعمان
بصيرتان
الشمسَ تُضاحِكان
القمرَ تُباسِمان ..
ميّاستان
ببعضهما دفيئتان ..
شقيقتانِ
صفيّتانِ
بصيرتانْ
كناراِن أبيضان
لا يألُوانِ لَصيقينِ يَرِفّانِ
يُغرّدان
آلاءَ ربِّهما
يُرَتِّلان ..
رِيمان .. رَفيفان

صادق
٢٠٠٨ / ١ /٣١

حُلُمي
شهدتُ منذ أيام – كما أخبرتك – برنامجاً تلفزيونياً حول الفنان العالمي (ڤان كوخ)، فانهمرت دموعي كعادتي تأثراً على هذا الإنسان الكبير الذي لم يلقَ من عصره سوى الجحود والإهمال، إذ لم تُبَع سوى واحدة من لوحاته التي كم بدت لبصيرتي أنها رائعة، كلوحة (دوّار الشمس) ولوحة (شجرة اللوز) التي أخبرتني أمّي أن غصنيها العلويين يبدوان وكأنهما يدان ترتفعان تضرّعاً إلى الله . مما اضطره لقبول العون المادي من أخيه المخلص (ڤيو)، ما جعله يرزح تحت ضغط عصبي هائل أودى به إلى المصح العقلي، ومن ثم إلى الانتحار. وهكذا.. إلى أن كبر ابن أخيه الذي يحمل اسمه، وتولى بالعناية الفائقة لوحات عمّه، فأسهم في إنشاء متحف له يرتاده اليوم الزوار ليل نهار، ويبتاعون الواحد من أعماله بملايين الدولارات التي كم كان يحتاج إلى القدر اليسير منها بغية الإنفاق على نفسه في أثناء حياته .
تُرى .. وأنا أشهد ذلك البرنامج منذ أيام، هل حقاً كنت أبكي (ڤان كوخ) فقط ؟ أم كذلك حكايتنا ؟ على الرغم من جمالها وروعتها – جمالها وروعتها الفائقين اللذين كم يحملاني على الثقة بأنها ستتحول يوماً إلى تحفة فنية تتداولها ذاكرة العصور .
ريم
الخميس ٣١ / ١ / ٢٠٠٨

الشمس في بلدتي هذا اليوم
في ذروة الروعةِ
والدفءِ والجمال
مثل قلبينا ..
ليتنا كنّا معاً
نرفل في جنانها

ريم
٢٠٠٨ / ٢ / ٤

ذكر أحد المتصوّفة أن غناء النّاي الحزين ليس سوى تعبير عن حنينه العميق إلى أحضان الشجرة الأم التي اختلس منها ذات يوم .
أي حبّي .. ياللناي الحزين في نداء كل منا للآخر.. في حنين كل منا إلى الآخر.. إذ أما كنّا – قبل أن نتباعد عبر بلدين – غصنين متعانقين أبداً في خميلة الأزل ؟!

ريم
٢٠٠٨ / ٣ / ٣١

منفعلة قاطعتِني :
" لا تصفْ نفسك
إنك تُبخِسُها حقّها
دعني أنا أصفها "
علّقتِ عل صدري
وسامَ الاستحقاق من الدرجة الأولى
وألبستِني وشاحَ الإنسانيةِ الأسمى ..
أذهلني الحدّ الذي سبَرْتِ في عمقِ أعماقي
إذ لم يَصِلْه قبلك سوى أمّي !
طوبى لي بكِ حبيبةً
لعلّ الله يأذن يوماً
لتكوني
شريكةً لحياتي

صادق
٢٠٠٨ / ٤ / ٢٦

اضمحلّتِ ألوانُ حياتي
عادت حُلْكةُ أيّامي
تبدّدت أحلامُ سنين
امتثالاً لقدرٍ قاسٍ
لابدّ بِنا رحيم ..

لن نشربَ قهوةَ الصباحِ معاً
لن ننعمَ سميرَينِ معاً
بنسماتِ المساء ..
لن نكونَ معاً على مائدةِ العَشاء
لن ندفأ لصيقين أيام الشتاء
لن نسمعَ الموسيقى معاً
لن نقرأَ معاً
لن نصلّيَ معاً
امتثالاً لقدرٍ قاسٍ
لابدّ بِنا رحيم ..
بَيْدَ أنّا
سنبقى أبداً
وليفَينِ روحاً
أسمعُكِ وتسمعينَني
كل يوم .. لكنْ
من بعيد

صادق
٢٠٠٨ / ٨ / ١

أغنية من الأغنياتِ أنتِ !
قصيدةٌ
ترنيمةٌ
سمفونيةٌ .. أنتِ !
هدهدةٌ
ترتيلةٌ كنَسِيّةٌ
أذانُ فجرٍ .. أنتِ !
أنّى من دونك أستكين
كيف لروحي
إليكِ لا تصبو
في كلّ حين

صادق
٢٠٠٩ / ٥ / ٣١

اليومَ أشرقت على العالمِ شمسان
اليومَ تفتحتْ الأرض بملايين الزنابق
اليومَ سيضيء المساءَ قمران
ماذا هنا ؟
ماذا هناك ؟

إنه عيدكَ
إنه عيدي
فهيا إلى ثوبيَ الأبيض
إلى أُرجوحة طفولتنا الزرقاء

ريم
١٢ / ٩ / ٢٠٠٩

صباح الخير ساسو ،
من في هذا العالم سواك وسوى رفيف أشكو إليهما خلاصة روحي وإحساسي ؟
صديقتي (لين) حالتها في منتهى السوء، تتدهور يوماً بعد يوم، وأعتقد أنها تدنو خطوة بعد خطوة من باب مصح عقلي، هذا إن لم يكن من باب الآخرة، إذ لمّحتْ لي أكثر من مرة بتفكيرها في الانتحار ! أمّا زوجها فقد بدأتُ أكنّ له العتب، إذ يبدو أنه لا يرى الحياة الزوجية متحددة إلا في ليلة الزفاف وشهر العسل ! لقد نسي أن الزواج يمتد في مشواره الطويل حتى إلى هنا. إنه الآن بعيد عنها كل البعد وإن هما في بيت واحد، في غرفة واحدة ! وإذا خطر بباله أن يتدخل في الأمر، فبالعصبية والتوتر والتأنيب وعدم الاعتراف بأنها مريضة نفسياً، والإيمان بضرورة قطعها المعالجة ورميها العقاقير التي تتعاطاها بعيداً ! علماً أن حياتها الآن بلا أم، بلا أب، بلا أخت، بلا أخ، إذ لديها هنا في اللاذقية أخ أناني متزوج من امرأة أنانية، وأخ آخر بعيد في كندا، حتى صديقاتها ابتعدن عنها . لذا فإنها الآن لا تجد سواي، فهي تتصل بي أكثر من مرة في اليوم، في أيّ وقت يروقها، وإن كان متأخراً في الليل، تبكي، تشكو، ترجوني كل الرجاء ألا أتركها، ألا أتخلّى عنها كما فعل الآخرون، وتكرر لي رجاءها على الرغم من أنني أجيبها دائماً بأنها صديقتي، وأن هذا لا يمكن أن يحدث لأنها صديقتي العزيزة، ولأنني لا أريد أن أفعل ما لا يرضي الله .
هذه هي قصتي التي أعيشها الآن يا صادق، هذه هي أزمتي، لا لأنني أضيق بصديقتي، بل لأنني لا أستطيع أن أقدم لها القليل من خبرتي التي تبقى متواضعة مهما حاولت أن أحصل منها. كم لدي الرغبة من أن أتصل بزوجها وأدلي بما أريد قوله من ضرورة شدّ رحاله بها إلى دمشق.
وأخيراً لا بد من الإشارة إلى رغبتها المتلهفة إلى أن أخرج معها، في حين أن أكثر من نوبة تنتابها في اليوم. لا أريد شيئاً يا ساسو من إفضائي سوى أن تسمعني .

ريم
١٣ / ٩ / ٢٠٠٩

صباح الخير ساسو ،
بايحاء مما قلتَه لي بالأمس حول إمكان نشر كتابتي حول زوجة حنّا مينة الفقيدة، بدلاً من أن أكتفي بأن أحدثك عنها هاتفياً أو برسالة خاصة. ها أنا لم يمض عليّ البارحة إلا وسطّرت خاطرتي بعنوان (رحيل) أبثُّ فيها مشاعري تجاه هذه الإنسانة الرائعة، وسأنشرها في صحيفة الوحدة لأنني أريد أن أعرّف بها الناس أوّلاً، ولأنني لا أستطيع البقاء دون عمل كما ترى أنت ثانياً .

ريم
٦ / ١٢ / ٢٠٠٩

صديقي
لقد سهرتُ بالأمس حتى الثانية فجراً وأنا أستعيد قراءة رسائلنا التي تبادلناها عبر السنوات الماضية، مثلما سهرتُ أوّل أمس كما أخبرتك حتى الثالثة. ما أحلاها .. ما أعمقها .. ما أغناها بإحساسنا وفكرنا وثقافتنا !
أفاجئك بأنني سأهيئها بغية تقديمها للنشر ربما في وقت قريب، كي يستمتع بها قراؤنا، ويشاركونا العوالم السامية التي ارتقينا نحو شذاها وضيائها، وإن كانت رفيف ترى أن الوقت لايزال مبكراً ، وأنه يحتاج إلى المزيد من التأخير كي يكون لها وقعها الأكبر .
على أي حال.. سأهيئها، وربما سيقع اختياري على دار الآداب. لكن اسمح لي أن أحذف بعضها، لما انطوت عليه من انهزامية لا تليق بنا، ولا بسطورنا، إذ إنها لا تشكّل سوى مرحلة عابرة يمكن أن يستشف أبعادها القارئ من رسائلنا – التي ستكون أمامه – بصورة غير مباشرة .
ريم
٢٤ / ١٢ / ٢٠٠٩

صديقتي ..
سُعدتُ برسالتك وبحماسك المتّقد لنشر رسائلنا، وإني أشاطرك الرأي في كل ما قلتِه. ليتكِ تطلعيني على الرسائل التي ستغفلين نشرها وذلك من باب أخذ العلم، ومناكفتِك كعادتي .
صادق
٢٤ / ١٢ / ٢٠٠٩

صباح الخير ملهمتي ..
مع أوّل يوم من العام الجديد بأجوائه الشتوية الموحية، إذا بي، ودون مقدّمات، أدندن لحن أغنية فيروز (يارَيْت انت و أنا بالبيت)، حتى رحتُ أغنّيها لنفسي! سِرُّ إعجابيَ الشديد بها : الانسجام التام بين لحنها ومضمون كلماتها، فضلاً عن جوّها الرومانسي الأخّاذ.
سَبَقَ أن تطرّقنا إليها في رسائلنا وأحاديثنا، إلا أنني في هذا اليوم، يحلو لي أن أهديها لك .
عام سعيد ..
صادق
١ / ١ / ٢٠١٠

صادقي
مساء الخير .. مساء العام السابع من تجدد حبنا الصادق ..
أكتب إليك في هذه الساعة الأولى من اليوم الرابع، وعذراً لتأخّري في الاطلاع على رسالتك في اليوم الأول، ذلك بفعل إشكال طرأ على بريدي .
صادقي .. صحيح أن الأقدار القاسية لم تتح لنا أن نقيم في واحد من البيوت الحجرية، لكن ليتنا لا ننسى أننا منذ اليوم الأول ونحن نحيا ببيتنا الروحي الدافئ .. بيتنا العالي المضيء الذي ليس من اليسير على أي اثنين أن يرتقيا إليه .
عامنا سعيد ..
ريم ٤ / ١ / ٢٠١٠

صباح الخير ..
كم من أحيان لا أريد فيها أن أقول شيئاً، لكن فقط أريد أن ألوذ بروحك الرحيبة النقيّة الشذيّة .. كي أفرغ في آفاقها ما يزدحم في رأسي من ضجيج العالم ..
ريم
٢٠ / ١ / ٢٠١٠

صباح النور والشذا ..
إن كان ثمّة من سعادة لي في هذه الحياة .. ما هي إلا سعادتي بلَواذ روحكِ الشفيفة بروحي المشرعة لك دائماً ..
صادق
٢٠ / ١ / ٢٠١٠

خطرات

السِتّون ..!!
على خطواتٍ مِنِّي
الزيارة انتهت
أنا الآن في طريقي نحوَ السماء
الطريق قفر .. هواءُه جاف
ربّما يقصُر.. ربما يطول
ليس من لافتةٍ تُشير ..
لكنّ صوتاً طَلِيّاً
لغادةٍ عَطوف
لا يني كلَ يوم
ينسُمُ في سَمْعي
يُحيلُ القفرَ خُضرة
ويُفعمُ الهواءَ نَداوة

***

ظِلُّ ابتسامتِها العذبةِ الحلوة
مَثُلَ في خاطِري
على حين غَرّة
أعادني لسنينَ خلت بمَسرّة
هيهاتَ تعود
ولو لمَرّة ..
ظِلُّ ابتسامتها العذبةِ الحلوة
سنَحَ لي في لحظةٍ
من شيخوخةٍ
مُرّة

***

الوردة الوحيدة
التي تفتحت رويداً رويداً
على نافذتي
وسامرتني وفنجانَ قهوتي أياماً
تقول لي وداعاً !

***

كوَردة
في أوج تفتّحها
ما أجملك أيها الإنسان
وما أروعك بفتوتك
مُزداناً بتاجِ الأدب
وصولجانِ العِرفان ..
وكم تدعوني إلى الحزن والأسى
أيها الإنسان
عجوزاً.. تذوي
كأن لستَ
الذي كان !

***

على رِسلِكَ أيها الشابُّ
على رسلك
إنْ هي إلا سنينَ تنقضي
كطَرْفةِ عينك
فلا تُؤخَذَنّ بجامحِ فُتُوّتِك
وخُصُلاتٍ تنتفِضُ نزِقةً على ناصِيَتِك
أو خطوةٍ واثقةٍ في مِشيتك
ولا تنظر إلينا نحن الشيوخَ
بطرَفِ عينك
كأنّا لم نكن يوماً في مثلِ سِنّك
إنْ هي إلا سِنونَ تمّحي
كطَرْفةِ عينك
لتُمْسِيَ واهناً على عُكّازك
ثم تذكّر يوماً ستقفُ فيهِ مرتعِداً
بين يديّ ربّك
فعلى رِسلك أيها الشاب
على رِسلك

***

السماءُ زرقاءُ مُزدانةٌ بغيماتٍ بِيضٍ ناصعة
والطيورُ تُحلّقُ والبلابلُ تشدو
والشمسُ بازغة
الخضرةُ تكسو السهولَ وسفوحَ جبالٍ شامِخة
والنسائمُ تداعبُ أوراقَ أشجارٍ باسِقة
والفراشاتُ تحومُ في المروجِ الخضرِ
حولَ زهورٍ ناضِرة
الجدولُ ينسابُ صافياً نحوَ بُحَيرةٍ وادعة
صفحةُ البحرِ تتماوجُ مع الأنسامِ زرقاءَ لامعة
أطفالٌ يلعبونَ في دَعَة
وبطّاتٌ تُوَقْوِقُ فرِحة
وقِطعانُ مواشٍ دَهِشة
من مواشٍ تتناحر
يقالُ عنها
عاقِلة !

***

ما بالك أيها الإنسان
تهيمُ مسعوراً كالغِيلان !!
ألا تَفَكّرْ بالروح الأزليّة الأبديّة
في الكيان !!
ألا يعنيكَ سوى المالِ والجاهِ والسلطان!!
حاسِباً نفسك حاذِقاً يقْظان !!
تبّاً لك من غافلٍ جهلان ..

***

تغذّ السيرَ في مسالكِ الحياة لاهثاً ..
أيّها الإنسان
أإلى سوى حُفرةٍ ينتهي مسيرُك ..؟!
لديك مبرراتك ..؟!
لكنكَ تهيمُ على وجهك كالمفجوع مسعوراً !!
تخافُ أن يداهمَكَ الموتُ ولم تنل ما وسِعَكَ من دنياك ؟!
رويدكَ .. رويدكْ ..
مع إطلالةِ كلِ يوم
يغيبُ عنكَ ما في سابقِهِ أمضَيت
فما بالك وأنت تراباً قد أمسَيت ..!
أيُّ نفع سَيَنوبكَ ممّا قطفتَ من الدنيا وجنَيت ..!
فسِرْ في الحياةِ على مهلكَ باتزان
سعيداً بقوتِ يومك
وبأحبّة وخِلّان
وروّح عن نفسك بين آنٍ وآن
متأمّلاً
في أحضانِ هضابٍ
ووُديان

***

الأرض ..
أُمُّنا البديعة
أمّنا الطيّبة..
نشوّهُها.. تتغاضى !
ندمّرُها.. تصفح !
نقتتل.. تبكي ..
أما آنَ لنا أن نكفّ عن غبائنا
فنرأفَ بأُمّنا
أرضِنا الطيّبة !!

***

إلهي ..
حين تتناهى إليَّ أنباءُ البشر
أتضاءل.. وأتضاءل ..
خجَلاً وحياءً منك !

***

هِبَةُ الكريمْ
دُرَّةٌ مكنونة
كَنزٌ عميمْ ..
آيُ جمالٍ تجلّت
روضاً من نعيمْ ..
إنها ريمْ
نورٌ تبدّا
أحال حُلكة المدى
ضياءً.. سَنا ..
أنبتَ القفرَ نخلاً
سريلَ وجداني
هَنا ..

***

ـ حُوريّتي .. تعالَي معي
ـ وبحاري .. أهجرها ؟!
ـ تقررين بعدها .
حمَلَها على ساعديه
وسرى بها ..
ـ هذي حقولي .. تلك مروجي ..
ـ يا لروعتها ..!!
حالت الحُوريّة
صار لها ساقان جميلتان
هامت بالسهول والهضاب والوديان
وقررتْ
هجر كهوف اللؤلؤ والمَرجان

***

ما إن أودّعُها
وأغلقُ السمّاعةْ
أشتهي فنجان قهوةْ
أُحضّرُه
وأُشعلُ سيجارةْ !

***

عند السَّحرْ
رسمتُ لوحة
من ربىً .. ويمامٍ.. ومطرْ ..
جلستُ إليها
أرشفُ قهوةْ ..
إذا بطَيف ريمٍ سارحة
تختال رشيقةً مزهوّة
وثبةً في إثرِ طَفْرةْ
أيّ نشوَةْ !!

***

ـ أوّاهُ عصفورتَنا
حزنٌ لا يني يعتصِرُنا
عُشَّكِ لا تبرحين !
حلُمٌ لا يني يراودُنا
تَرُفّينَ.. تُحلّقينْ
الأجواءَ تجوبينْ
ليتكِ حلُمَنا تُحقّقينْ
ـ أوّاهُ عليكم ..!
من عُشّي هذا
أرى ما لا ترَون
ببصيرتي أجوبُ الآفاقَ البعيدة
أزورُ الكواكبَ والنجومْ
أرى نفوسكم أكثرَ ممّا ترَونْ
يا ليتكم لا تحزنونْ

***

كلّما أمتعتني قراءة
كلّما داعبتني نسماتٌ رطيبة
كلما رَعَشَ قلبي لأغنيّة
كلّما انسابت فيّ ألحانٌ شجيّة
تمنيتُ لو كنّا معاً
سويّة

***

نجم :
ألا أقبل إليَ يا قمر
القمر :
يتلاشى عنكَ ضيائي إن أنا أتيت
ألا أقبل أنت إليّ
النجم :
يأفلْ عنك بريقي إن أنا فعلت .
آثرا البقاءَ كلٌ في مكانه
قمرٌ ينير .. ونجمٌ يلمع
رغمَ توقٍ موّارٍ في كليهما
للانصهار الأبديّ في الآخر

***

عصفورتي ..
أسمَعك تغرّدين لي منادية
وأعي أنك سئمْتِ أيامك الباردة
وأنك تلتمسين دفءَ جناحِيَ
ورفقتيَ الدائمة..
وكلانا يلوبُ نزِقاً
من أسلاك شائكة
باحِثاً عن فرجةٍ سانحة..
أسأل الله قوةً خارقة
لألويَ تلك الأسلاك الجائرة
وأحملَك معي إلى عُشٍّ لنا
في البراري الشاسعة

***

وصوتكِ يُمطرُ الحنانْ
تسألين عني في كل آنْ
ويحي ..
كيف أُبالي
بما بي
من كدَرٍ وأحزانْ
ويحي ..
كيف أبالي ..!
وبكِ أكرمني
إلهيَ الرحمن !

***

ما أصابوا إذ قالوا
إنكِ رمز الجمال
ما أصابوا إذ قالوا
إنك ينبوع الفضيلة
أنت الجمال
أنت الفضيلة
فأيَّ ثراء بعدُ أرتجي
وقد اصطفيتني
لك موئلاً
دون البشر

***

ينعكس النور
من الأشياء إلى العين
فتتبدّا الصّور
لكن شعاعاً
من عينيّ
نفذَ إلى عينيها
عاكساً
جمالاً في خَفَر

***

في ليلةٍ شتائية
باردةٍ .. حالكةْ
والناسُ يلوذون ببيوتهم
مُسَمَّرينَ أمامَ شاشاتهم الصغيرةْ
أطلّ عليهم قمرٌ إنسِيٌّ
نوّرَ ليلهم بهالةٍ أخّاذة ساحرةْ
ثم راح بكلماتهِ المُنثالةِ
مِن فِيهِ الجميلْ
يُدْفِئُ نفوسَهم
يؤنسُ أرواحهم ..
تعلقتْ به العيون كما القلوب
أحبّه الصغارُ كما الكبار، لكن
سرعان ما ودّعهم
قالوا :
ليتك بقيتَ معنا
ليتك تعودْ
كلَّ ليلةٍ
يا قمر

***

مُذ شاهدها
دون أن تراه
واستمعَ إليها تتحدث
دون أن تدري به
أحسّ أنها بعضٌ منه .
مذ قرأتْهُ ثم تحدّثت إليه
أحسّت أنه بعضٌ منها .
سرعان ما رأى كلٌ منهما
الآخرَ توأمَه..
راحا يتناديان .. يتناديان
يتناديان ..
وإذا ببرزخ بينهما
لا يبغيان !!

***

ساعة هجعتي
تنسابُ عصارةُ كلماتكِ في ذاكرتي
جدولاً صافياً .. فِضّيّا
على رقرقته أكاد أغفو
حالماً.. هنيّا ..
وإذ به فيّ
تيّارٌ يسري
داهِماً.. هائِماً.. عَتيّا
يروم مصبه البحريَّ
يفنيه .. أو
يفنيني
مُسْهَداً أسِيّا !

***

ـ رحيقكِ قد صارَ غذاءَ جسدي
ونسغَ روحي
ـ ارتشف منه ما شئت
ـ سأرتشفه حتى الثمالة
ـ رحيقي لا ينضب
ـ إذن دعيني أسكر
ثم أصحو .. ثم اسكر
أموت وأحيا .. أموت وأحيا
رغمَ عيون العَسَسِ والعسكر

***

خلف التلال
في مدينة البحرِ
زنبقة..
تأبى الذبول
متفتحةً عبِقة ..
تغالبُ متفانية
رياحاً وأعاصيرَ عاتية ..
عبر المدى تبثّني
نفحاتٍ من شذاها
صباحيَ ومسائيَ ..
تخبِّئ رحيقها
تنتظر قدوميَ
لِتسقيَنيهِ معتّقاً
وتملأَني عافية..
من قال إنّ وحدتي قاتلة !
خلف التلال
في مدينة البحرِ
زنبقة..
تأبى الذبول
لَمّا تزل
تنتظرني راسية

***

كلما سامرتُ طيفكِ
عاتبني القمر ..
كلما ناديتُ اسمَك
تأوّدَ الورد .. وماسَ الشجر ..
كم من نجمٍ ينبثق
إذا ما ضمّتك ذراعاي
وقتَ السحَر ؟!
***
أوراقٌ ظليلة
ألوذُ بها ساعاتِ الحَرّ العصيبة
لحفيفها هدهدةٌ تفعمني سكينة
لرعَشاتها نسيمٌ نديّ
لخلَجاتها لحنٌ شجيّ ..
إنها أوراقُ واحتي
تلك الفريدةْ
***
رنّتانْ
هنّ لي من جوّالها
كل صباحٍ
همستانْ ..
كل مساءٍ
لمستانْ ..
يهفو الفؤادُ لهنّ
يدقُّ .. يدق
ذائباً راعشاً
لَهِفا
***

بُعَيد كلِّ وداع
أتشتت
ألوبُ
أهيمْ
في دُنىً لازَورديّةٍ
من سديمْ
ثم أحُطّ آيباً
على الواقع المرّ الأليمْ ..
لكنّ يوماً لابدّ قريب
بُعَيد كلّ وداع
لن أتشتت
لن ألوب
لن أهيم
سأعود لحضن
العُشّ الحميم

***

من بساتين الشروق
غرستُ في غرفتي شجيرة
ثمارها لا تني تغريني
وتناجيني منها ثمرة..!
واقلباه .. تجلّد
إنْ هي إلا آهة يسيرة

***

إثر مَطْرةٍ سخيّة
عند منتصف ليلةٍ صيفية
دنتْ من نافذتها في العتمة
تستنشي نشوانةً هنيّة
أريـج الأرض المخضلّة
يتضوّع في الأرجاء النديّة ..
وإذا ذراعاه يباغتانها
يطوّقان برفقٍ خصرها ..
وإذا شفتاه
تمسّانِ بتحنان
عُنقَها ..
وإذا بالسحاب انفطرْ
ليطُلّ وجهُ القمرْ
مسربلاً نورَهُ زوجينِ وليفينْ
وشاحاً شفيفاً من لجينْ ..
وادعةً .. مستكينة
عطفتْ عنُقَها
ناظرة إليهْ..
وإذا العيون
لامعاتٍ قريراتْ
في بعضهنّ سابحاتْ
برضىً وهناءٍ بائحاتْ ..
لوحةً بديعةً كانت
مباركةً
من ربِّ السماوات

***

بذورنا التي خبّأنا
في تربة الزمان
إن هي تفتحت يوماً
ورداً طالما انتظرناها
ستُضْحي ورداً شذيّة
نُسرُّ بمرآها
تبهجنا مع كلِّ شروقٍ
بولادةِ برعمٍ واعدٍ
بطيبِ مَحْيانا

***

كلما توفانيَ اللهُ ليلاً
تحوْرُ روحي فراشةً بهيّةْ
تعبُر الأمداءَ القصيّةْ
لتتوسّدَ ثمّة
شعركِ الشذيَّ
وتؤوب فجراً
إلَيَّ

***

مهما نظرتُ لا أرتوي
من عينيك الحالمتين
اللتين يوماً
كم هِمتُ بهما
نزقتين ..
مهما نهلتُ لا أشبع
من الريّانتين الكرزيتين
يا لهما من مُسكِرتين !!
لا مُلهمتي
ليس الذي تصورتِ قصدتْ
فذاك لمّا يزل
حلُمِيَ الجميل.. بعيدَ المنال ..
مهما نهلتُ لا أشبع
من حلو الكلام الناعم الطَلي
ينسابُ من شفتيكِ
ترانيمَ عبر الأثيرِ
آتية ..
ذاك ما عنيت

***

في أمسيّةٍ مقمرةٍ صيفيّةْ
حول بركةْ
على صفحة مائها الشفيف تطفو
صنوف الزهر والورد
بألوانها الزاهيةْ
راقصةً على مويجاتِ نافورةٍ لاغيةْ ..
بهرتْنا ببديع زخارفها
تلك الدار العربيةُ الحلبيةُ الأصيلةْ
تضمّنا إليها كأنا
أشقّاءُ ما في صحنها
من فُلٍّ وريحان
وقرنفلٍ وأقحوان ..
لكنّا
سرعان ما تحوّلنا عنها
إلى التي انبثقت
من إحدى زواياها
وراحت تحدثنا ..
فنسينا المكان والزمان
مُصغين إليها .. مأخوذين بها
في حلّتها الليلكيةْ ..
بنفسجةً كانت ولا أحلى
تلك الريمُ الهلاليةْ

***

- تعالَي ..
تعالَي نستحمّ سوياً
- ..... !!
- يا لحيائك ملهمتي
لا.. كلّا !!
ليس الذي تصورتِ عنيتْ
أن نغسلَ روحينا
من شوائبِ ما فاتَ من سنين
ذاك ما إليه رميت

***

سكونُ ليلٍ
ونَوْسُ أنغام ..
بقعةُ ضوءٍ على منضدة ..
أوراقٌ مبعثرة
كتابٌ صفحاته مشرعة
فنجانا شاي فارغان
إلّا من ثُمالة
نورٌ ينساحُ واهناً
من كوّةِ مدفأة ..
وفي الركنِ الدفيء
روحان انزوتا
في عبادة

***

حينما يسحَرني بهاءُ الطبيعة
حينما تأسِرني عظمةُ الفضيلة
حينما تغتبطُ نفسي بالذي
يرقى إلى الكمال
إليك يسمو
ملهمتي
بيَ الخيال

***

بكلماتنا الموحية
على مدى سنين ثلاث
كم تعانقنا
كما ولا أجمل
إلى أن همستِها
لأول مرّة
عبر الأثير مودّعة
" عانقني "
آهٍ .. آه
كم بها رسّختِ فيّ
حقيقة حبّك الأمثل
كم بها أحسستُ
نشوةَ حبّ
تجدّد

***

ما أبهاكِ على المنبر
رزاناً رصينة
تحاضرين أمام ناظريّ
فإذا بك كائنٌ قدسيّ
تعشقُهُ الأذن والعين
وتركُنُ الروح
خاشعةً إليه .
ويسرحُ بيَ الخيال
يتمثلك
بشراً سويّاً
متماهية فيَّ
تذوبينَ نشوى
بين يديّ ..

***

– في كلِّ حينٍ
أناديكْ
عبر المسافات
أناديكْ
يا ضياءَ دربيَ الصباحي
وأنوارَ سكينتي المسائية ..
– ناديني .. نادي
من على الشرفة البعيدة
نادي ..
ما بوسع طيرٍ أقصوهُ عن وليفهِ
سوى أن ينادي ..
نادي .. وأُنادي
لعلّ الزمان
بين صبحٍ ومساء
يحنو علينا
مغرّدَينِ
ننادي

***

أمَن يُصدِّق
أنه في القرن الحادي والعشرين
قد رأى النورَ
حبُّ رجل وامرأةْ
يكبرُ سنة إثرَ سنةْ
مترفّعاً عن كلِّ غاية ؟
لا.. ليس بوَهْمٍ ولا خرافةْ
إنه حُبُّ رجلٍ في الخمسين
لامرأةٍ في الأربعين
حُبٌّ ليس باعثَه جسدان جامحان
ولا عَقْلانِ يَحسُبان
بل روحان متوائمتان
حُبٌّ جاوز الحُبّ
إلى عالمٍ أرحب
عالمِ المحبّة الأشمل
حُبٌّ.. أين منهُ
روميو وجولييت ..
إنه حُبُّ صادقٍ لريم
وريمٍ لصادق
فإن كان الأوّلان
عانيا ما عانيا
فإن الآخَرَيْن
مازالا يكابدان ..
لعلهما يوماً
يلتقيان

***

لئن كان نزار
قد قالت له السمراء
فأنا قد قالت ليَ البيضاء..
وهل يستوي ما في السماوات
وما في الأرض !

***

أتُراهُ شغَبٌ أنْ تستكينَ قطّتي
لشغبِ مُلامسَتي ريشَها الأبيض
فتلامسُني بكل رفق !
أتراهُ شغَبٌ
- كما ترى -
أنّ شفتيها
لامَسَتا يدِي !
إن لم تعد قطّتي البيضاءُ
ترى نفسها
مثالَ طالبةِ المدرسة
الهادئة المتعقلة
فقد أمست
مثالَ الحبيبة
الحييّة المتأنّية

***

سجّانتي الحانية
إن فككتِ أسري
في أيام ليتها ليست قادمة
يا لي من تائهٍ
حينها

***

أرى إلى أصابع يديكِ
تنقر مفاتيح الآلة الكاتبة
كما لو كنت أرى إلى
طائرين أبيضين
يتلقّفان الحَب بمنقاريهما
في خفّةٍ .. متجاورين
فأوَدُّ لو أضمّهما معاً
بين يديّ
رئيفاً .. حانياً ..
ترى لو هَمَمْت
هل يستكينان ؟
لو أدنيتُ شفتيّ
للمسةٍ كالهمسِ
أما يفزعان ؟
أما يفرّان ؟

***

بنبَرات واثقة
تريْنَني للصِّدْق إماماً
وللثقة صَرْحاً آمِناً ..
لسنينَ ولازلتِ
تُزْجين لي حبّكِ خالصاً ..
واليومَ
تُشيدين بي عظيماً ..!
إنْ طاوعتُ الأقدارَ تنأى بي عنكِ يوماً
أيُّ جاحدٍ أكون
أيُّ أفّاكٍ أكون
***

أغنيةٌ من الأغنياتِ أنتِ !
قصيدةٌ
ترنيمةٌ
سمفونيةٌ.. أنتِ !
هدهدةٌ
ترتيلةٌ كنَسِيّةٌ
أذانُ فجرٍ.. أنتِ !
أنَّى من دونِكِ أستكين
كيف لروحي
إليكِ لا تصبو
في كلّ حين
***

منفعلةً قاطعتِني :
" لاتصفْ نفسك
إنك تُبخِسُها حقّها
دعني أنا أصفها "
علّقتِ على صدري
وسامَ الاستحقاق من الدرجة الأولى
وألبستِني وشاحَ الإنسانيةِ الأعلى ..
أذهلني الحدّ الذي سبَرْتِ في عُمْقِ أعماقي
إذ لم يَصله قبلكِ سوى أمّي !
طوبى لي بكِ حبيبةً
لعلّ الله يأذن يوماً
لتكوني
شريكةً لحياتي

***

يا من شوقي لرفيع أدبها لا يريم
يا من توقي لسحر عالمها لا يغيم ..
يا من حنيني لعذب صوتها لا يستكين
صمتك ليوم أخاله هجران سنين
أما يكفي البعاد جوراً ..
كي تأبهي لحال مسكين ..!

***

اضمحلّتِ ألوانُ حياتي
عادت حُلْكةُ أيّامي
تبدّدت أحلامُ سنين
امتثالاً لقدرٍ قاسٍ
لابدّ بِنا رحيم ..
لن نشربَ قهوةَ الصباحِ معاً
لن ننعمَ سميرَينِ معاً
بنسماتِ المساء
لن نكونَ معاً على مائدةِ العَشاء
لن ندفأ لصيقين أيام الشتاء
لن نسمعَ الموسيقى معاً
لن نقرأَ معاً
لن نصلّيَ معاً
امتثالاً لقدرٍ قاسٍ
لابدّ بِنا رحيم ..
بَيْدَ أنّا
سنبقى أبداً
وليفينِ روحاً
أسمعُكِ وتسمعينَني
كل يوم .. لكنْ
من بعيد

***

قحطٌ وجفافْ
أنينٌ وموتٌ ونحيبْ
يا لليوم العصيبْ !
وإذا بقُبّرةْ
تحطُّ على نافذةْ
هائمةً لائبةً باحثةْ
عن حبّةٍ أو بذرةٍ شاردةْ أو ماءٍ ساربةْ !
أتاها إذ رآها بنثرةِ بُرّ
وطبقِ ماءٍ ممّا ادّخرْ
غرّدت أغرودةً عذبةً شاكرةْ
ثم رفرفت مغادرةْ ..
تتالت أيامٌ على ذاتِ الشاكِلةْ
فما من حبّةٍ أو قطرةِ ماءٍ باتت لديهْ
فكانَ حالها كحالهْ
يسيران نحو هلاكٍ لا محالةْ
لكنها غيرَ متوانيةْ
واظبت على زيارتهْ
تشدو له مغرّدة
عييّةً منهكةْ.. غير آبهةْ بما فيها من مَسغَبةْ ..
حتى كان صباح
أتت في موعدها إليهْ.. غرّدتْ وشَدَتْ
حتى انهدّتْ في الزاويةْ
مُسلِمةً روحَها مع تغريدةٍ متناهيةْ ..
هناكَ في الأعالي هُما
لابدّ وليفانِ
في عيشةٍ هانئة

***

شقيقتان
من شقائقِ النعمان
بصيرتان
الشمسَ تُضاحِكان
القمرَ تُباسِمان..
ميّاستانِ
ببعضهما دفيئتان..
شقيقتانِ
صفيّتانِ
بصيرتان
كنارانِ أبيضان
لا يألُوانِ لَصيقين يَرِفّان
يُغرّدان
آلاءَ ربِّهما
يُرَتِّلان..
رِيمان .. رَفيفان

***

لِلّتي بين حينٍ وحين
عبرَ شقيقةِ الروح
ألقى طيبَ محبّتها ..
لرفيف
من جُنينةِ نفسي
أقطف زنبقة

***

رفيفُ تَرُفُّ
تحيّيني ..
فيرِفُّ قلبي
يحيّيها ..
هي لي أختٌ
وأنا لها أخٌ
يا لَأخوّتِنا.. ما أحلاها !

***

وقت اللي خلص الحكي
ودّعتني وهمست :
(باي)
ياي عهاك الباي
ولا بحّة ناي ..!!
لو تعرفو شو عملت فيّي
كركبتني .. شلّتني ..
خَلّت بإيدي السمّاعة معلّقه
وروحي بين ضلاعي البردانه
ملوّعه .. مطوّحه
مو لاقيي حدا يْدِلّا
عا مَطْرَحا !!

***

أطربَني صوتها
وأنا فتىً
يوم كان العناقُ
بالإمكانْ
وما كانْ
حتى طواهُ الزمانْ ..
ثم عادَ وأنا كهلٌ
فأسكرني ..
سائلاً الحبَّ والحنانْ
متوهّماً أن لم يعد ممْكناً
ما كان بالإمكان !

***

يا غصوناً تنوئينَ
بيانعِ الثمرْ
تأبَينَ التواءً
وقد طابَ منكِ الحَبُّ
واختمرْ !
لمَ الضنّ على الداني
وقد تفيّاك زماناً
يرومُ شذاكِ
كلَّ سَحَر ؟!

***

لحَظاتُ سعادتي العارمة
في محطّاتِ أعواميَ الخمسين
ثلاث لا رابعَ لها :
أصيافٌ بحرية
أنْدَت طفولتي ويفاعتي
بين أسرةِ خالتي الحاتميّة ..
غفَواتٌ وردية لأطفالي .. أيام شبابي
على ركبتيَّ ..
صوتٌ رقيقٌ ناسَمَ سمعي
فآنسَ كهولتي
من حُوريّةٍ بحريّة

***

نأتِ الأقدارُ بكم
همسَتي .. ديمَتي .. ناظِمي ..
فزادت أيامي جفافاً وقساوة ..
أسألُ الله أن يجلوَ الغَمامة
وأن يحقّقَ ما تصبو إليه نفوسُكم الفتيّةُ الطيّبة ..
أعانقكم أحبابي ..
عناقَ أبٍ قد أثقلَ شوقُه إليكم كاهِلَه
وأقضّ مضجعَه الحنين ..
وألثِم وجناتكم فرحاً
بلقاءِ كلٍ منكم
بوليفِ العمرِ الخلوقِ الأمين

***

تمرّ السنين على رحيلك أبي
ويبقى طيفكَ الجميل
ينيرُ جنباتِ نفسي ..
أفتقد قبلاتك تتلاحق
على وجنتي أبي
نلتقي بإذن الله
في جنان الخلد
أبي

***

ر حلتِ شمسَ حياتي .. فحالت أيامي صقيعاً
كم أفتقد صوتك الواهن أمي
يناديني .. بين فينة وفينة
سائلاً رشفة ماء ..
كم أفتقد دعائك لي أمي
ينبع من صميم قلبك الطيّب النقي ..
لن تفيَ كلماتي .. أمي .. مهما عظُمت وأبانت
ما أغدقتِ عليّ وأخويّ
من عصارة حنانك .. ودفءِ مشاعرك ..
ولن يفيَ عِرفاني أمي
ما رُقتِهِ لنا سيلاً من عافيتك ..
نلتقي بإذن الله
في جنان الخلد
أمي

**

*** * * ***

**

{ أبي وأمي 1980 }

وأنا أتنقَّلُ في هذا الكتاب، ما بين صفحات الضوء الأبيض، متمثّلةً في ارتقاء الأسلوب وبراعة الغوص حتى اللآلئ ومتانة الخيوط الحريريّة في كلّ نصٍّ من بدايته إلى نهايته، مضافاً إلى ذلك كلّه نقاء الروح وسموّ الخُلُق ورهافة الحسّ الإنسانيّ؛ كم آسَفُ لكون مؤلّفه لم يُصنَّف ذاتَ يوم واحداً من كبار الأدباء، برغم أنه يضاهي الكثيرين منهم كما يتجلّى لي، أو يفوقهم في مدارجه التي بيسرٍ وعفويّةٍ قد علاها ! إنه حقّاً تقاعسُ أديبنا هذا عن النشر إلى سنّ السبعين التي هو الآن فيها، تقاعسُه في المثابرة على المزيد والمزيد من غمس قلمه في ينبوع مداده الأزهر.

صادق السباعيّ .. يتيمٌ كتابُكَ هذا، ويتيمةٌ ترجمتك البديعة لإحدى الروايات الأمريكيّة إلى العربيّة، لكن لعلّهما يخطّان اسمك يوماً، أديباً مرموقاً على جدران الأبد، كما شأن بعض أدباء العالم الذين عرفت العصور كلَّ واحدٍ منهم من كتابه الواحد .

أ. د. ريم هلال

* * *

المحتوى :

مقدمة	٢
الإهداء	٣
قصص :	
وردة (قصة)	٥
قبلات الياسمين (قصة)	٩
معاً تحت مظلة واحدة (قصة)	٢١
تلك الهالة (قصة)	٣٣
دعوة إلى العشاء (قصة)	٤٧
سـوانح :	
دعيني أتزيّن أمي	٥٠
رقص الفراشات	٥٢
أحلى صوت	٥٤
تلك التحف	٥٧
الشجرة الظليلة	٥٨
أبو هشام	٥٩
كانت صدفة	٦٠
آباء وأبناء (١)	٦٢
آباء وأبناء (٢)	٦٣
نكوص الحبيب	٦٤
جدي إلى أين	٦٦
أم نضال	٦٧
صورتان	٦٨
حكى لي صديقي	٦٩
إتقان العمل	٧١
ريشة فنان مبدع	٧٢
رسالة لم تصل	٧٣
مع سعيد عقل	٧٥
من الشك إلى اليقين	٧٦
رسالة لعلها تصل	٧٧

ما أروعها لحظة	٧٨
من الأفلام	٧٩
أحسنت يا صادق	٨٤
من أيام خلت وشباب مضى	٨٥
يتمنّعن وهنّ راغبات	٨٩
ميثاق الأمم المتحدة	٩١
في العلاقات الإنسانية	٩٣
رسائلي و رسائلها	٩٨
خطَرات :	
الستّون – ظِلّ ابتسامتها	٢١٨
الوردة الوحيدة - كوردة	٢١٩
أيها الشاب	٢٢٠
السماء زرقاء – جهل وغفول	٢٢١
أيها الإنسان	٢٢٢
الأرض – إلهي	٢٢٣
هبة الكريم	٢٢٤
حوريّتي – قهوة وسيجارة	٢٢٥
عند السحَر – عصفورتنا	٢٢٦
كلّما – نجم وقمر	٢٢٧
عصفورتي – تسألين عني	٢٢٨
أنت الجمال – شعاع	٢٢٩
في ليلة شتائية	٢٣٠
برزخ	٢٣١
تيّار – رحيق	٢٣٢
خلف التلال	٢٣٣
توق – أوراق ظليلة – رنّتان	٢٣٤
العش الحميم – من بساتين الشروق	٢٣٥
لوحة	٢٣٦
بذورنا – فراشة	٢٣٧
لا أرتوي	٢٣٨
بنفسجة	٢٣٩
تعالي – سكون ليل	٢٤٠
ملهمتي – عانقني	٢٤١

ما أبهاكِ	٢٤٢
مناداة	٢٤٣
حب	٢٤٤
قالت لي البيضاء – قطتي	٢٤٥
سجّانتي – طائران	٢٤٦
ثقة – أنتِ	٢٤٧
وسام – توسل	٢٤٨
قدَر	٢٤٩
قبّرة	٢٥٠
شقيقتان - لرفيف	٢٥١
أخوّة – بحّة ناي	٢٥٢
صوتها – ضنين	٢٥٣
لحظات سعادتي – عناق	٢٥٤
أبي – أمي	٢٥٥
صورة أبي وأمي	٢٥٦
كلمة أ. د. ريم هلال	٢٥٧